

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية

مقدمة

لاقت القصة القرآنية اهتماماً بالغاً من جانب الباحثين والدارسين ، ويكاد هؤلاء يتفقون في تناولها من حيث الجوهر والمضمون وإن اختلفت وجهات نظرهم في بعض الأمور الجانبية ، وكان محور الاهتمام الغالب عليهم الاكتفاء بالسرد القصصي وحده والاعتماد على النواحي التاريخية والوصفية في تحديد مواقع الأحداث والإسهاب في طريقة العرض لهذه الأحداث ورسم الشخصيات دون أن يتطرقوا إلى الأثر اللغوي وبيانته في قصص القرآن الكريم !!

ولما كان هذا اللون القرآني في رفعته وسموه يتطلب اهتماماً واعياً من جانب الباحثين باستجلاء الحقائق والأسرار الباهرة الكامنة في تراكيبه اللغوية آثرت أن يكون موضوعاً لهذا البحث ، ذلك أن الجانب اللغوي في مثل هذا البحث تكون له مميزات فريدة وخصائصه الرفيعة وتجنبي من ورائه الثرة الطيبة ، ومن هنا كان شغفي الشديد بالأسلوب القرآني ورغبتي في سبر أغواره واستجلاء أسرار اللغوية الباهرة من أظهر الأسباب التي دفعتني إلى الحديث عن الإعجاز اللغوي في قصص القرآن الكريم ، معذراً للصورة التي أتت عليها التراكيب اللغوية وما تشتمل عليه من عبارات وألفاظ وأساليب تجعل للبحث اللغوي قيمته وفاعليته ، وتميز الأسلوب القرآني — في عرض قصصه — عن غيره من الأساليب وتمنحه أظهر الخصائص اللغوية .

وقد اعتمدت في هذا التحليل اللغوي على المنهج الوصفي الذي يقوم على تقديم صورة جلية أمام القارئ للجانب اللغوي في صوره المتعددة وأساره الباهرة، وكنت حريصاً — في المنهج الوصفي — على نقل القارئ إلى استنباط الحقائق وإظهار الآثار اللغوية الناجمة عن طريقة القرآن في عرض قصصه وتقديم أحداثه، ومن هنا كان للمنهج الاستنتاجي مكان كبير بين ثنايا البحث. ولم أقصر في هذا المجال على مجرد الاكتفاء بذكر الأمثلة القصصية القرآنية ووضعها في إطارها الخبري والإنشائي، ولكن أبيت إلى جانب التنسيق للتراكيب اللغوية وحصرها اهتماماً بتأحية الاشتقاق اللغوي للالفاظ فذكرت أصولها الاشتقاقية، كما أشرت إلى التوجيهات الإعرابية وعللت لذكرها وعرضت لوجهات نظر النحاة القدامى في هذا الصدد وعلماء القراءات، ودعمت هذه الملاحظات بالتركيز على الناحية التفسيرية والبيانية.

واعتمدت في هذا المنهج على أصول المصادر الأئمة اللغويين والنحاة كالقراء والزجاج وأبي عبيدة وابن الأنباري والسيوطي وغيرهم، كما تضمنت هذه المصادر الرئيسية الأصول الأولى لكتب علوم القرآن وتفسيره، فرجعت إلى ما ذكره حذاق المفسرين كالزخشري والطبري والقرطبي والشوكاني ونحو الذين الرازي وابن كثير وغيرهم ممن أسدوا خدمات جليلة للقرآن الكريم وأرسوا دعائمه على أسس من الجلاء والوعي والوضوح.

وقد بذلت جهداً مضمياً في الحصول على هذه المصادر وواجهت بعض الصعوبات في التوصل إليها خاصة وأن بعضها لم يكن مسموحاً بإخراجه من المكتبة للمطالعة على سبيل الاستعارة الخارجية، ومن ثم اضطررت إلى التنقل بين ربوع المكتبات ودور المعارف الثقافية ما كنا على مطالعة هذه المصادر التي

تمثل تراثنا الزاخر ، وكثيرا ما كنت أمكث الوقت الطويل بين أرجائها حتى
تمكنت من الإلمام بمادة علمية غزيرة تضمنت أصول المصادر للغويين
والنحاة والمفسرين والبيانين ، وأرجو أن يكون هذا قد دعم البحث وأعطاه
صورة طيبة في أسلوبه وطريقة عرضه .

وقد قسمت البحث إلى ثمانية فصول على الوجه الآتي :

الفصل الأول : أسلوب القصة الأدبية عند العرب :

وهو بمثابة مدخل للحديث عن القصة القرآنية ، وإنما أردت أن أشير إلى
سميات أسلوب القصة الأدبية وأظهر خصائصها وأغراضها مستدلا على ذلك
بالأمثلة ، كما بينت فيه الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ضعف الرواية العربية
القديمة وكيف أنها لم تلق رواجا كثيرا عند العرب القدماء كما كانت الحال
عند اليونان ...

الفصل الثاني : أسلوب القصة في الكتب المقدسة :

يقوم هذا الفصل على إبراز خصائص الأسلوب اللغوي للقصة في الكتب
المقدسة ، وأعني بذلك كتب العهدين القديم والجديد ، وذلك من خلال العرض
للأمثلة النصية الواردة فيها ومقارنتها بما ذكره القرآن الكريم حتى أصلي
من هذه الوسيلة إلى الغاية المنشودة وهي تمييز الأسلوب القصصي القرآني
بطابعه الفريد وسمو مكانته ، معللا لوجهة نظري نحو النصوص اللغوية الواردة
في القصة الإنجيلية موضحاً للأغراض الرئيسية لهذه الأمثلة القصصية ...

الفصل الثالث : الخصائص التعبيرية اللغوية لأسلوب القصة القرآنية :

أظهرت في هذا الفصل أبرز خصائص الأسلوب القصصي القرآني ،

ونوهت على أن هذه الخصائص اللغوية تسهم بقدر كبير في قضية الإعجاز القرآني، وتؤثر في نفس القارئ فتنقله إلى عالم الأحداث حيث يعايش وقائعها ويرى بنظره إلى أبعادها فيزداد قرباً من هذا اللون البديع المتميز. وإذ قصدت بالخصائص اللغوية أن أتحدث عن النظم القصصية في القرآن وأعرض لوجوه تركيبه ونسق حروفه وكلماته وتلاؤم فواصله بما يتفق مع المعنى ويظهر المضمون مستشهداً بأمثلة كافية. وكان من أبرز الخصائص اللغوية التي أشرت إليها إشار القرآن ذكر لفظة من البيئة التي تجري فيها الأحداث بين ثنايا القصة الواحدة على سبيل الاستئناس ونقل القارئ زمينياً ومكانيّاً إلى مواقع الأحداث.

الفصل الرابع : التكرار وأثره في اللغة القرآنية :

عرضت في هذا الفصل لقضية التكرار وتناوات الدوافع الرئيسية لهذا التكرار بما يميز هذا اللون القصصي البياني بوجوه من الفصاحة والإعجاز والبيان، واستدللت على التكرار بقصة موسى عليه السلام باعتبارها أكثر القصص تكرراً، وركزت فيها على الجانب اللغوي بقصد إظهار أثره الجليل الناجم عن التكرار. وعلمت فيه أيضاً لعدم تكرار قصة يوسف عليه السلام كسائر القصص الأخرى.

الفصل الخامس : من صور التركيب الإسنادي في القصة القرآنية « الجملة

الخبرية » :

وفيه ركزت على الجملة الخبرية في القصة القرآنية، حيث ذكرت بعض القصص على سبيل الأمثلة مثل قصة نوح وإبراهيم وهود ولوط وشعيب وغيرها. وأبدت اهتماماً بالغاً بالتحليل اللغوي للجملة القرآنية في إطار

الأسلوب الخبرى وأشرت إلى أغراضها السامية معتمداً على التقسيم الواضح
للمنصوص مراعيًا ضبطها الجيد بالشكل .

الفصل السادس : الجملة الطلبية في القصة القرآنية :

عرضت فيه للصيغة الطلبية على صورة الأمر بقصد حصر أهم التراكيب
اللغوية في هذا الصدد ، مركزاً على الجمل الدعائية الواردة على السنة الأنبياء
ثم التراكيب الندائية التي تليها صيغة الأمر ، والتراكيب المجردة من النداء في
صيغة الأمر ، ووقوع أن المفسرة في صدر الأمر ، مظهراً للأغراض الرئيسية
للك تراكيب في كل مثال ، عارضاً لوجهات نظر النحويين حول التوجيهات
الإعرابية ومواقع الكلمات في الجمل ، مشيراً إلى أغراض الأمر بعد أن تعددت
هذه الأغراض وتباينت تبعاً لسياق الأحداث القصصية .

الفصل السابع : أسلوب الاستفهام والنهي في القصة القرآنية :

وفيه عرضت الجملة الاستفهامية في القصة القرآنية باعتبارها تدخل في
الصيغة الطلبية وتعتبر من أهم صور التركيب خاصة وأنها كثرت في قصص
القرآن الكريم ، وقد تنوعت الأغراض المذكورة في أسلوب الاستفهام والنهي
تبعاً لمجرى الأحداث وأشرت إليها في مواضعها ، وكثيراً ما يتبع الجملة الطلبية
في قصص القرآن جمل خبرية مؤكدة وغير مؤكدة تقوم على التعليل زيادة
في البيان والإيضاح .

الفصل الثامن : أثر بعض الظواهر اللغوية للقصة القرآنية في الدراسة البلاغية :

وقد عرضت في هذا الفصل لبعض الظواهر اللغوية الجديرة بالذكر مثل :
الحذف وصوره في قصص القرآن كحذف الكلمات والجمل واستجليت أسرارها

الكامنة بين ثناياها ، معتمداً على التحليل اللغوي ، وعرضت بعده لبعض الوجوه الخاصة بالخطاب كالفرق في الخطاب بالاسم والفعل ، مستدلاً على كل ما أقول بالأمثلة . وقد قصدت من هذا العرض للظواهر اللغوية أن أستدل على الرابطة الوثيقة بين النحو والبلاغة ، ولذلك تضمن الموضوع العديد من الأسرار اللغوية للتركيب . وأشارت فيه إلى الابدال في الحروف والكلمات الخاصة بقصص القرآن الكريم والغرض من هذا الإبدال .

و كنت حريصاً في هذا العرض على وضع التراكيب القرآنية في أماكنها في صورة بديعة منسقة ، راجعاً في هذا كله إلى القرآن الكريم متتبّعاً لقصصه في سوره المتعددة ، وأرجو أن أكون قد وفقت من خلال هذا المجهود المتواضع في إخراج موضوع البحث على صورة طيبة تنال إعجاب القارئ وتقديره وإن كان الإخلال والتقصير مكان بين طياته فاني أتمس بالمعذرة لما بدر مني .

وقد قمت برسم خريطة توضيحية لشبه الجزيرة العربية لتحديد مواقع الأحداث بالنسبة للأهم القابرة مثل عاد قوم هود وثمود قوم صالح ومدین قوم شعيب ، وأتبع موضوع البحث وفصوله بمائة جامعة لأظهر النتائج التي يمكن استنباطها مركزاً فيها على الجانب الاستنتاجي من غير إلهاب وتفصيل ، وعلى خاتمة البحث قائمة بأهم المصادر والمراجع مرتبة بالنسبة للمؤلف .

ولا يفوتني - في هذا الصدد - أن أتقدم بخالص شكرى وعظيم تقديري إلى أستاذى الفاضل الدكتور / حسن عون لما أولانيه من متابعة دائبة وتوجيهات صائبة كان لها الأثر الجليل في إخراج البحث على صورته الحالية .

والله نسأل التوفيق والسداد

محمد السيد حسن

الفصل الأول

أسلوب القصة الأدبية عند العرب

أسلوب القصة الأدبية عند العرب

يجدر بنا الإشارة إلى القصة ودورها الكبير في الأدب العربي ، وما ترتب على ذلك من آثار جليلة في الميدان الأدبي . وقد آثرت افتتاح موضوع البحث بهذا الفصل تمهيداً للدخول في موضوعنا القصة القرآنية وتناول الجوانب اللغوية فيها بعد أن اقتصر كثير من الباحثين على مجرد الاكتفاء بالسرد القصصي وحده . وقد زخرت كتب الأدب بالقرن القصصي الذي احتل مكانة مرموقة بينها وظلت القصة الأدبية تمر بمراحل وأطوار عديدة قبل بلوغها تلك المكانة العالية وتعرضت في طريقها للعديد من الظروف والعقبات غير أنها اضطرت إلى الخوض في مسالك ضيقة تمكنت من اجتيازها كما سنرى .

لقد سارت القصة في الأدب العربي سيراً متوازياً معه ، تزدهر بازدهاره وتهبط بهبوطه ، وحين جمد الأدب العربي فترة من الزمان جمدت معه القصة بل زالت من الميدان الأدبي ، ثم بعثت بعثاً جديداً مع النهضة المصرية الحديثة (١) .

والقصة في الحقيقة تتصل اتصالاً وثيقاً بحياة الناس وما يمرون به من ظروف وأحوال معيشية ، وتقوم على سرد الحوادث وروايتها بأسلوب خاص له مميزاته يتباين فيه المؤلفون في طريقة العرض والسرد للأحداث واختيار الألفاظ وصياغة المعاني ، إلى غير ذلك من المميزات .

فالقصة هي وسيلة للتعبير عن الحياة أوقطاع معين من الحياة يتناول حادثة

(١) أنظر : أدب المقالة الصحفية في مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة

واحدة أو عدداً من الحوادث بينها ترابط مردى ويجب أن تكون لها بداية ونهاية .

والفن القصصى يضم القصة والأقصوصة ، والرواية والحكاية ، وتكاد الرواية تتسع لتشمل موضوعاً كاملاً أو أكثر ، زائداً بحياة تامة أو أكثر ، فلا يفرغ القارئ منها إلا وقد ألم بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة أما الأقصوصة فهي تدور في نطاق ضيق محدود . فهي قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانباً من الحياة ، لا كل جوانب هذه الحياة ، فهو يقتصر على سرد حادثة أو يضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته .

وأرى أن الأقصوصة — وإن كانت محدودة — ينبغي أن يتحرى فيها الكاتب الدقة التامة دون أن ينساق وراء الأحداث أو يبدو أسلوبه مبتذلاً وألفاظه ركيكة ، ولعل المؤلفين يتفاوتون في مراتبهم الأدبية تبعاً لما يضعون من أسس في البناء القصصى ، ومن هذه الأسس القويمة الإجابة في العرض والدقة في الأسلوب والبراعة الفائقة في انتقاء الألفاظ وسياق الأحداث وسوق التعبيرات . ومن خلال التعريفات السابقة لكل من القصة والأقصوصة ، أستطيع القول بأن القصة في معناها تدور في نطاق أرحب وميدان أوسع وتقوم على صياغة مخصوصة متميزة تماماً عن الأقصوصة كموضوع يدور في نطاق محدود ، فالحوادث في القصة تتطور وتتسلسل كما أن الزمن يطول ويمتد ، والقصة إلى جانب ذلك تتوسط بين الأسطورة والرواية التي تمثل نطاقاً أوسع كما سأعرض لها . أما الحكاية فهي سرد واقعة أو وقائع حقيقية

أو خيالية لا يلتزم فيها الحاكى قواعد الفن الدقيقة ، بل يرسل الكلام كما يوانيه طبعه .

والروايات تسمى عند الإفرنج (رومان) واحدها رواية وهي القصة عنده وتحتل عندهم مكانة أدل وأوقع من القصة على ما نحن فيه ، ولها شأنها العظيم في آداب اللغات الإفرنجية وأما في العربية فإن الرواية من أضعف فروع الأدب ويراد به تمثيل الأخلاق والعادات والآداب في سياق قصة موضوعية ، وقد تكون بشكل تمثيلي فتسمى في اصطلاحهم (درام) (١) .

ولعلنا نتساءل عن السبب الذي جعل العرب قديما يغفلون جانب الرواية ويتقاعسون عن التأليف فيها حتى أطلق عليها جورجى زيدان أنها (من أضعف فروع الأدب عند العرب) في حين أنها احتلت مكانة مرموقة عند الإفرنج . وأرى أن السبب الرئيسى في ذلك يتعلق بالظروف السياسية التى مر بها العرب القدماء وما كان بينهم من صراع قبلى وعصبيات جاهلية وحروب سرمدية واضطرابات وقلقل ، فحياة المجتمع العربى لم تعرف الوحدة السياسية ولا الاستقرار المكانى والنفسى فى الأعم الأغلب .

وإذا كان العرب قد وقفوا من الروايات التمثيلية والقصص المسرحية موقفاً سلبياً ولم يدلوا بدلوهم فى هذا الغمار ، فى الوقت الذى لاقى فيه هذا اللون عناية كبيرة من الإفرنج كما ذكرت وعرض على المراسح ليشاهدها الناس . فنرى بوضوح أن فن التمثيل يحتاج إلى ظهور المرأة على المسرح وهذا شئ غير مألوف لدى العرب وكانوا يتجافون عنه بسبب الحجاب . وأرى أن ذلك من الأسباب الرئيسة التى جعلت العرب يحتجبون عن فن التمثيل والرواية .

(١) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية — ج ٢ ، ص ٢٩٠ ،

كما أنهم قد ركزوا في قصصهم على الجانب التاريخي والسياسي كما في قصة
(عنترة) ، أما القصص الشعري فلم يلق رواجا عندهم لأنه يحتاج إلى توسيع
الموضوع وتشعبه وتفريعه .

ونستعرض الأدب العربي كله ، شعره ونثره ، فلا نرى فيه شيئا من هذا
الذي عرف في الأدب اليوناني مثلا من هذه الملاحم التي تحكى عن تلك الحروب
التي أغربت في الخيال فارتفعت بالآدميين إلى سماوات الآلهة إلى دنيا الناس ،
وخلطت بعضهم ببعض ، وجمعت بين السماء والأرض ، فكانت تلك المشاهد
الحرية التي قبلها العقل وحاش فيها زمنا تجمع الغرائب والنقائص وتحشد
العجائب والحوارق (١) .

فهذا « عمرو بن كلثوم » التغلبي ، صاحب المعلقة المشهورة ، التي عدها قومه
بنو تغلب مفخرة مفاخرهم ، كما أنها عدت في الأدب العربي أقرب شيء إلى
أدب الملاحم . إن الظروف التي قيلت فيها تلك المعلقة كانت ذات شبه كبير
بتلك الظروف النفسية التي كان يعيش فيها أصحاب الملاحم والأساطير ، وقد
كان (عمرو بن كلثوم) ينشد تلك الملحمة وهو في ثورة عارمة من الحمية
والانتقام ، ومع هذا جاءت المعلقة في سياق من الواقع .

ويفخر عمرو بن كلثوم بقومه وبذكر بعض مناقبهم ومآثرهم في قوله :
ورثنا المجد قد علمت معد نطأ عن دونه حتى يبيننا (٢) .

(١) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني في منظوقه ومفهومه ،

ص ٢١ ، ط . دار الفكر العربي .

(٢) الزورني : شرح المعلقات السبع ، ص ١٣٠ — مكتبة القاهرة .

ويتحدث عن شجاعتهم وشدة بأسهم في الحروب فيقول :

نجد رؤسهم في غير بر	فما يدرون ماذا يتقونا
كان سيوفنا منا ومنهم	مخارق بأيدي لاعبين (١)
كان ثيابنا منا ومنهم	خضبن بأرجوان أو إطينا
بأي مشيئة عمرو بن هند	طبيع بنا الوشاة وتزدرينا
فان قناتنا يا عمرو أعييت	على الأعداء قبلك أن تلبينا (٢)
إذا ما الملك سام الناس خسفا	أينما أن نقر الحسف فينا (٣)

وهكذا تضمنت الأساليب الخيرية السابقة الذخر بما أثر قومه والاعتزاز ببسالتهم ونوهت على مظاهر البطولة والقداء في ميدان الحرب ، وأكثر فيها من الألوان البديعية والصور التشبيهية في أسلوب رائع قوامه الفصاحة والبيان .

وقد تأثر العرب بالفرس والهنود في نقل الروايات أكثر من تأثرهم باليونان بحكم الاتصال الكثير بهؤلاء وامتزاجهم بهم ، ولذلك احتل «عبد الله بن المقفع» مكانة مرموقة في هذا الصدد حيث نقل وترجم من الفارسية والهندية إلى العربية .

ومن أمثلة ما نقله العرب عن الفارسية كتاب (كليلة ودمنة) وكتاب (رستم واسفنديار) وكتاب (الآداب الكبير) و (دارا والصنم الذهبي) و (هزاز افسانه) . ومن أمثلة ما نقلوه عن الهندية : كتاب (سندباد الكبير)

-
- (١) المخارق : مفرد مخراق على وزن فعال وهو السيف من الخشب .
 (٢) اللقنة كناية عن العزة والكرامة ، والعرب تستعيرها للتعبير عن العزة والمراد عزهم منع حصين .
 (٣) الزورنى : شرح المعاني السبع ، ص ١٣٠ .

و (سندباد الصغير) وكتاب (بوداست) وكتاب (أدب الهند) ، ومعظم هذه الكتب قد ضاعت من بين أيدينا وتبدل ما بقي منها وتغير عن المألوف (١) .
وهناك قصص وروايات شهيرة تحتل مكانة كبيرة بين العامة والماثقفين ، وتداولها الأيدي ويتيسر سبيل الحصول عليها ، وهي ما يمكن أن نطلق عليها اسم (القصص الشعبية) أو (قصص العوام) . ومن أشهرها قصة (عنتر) و (ألف ليلة وليلة) و (أبو زيد الهلالي) و (الزير والمك سيف) .
وأستطيع أن أقول بأن هذه القصص يغلب عليها أن تتجه إلى العاطفة وتماطب الشعور والوجدان ، وعلى عكس ذلك القصص القرآني الذي ينفذ إلى أعماق الجوانب الإنسانية ويتجه إلى العقل ويكون أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال كما في تلك القصص كما أن القصص القرآني لا يتوقف عند معالم الأحاسيس والوجدانات وهذا ما سنتبينه في الفصل الثالث عند حديثنا عن أهم خصائص وأغراض القصص القرآني .

ومما تتميز به قصص العوام أنها قريبة من الأسماع والقلوب ويستطيع العامة أن يطلعوها في سهولة ويسر من غير تعرض لغرابة في الأسلوب أو صعوبة في الألفاظ ، فألفاظها سهلة وأسلوبها فيه متعة وحلاوة كما أن عباراتها سائغة وتركيباتها واضحة .

وإذا أردنا أن نتخير بعض الكتب السالفة التي تحدثت عن قصص العوام ، فإننا نجد كتاب (ألف ليلة وليلة) الذي يتميز عن سائر مؤلفات العرب بطابعه الخاص المميز والناقد الخبير يستطيع أن يرجع إلى كل قصة في الكتاب

(١) جهوري زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٢ ص ٢٩١ .

ويردها إلى أصلها . ويمكنه — كما أرى — أن يعتمد على وسيلتين هما :
الأسلوب والخيال .

فالقصاص ذات الأسلوب العربي الصحيح ندلنا على أنها كتبت في العصر
الأول ، حينما كانت اللغة خالية من شوائب العجمة ، والقصاص ذات الأسلوب
الريك تدلنا على العصر الذي كتبت فيه بعد ، ونحن واجدون في هذه القصص
الخيال الفارسي والخيال اليهودي ، والخيال العربي الصميم (١) . والمعروف أن
كتاب (ألف ليلة وليلة) من الكتب العالمية في الناحية القصصية وقد ترجم
إلى اللغات الحية وهو فخر الأدب العربي بلا مراء ، ونرى أكثر قصصه مفصلة
بالأهوال والأسرار ، مملوءة بالمشوقات ، ليس فيها ملل .

ولعل تلك الشهرة العالمية التي بلغها الكتاب تعود إلى سعة الخيال والبراعة
في الوصف ورسم الشخصيات والبيئة ، فنحن نشعرون ونحن نقرأها أننا نعيش
في البيئة الشرقية الإسلامية وننظر معالمها ذات السحر العجيب ونستمتع بمعايشة
أهلها .

أما كتاب (كليمه ودمنة) فنستطيع أن نقول أنه من الكتب التي تتضمن
الغرض التعليمي ، وإن كان هذا الكتاب ممزوجا بالخيال الواسع إلا أنه قد
حقق غرضه الصائب في ميدان القصة . وقد ترجمه عن الفارسية البليغ المحقق
« عبد الله بن المقفع » في أسلوب من أبلغ الأساليب . والكتاب أصله هندي
وضعه « بيدبا » الفيلسوف رغبة منه في إصلاح الملك « ديشليم » العاهل المستبد
وجعل أقاصيصه على ألسنة الطيور والحيوان ، لاعتقاد البراهمة القديم بتناسخ

(١) محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح، ص ٤٣ ، مطابع الشعب.

الأرواح ، ورمى فيه إلى بث الموعظة والحكمة والحث على الفضيلة والخير والتنفير في الرذيلة والشر ، فاحتل تلك المكانة العظيمة نظراً لما تضمنه من دروس فيها عبر والعظات الجليلة .

وقد ذكر عبد الله بن المقفع في عرض الكتاب أنه مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويمتثلون في ذلك بصنوف الخيل ، ويبغون إخراج ما عندهم من اللعل (١) .

ويتضح من خلال ذلك الكلام ما بذله علماء الهند من جهد كبير في إخراج هذا الكتاب على أعظم هيئة وأبلغ صورة حتى أنه صار منهلاً عذبا للحكام والمثقفين يحفزهم إلى مطالعته والاسترشاد بأدابه . وينبغي أن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له ، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم أوضافه إلى غير مفصيح ، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالا . ولا ننسى أن الكتاب قد اشتمل إلى جانب الغرض التعليمي على ثروة طائلة من الألفاظ اللغوية والأساليب الأدبية والصيغ التعبيرية السائفة والمحسنات البديعية التي تزيد الكلام وضوحاً كالمجانسات والمطابقات وغيرها . وتمتزج المواعظ المذكورة بالأساليب الخيرية والإنشائية العديدة التي تحمل في مضمونها أغراضاً بلاغية تقوم على إسداء النصيحة الطيبة والتوجيهات الناضجة ، وقد يمتزج الأسلوب بما يدل على التحذير كقوله .

« فن ضيع شيئاً من هذه الأحوال لم يدرك ما أراد من حاجته ، لأنه لم يكتسب ، لم يكن له مال يعيش به ، وإن هو كان ذا مال واكتساب ثم لم

(١) يبدأ الفيلسوف الهندي : كتاب كليلة ودمنة ، ترجمة عبد الله بن المقفع .

يحسن القيسام عليه ، أو شك المال أن يفنى ويبقى معدما ، وإن هو وضعه ولم يستثمره لم تمنحه قلة الاتفاق من سرعة الذهاب ، وإن أنفقه في غير وجهه ووضعه في غير موضعه وأخطأ به مواضع استحقاقه صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له (١) .

في الروايات والاساطير :

نعود الآن للحديث عن فن (الروايات) عند العرب لئرى أنه لم يظل على حاله من الجمود والركود ولكنه بدأ يأخذ سبيله المنشود إلى الازدهار والنضج معاً نراً في ذلك عوامل النهضة ومعايشة الظروف والأحداث البطولية في البيئة العربية ، واجتمعت تلك الدوافع وظلت تخنز العرب نحو صياغة القصة العربية في شكل روائي عندما استقرت أحوالهم وهدأت ثوراتهم وحروبهم وتوسعوا في إنشاء الدول ، غير أنهم لم يبلغوا في ذلك مبلغ الرومان وغيرهم .

وكانت القصة تكبر وتوسع تدريجياً بالتناقل الشفهي قبل تدوينها ، وبما أن المراد منهم التحميس لا تقرير الحقيقة فكان الراوى يبالغ في القصة ويزيد فيها ما يثير الحماسة على ما تقتضيه الأحوال ، والقصة تنمو وتشعب حتى يفضى بهم الأمر إلى تدوينها بشكل الروايات الحماسية فيدونونها كما صارت إليه - هكذا فعلوا في أكثر قصصهم (٢) .

والعرب في مختلف العصور كان لهم فنونهم القصصية النابعة من بيئتهم ، والمصورة لحياتهم وعقائدهم ومغامراتهم وبطولاتهم . وكانت هذه الفنون

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٩٥ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

بمقدمة في أزمانها ، وإن اختلفت في النوع عن تراث الغرب باختلاف ظروف البيئة وأحوال المجتمع . مثال ذلك التخصّص الشعرية الحماسية الطويلة و « الملاحم » التي نشأت في بعض المجتمعات الأوربية القديمة ، إذ كان الشعراء يطوفون بالقرى والمدن ينشدون تلك الملاحم بمصاحبة آلات موسيقية فيجتمع حولهم الناس ويطربون لسماعها .

أما البيئة العربية القديمة فقد كانت تتكون من قبائل غير مستقرة تسعى دائما وراء الماء والمرعى ، فلم تكن صالحة لنشوء الملاحم وأولئك الشعراء الطوائف فلما استقر العرب في مختلف البلاد - بعد الفتوحات الإسلامية بزمن - نشأت بينهم ملاحم مشابهة ، لا تعتمد كلها على الشعر ، بل تتكون من النثر والشعر ، يتعاقبان في السرد والتصوير والحوار ، ويكون الشعر غالبا في المواقف التي يغلب فيها التحمس والاتعال ، وصار الشعراء الطوائف ينشدونها بمصاحبة الربابة فيجذبون الأسماع والأنظار إليهم (١) .

وإذا كنت قد استعرضت الأسباب الأولية التي صرفت العرب قديما عن التعمق في الروايات وفن التمثيل فإنني أود أن أشير إلى دوافع أخرى لم تجعل للعرب هذا الخيال الذي نسجه اليونان لملاحمهم الشهيرة ولم يكن من بينهم شاعر عربي يمثل مقام به الشاعر المعروف اليوناني « هوميروس » فيضع الياذة كإلياذته تحكي الحروب التي كانت تدور في الجزيرة العربية . نرى من هذه الدوافع أن شجاعة العربي النادرة وتجليها في الحروب واعتزازه الكثير بشخصيته الأصيلة صرفته عن الاغراق في الخيال والوهم بما يكون بعيدا عن الحقيقة ويرمز إلى المبالغة وهو

(١) عباس خضر : القصة القصيرة في مصر ، ص ١١ ، ط . الدار

عن دواعي التأليف في الروايات . أضف إلى ذلك أن العربي القديم كان في صحود دائم وفي يقظة واعية مدركة لكل ما يحيط به ، ولهذا فإننا لانجد في الحياة الجاهلية عند العرب مانجده في الحياة اليونانية والإغريقية من اصطناع الآلهة لكل شأن من شئون الحياة وفي كل ما يسوء أو يسر منها وفي ظل هذه الآلهة المتوهمة بتحريك الناس ، وبوحياها يعملون ، وبأمرها يأترون على لسان الكهنة في المعابد ، والعرب خالفوا اليونان في ذلك ، فقد واجهوا ضراوة الطبيعة الصحراوية ولم يروا إلا أنفسهم وإلا واقع الحياة الذي بين أيديهم .

وهذا الحفاظ الشديد من العربي على شخصيته ومقوماتها ، من طباع وغرائز وعادات وأخلاق . وهذا الاعتزاز الذي تطوى عليه نفسه ، لنسبه . ودمه وقومه . . كل هذا حمى الأمة العربية من أن تنطمس معالمها في طوفان الأحداث والكوارث التي ألت بها ، كما أنه حمى الواقع من أن تطفئ عليه أمواج الأوهام والخيالات ، وبهذا كانت اللغة العربية وآدابها صورة صادقة للواقع الذي تتشكل منه صور الحياة في الجزيرة العربية (١) .

من هنا لم تلق الرواية رواجاً عند العرب الذين لم يحاولوا الاستغراق فيها أو جعلها تطفئ عليهم ، ولم يكن ذلك قصوراً منهم — كما أراه — ولا ينبغي أن نتهمهم بضعف ملكة الخيال لديهم أو عدم نضج قدراتهم الفكرية إلى هذا المستوى الروائي ، وذلك ما يدعيه المستشرقون ، وإنما كان قصورهم في خلق مثل هذه الملاحم والأساطير راجعاً إلى احترامهم لشخصيتهم أن يلبسوها غير لباسها وأن يعيروها ما ليس لها ومن ثم دل ذلك على اعتزاز العربي بشخصيته .

(١) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ،

والرواية القصصية قد تم نضجها في العصر العباسي الثالث حيث ازدهر الأدب وتعددت ألوانه وأغراضه واتجاهاته ، واختلط العرب بالأمم الكبرى مثل الفرس والهنود واليونان واتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، والمعروف أن القصص القصيرة التي ألفها العرب القدماء كانت تلائم طبيعة الحياة العربية ، ويبدو أنهم كانوا يصيغون نصائحهم وحكمهم في صورة قصة ، ولكننا لم نصل إلى شيء من ذلك بسبب عدم نضج هذه القصص ، وبسبب إهمال الرواة لها ، فهي في نظرهم لا تقيد اللغة ولا تضيف جديداً إلى الأدب . وأريد أن ألقى الضوء على جانب من تلك القصص الشهيرة التي عرفت عند العرب الأقدمين ، والتي تتصل بآبائهم ونواريهم وعلى رأسها قصص الحرب والبطولة مثل قصة (عنترة) و (الزبر سالم) ، و (البراق) و (سيف بن ذي يزن) و (فيروز شاه) و (حرب البسوس) إلى غير ذلك من القصص التي حفلت بالوان البطولة والحرب .

والواقع أن هذه القصص تعتمد في هيكلها على حوادث التاريخ ، أما نشأة هذه القصص فهي نشأة طبيعية بحثة ، فإن الناس في كل أمة يحبون البطولة والحرب ، يروون وقائعها مفتخرين بما حازوه من نصر فيها ، مجدين أبطالها ، ومن ثم أخذ الرواة يروون للناس هذه الحوادث التاريخية ، ثم يضيفون إليها من عندهم ما أرادوا ، وأخذت القصص تحاك حول هذه الأخبار شيئاً فشيئاً إلى أن انتهت إلى الحالة التي هي عليها الآن (١) .

على أننا نرى هناك مبالغات زائدة في تلك الروايات التاريخية ، مثل قصة (عنترة) التي تصور حياة العربي في العهد الجاهلي وتروي لنا شيئاً من حروبه

(١) محمود تيمور : دراسات في القصة والمسرح ، ص ٣٤ ، مطابع الشعب .

ومن امتاز فيها من أبطال وتصف لنا شجاعته ووفاءه وحبه وتضحيته بصورة حبالغ فيها . وقد أبدى (تيمور) رأيه حول قصة (عنتره) حيث ذكر أن القصة من الوجهة التاريخية غير موثوق بها ، ففيها كثير من الخلط والغلط ، وهي فوق ذلك مفككة الحوادث ، لا رابطة تربط بعضها ببعض (١) .

وقد نظر اليها من حيث الصياغة والأسلوب ، وهذا في رأي لا يكتفى ، لأننا لا نحكم على القصة بالغلط لمجرد عدم تسلسل الحوادث أو دخول شيء من الخيال فيها ، فالقصة الواقعية ذاتها قد ينقصها شيء من الواقعية وتغرق في الخيال وتكاد لا تخلو من إضافات أو مبالغات معقولة . وقصة (عنتره) التي يتداولها الناس مليئة بالأحداث البطولية الرائعة التي تجعل القارئ يعيش في أحداثها وكأنه يتابع عرضاً سينمائياً مشوقاً .

وهناك قصص أخرى أقل مبالغة من قصة (عنتره) مثل قصة (اليراق) التي تدور حول بطل مغوار من أبطال العرب يدعى (اليراق) ، وهو شاعر قديم من ربيعة من أقرباء المهلهل وكليب ، وله تاريخ مختصر فيه حماسة مثل تاريخ (عنتره) وله أشعار حماسية وفخرية . وقد توسع خبره هذا جوالاً الأيام كما توسعت قصة (عنتره) وقصته عبارة عن مجموعة أخبار عن وقائع حربية ضمنها كتاب « الجهرة » لابن شبة ويقال له بن ربطة النيرى لأنه كان مولى لبني نير . ولد سنة ١٧٣ هـ ونشأ في البصرة شاعراً إخبارياً راوية صادق اللهجة وتوفي سنة ٢٦٢ هـ ، وقد ألف كتباً كثيرة في وصف البصرة والكوفة ومكة وأمرائها ضاعت كلها إلا كتاباً عثر عليه في المكتبة الخديوية خطاً اسمه « الجهرة » ينسب إليه ، وهو يشتمل على أخبار العرب العرباء

وشىء من أيامهم وأشعارهم وحروبهم قبل الإسلام مع الفرس والروم وهو من قبيل القصص التاريخية (١) .

ومن القصص الأخرى المعروفة عند العرب (قصة بكر وتغلب) وهي تتناول جانباً من صور الصراع القبلى والوقائع التاريخية بين القبيلتين ، وقد تخرج هذه القصة عن السياق المعهود للرواية . وتشتمل على وقائع لها ذكر فى التاريخ وقد زاد فيها المؤلف قصائد وتفاصيل نظنها خيالية أرادوا بها بيان حماسة العرب .

على أن هناك قصصاً أقرب إلى الرواية الخيالية مثل قصة (شيبان مع كسرى أنو شروان) ، وإن كانت فى أصلها قصة تاريخية إلا أنها قد تبلورت فى شكل الرواية بعد أن توسع فيها مؤلفها وزاد عليها ، ونرى تلك الحوادث يتخللها قصائد تنم عن حدائث نظمها فضلاً عن قصائد حقيقية نظمها أبطال تلك الرواية .

وأرى أن التوسع فى الوقائع التاريخية وتبلورها فى شكل الرواية ليس من مبتدعات العرب وحدهم ، فقد سبقهم إلى ذلك الأمم القديمة التى وجهت عنايتها بالرواية وتوسيع دائرة الأحداث وأفاضت فى تعميق الواقعة التاريخية ونقلها إلى الأسماع فى صورة روائية يكون لها وقعها الفعلى فى النفوس .

فالقصاص تنمو بالتناقل بسليقة فى فطرة الإنسان من الميل إلى المبالغة فيما يقصه استلفانا لإعجاب السامع ، وفى بعض الناس ميل إلى تزويق العبارة وتطويلها والتوسع فيها وبتوالى الأيام تنمو الحادثة وتصير قصة (٢) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٧٨ . والفهرست لابن .

النديم ، ص ١١٢ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ أدب اللغة العربية ، ج ٢ ،

ص ٢٩٣ .

وقبل أن أذكر شيئاً من ذلك في أدب الأمم الأخرى أود أن أشير إلى (الأسطورة الشعبية) وأقول إنها قصة خرافية صاغها الإنسان البدائي على حسب ما تقتضيه الطبيعة من حوله وأوحاه إليه خياله الضعيف ، والناس يتعلقون كثيراً بطرائف الأساطير أو القصص الخرافية التي تطورت شيئاً فشيئاً وأخذت تخرج من دائرتها فعالجت سير الأبطال ووقائع الحروب ، وكان جو الخرافة يهيمن على هذه الأساطير مثل قصة « الغول » و « صاحب اللحية الزرقاء » . وقد لاحظت أن روح السخرية والعبث تطفئ كثيراً على هذه الأساطير وهذا ما أدى إلى رواج هذا النوع من القصص وتداوله بين عامة الجماهير . على أن هناك دوافع أخرى ساهمت بقدر في ذبوعها منها ما يتعلق بنفسية الأمة وأفرادها وما مرت به هذه الأمة من ظروف أثرت في حياة أفرادها . لقد عبرت هذه القصص الخرافية عن نفسية العهد الذي كتبت فيه ، فهذه أمة مظلومة ترسف في أغلال الاستعباد ، أرادت أن تفرج كربها ، وتعب عن آمالها ومطامعها فاخترعت بطلاً وهمياً ، نسجت من حياته قصة النصر والمجد . فقصة « الغول » تصور حياة الرعب والفرع التي كان يعيشها الإنسان في عهد الاحتلال والظلم ، ويظهر الغول في شكل حيوان مخيف مفترس يكشر عن أنيابه ويفترس الإنسان ، وكذلك قصة (صاحب اللحية الزرقاء) تصور عهد الإقطاع والاستبداد وقد امتص خيرات الناس بعد أن سفك دماهم وأكل حقوقهم . وأرى أن هناك عوامل ساهمت بقدر في رواج تلك الأساطير وشيوعها بين عامة الجماهير منها أن وسائل التسلية كانت محدودة للغاية في تلك العصور الموهلة في القدم فوجد الناس من هذه القصص الخرافية والأساطير متنفساً لهم، تتحدث عنهم وتمتزج بمشاعرهم وتحكى أخبارهم فيتسلون بها، وكثيراً ما كانت تصاغ في قوالب شعرية يتغنون بها على آلات الطرب ومن هنا تألقوا في تأليفها حتى يكون لها وقع عذب في النفوس . ويضاف إلى عدم وسائل

التسلية ندرة التعليم فكانوا يتخذون من القصة مجالا لعرض نصابهم وبسط تجاربهم والدعوة إلى تقرير ما يرون ، ولا يزال هذا جاريا في أوساط الريف وبين عامة الجماهير .

وقد ظهر في مصر — إلى عهد قريب — هذا الصنف العجيب من الشعراء المهرجين ، كانوا يروون وقائع « أبي زيد » و « الزناني » على الرابة في قهوات « سيدنا الحسين » وبالأخص في شهر رمضان ، ولكن « الفونوغراف » أولا ، ثم « الراديو » أخيرا أجهز عليهم فلم نعد نرى لهم أثرا . وقد شغل الكبار والصغار بهذا الفن الغنائى وتعلقوا به في يثنتنا الشعبية وتلذذوا بسماع تلك القصص مما كان له أكبر الأثر في نفوس الجماهير .

وهؤلاء الشعراء الذين يذهبون إلى الأرياف وإلى مقاهي المدن يقصون حكايات عنتره وأبي زيد ودياب ابن غانم يستثيرون من حماسة الجماهير بأدبهم القصصى هذا مالا سبيل إلى مثله عن طريق غير القصة من صور الأدب ، والأطفال هم صورة الإنسانية في بدء حياتها ، وإذن فقد كانت هذه الإنسانية مولة بالقصص منذ نشأتها ، فقد كانت القصة من أول الصور للفن الأدبي ظهوراً فيها (١) .

القصص المنقولة :

أود بعد هذا العرض أن ألقى الضوء على جانب من القصص التي نقلها العرب عن اللغات الأخرى لأن هذه القصص تمثل على الغالب آداب تلك الأمم التي نقلت عنها ، وهذا ما قصدت بيانه . و (الإلياذة) لهوميروس من أشهر هذه الروايات القديمة وأكثرها شيوعا بين الناس وهي تعطي صورة واضحة للأدب اليونانى القديم ، والواقع أن « هوميروس » قد توسع في روايته

(١) محمد حسين هيكل : نورة الأدب ، ص ٧٣ ، مطبعة مصر .

التاريخية، وأفاض في ملاحه الشعرية فجاءت قصته على صورة (ملاحم) تجلت فيها روعته الأدبية ومن ثم أطلق عليه «أبا الشعراء» .

ويرجع الأصل التاريخي للإلياذة إلى حصار طروادة، وقد اتسع بتوالي الأجيال حتى انتهى إلى (هوميروس) فدرنه فنسبت إليه روايته .

وكان الفنان البدائي يأخذ الأغاني من أفواه الحفاظ، فيزيد عليها أو يحذف منها، أو ينسج على منوالها، وعلى توالي الزمن كانت تتجمع هذه الأغاني فيأخذها فنان عبقرى، وينظمها نظماً جديداً في ملحمة قوية، يتغنى فيها بتاريخ أمته، متحدثاً عن أبطالها راوياً للناس حوادثها الرائعة (١) .

وقد رأيت الملاحم — نتيجة لذلك — تتصل اتصالاً وثيقاً بالناحية التاريخية وتعبر عن روح العصر الذى تتحدث عنه، وتميل كثيراً إلى وصف الحروب الشهيرة وساحات النضال وتمجيد البطولة، وبكاد عنصر التشويق يستحوذ عليها كما هو الحال فى (الإلياذة) و (الأوديسة) المنسوبتين لأبى الشعراء «هوميروس» الإغريق و «الإنياد» لشاعر الرومان «فرجيل»، هذا بالإضافة إلى المبالغات والمفاخرات الأخرى التى لاتنحى على القسارى . والمؤلف فى عرضه لهذه الملاحم يتخير أجزل الألفاظ وأدق التعبيرات وأروع الأساليب وأبدع صور الخيال من أجل أن تأتى ملحمة فى سياق بديع ويكون لها طابعها الخاص المميز . ونستطيع أن نقول عن الإلياذة بأنها — وإن كانت تنسب إلى هوميروس — ليست من عمله وحده ولكنها مجموعة قصص تم نظمها وجمعها بواسطة الشعراء الرحل نخلتها الأذهان على مر العصور حتى جاء «هوميروس» فقام بصقلها وتهذيبها بعبقريته الفذة التى فاق بها قرناه وأتوا به أو تميز بها عنهم، ولانسى أنه كان من أبرز هؤلاء الشعراء الإغريق .

(١) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٢، ص ٢٩٤ .

فالإلياذة هي قصة الحرب التي دامت عشرين عاما بين « طروادة » وممالك اليونان « أثارها اختطاف » باريس « أحد أمراء طروادة لـ « هيلانة » زوجة ملك إسبارطة اليونانية . وقد أتى فيها « هوميروس » بأوصاف دقيقة خلاصة عن الوقائع التي نشبت بين الفريقين ، وما تخللها من بطولة وحب ووفاء وشهامة (١) . ولذلك تحتل الإلياذة مكانة فائقة في نفوس اليونان ونراهم يعشقونها ويقدمونها ويتغنون بها في محافلهم ويحفظ كبارهم كثيرا من فقراتها عن ظهر قلب .

والواقع أن هذه « الأعجوبة » التي ترجع إلى ثلاثين قرنا ما تزال تحتفظ بكل روعتها وجدتها بل وخلودها الذي هو خلود الفن الأصيل العادي ، وهي اليوم نهر الأذهان بمثل السناء والتألق اللذين بهرت بها الأسماع لأول مرة يوم تغنى بها المنشدون في مأدب أمراء أثينا الأقدمين (٢) .

وبرجوعى إلى ملحمة « هوميروس » أدركت أن الإغريق يكثرون فيها من نقديس آلهتهم وينزلونها إلى ساحات الحرب ، ويتصورون أن تلك الآلهة لديها القدرات الخارقة على التحكم في الكون وإبداء المعجزات الباهرات وتوفير أسباب النصر ، وبمقارنة نظرة الإغريق إلى آلهتهم وما كان عليه المصريون القدماء نقول أن الإغريق تصوروا آلهتهم في صورة بشر مثلهم ، والمصريون القدماء اتخذوا لأنفسهم آلهة على صور الحيوانات والطيور .

وهكذا جاءت « الإلياذة » خليطا من البشر والآلهة وكانت وما تزال صرحا

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .

(١) حلمى مراد : الإلياذة — لشاعر اليونان القديم « هوميروس » ،

ضخما من صروح الأدب الإنساني ومرجعا فريدا من مراجع المعرفة ودبوانا خالدا من دواوين الحماسة والبطولة ، وكان المنشدون حين يتغنون بها يطربون ويمتزون نشوة لمجرد سماعهم صدى موسيقى الأبيات التي يرددونها . والإلياذة مدينة بخلودها إلى قوة موضوعها ، وحرارة أبياتها ، وسلاسة أسلوبها البسيط . الوقور الرائع وإلى تصويرها للناطق الحي لنفسيات الإغريق — رجالا ونساء — في ذلك العصر من عصورهم ، الحافل بصور بطولتهم النادرة في الحرب والحسب (١) .

وهناك رأى لبعض النقاد أود أن أشير إليه يقول بأن (الأوديسة) التي تنسب إلى (هوميروس) نفسه ليست من عمله لأنها تختلف في الأسلوب عن سابقتها الإلياذة وهذا ما يذكره « تيمور » بقوله :

إن الروح التي تسودها روح نسائية . فبينما نرى « الإلياذة » قد أكرت من وصف المعارك الوحشية والمناظر القاسية . نرى « الأوديسة » وقد تجلى فيها عراك المرأة وحيلتها ودهاؤها . وأساوبها عليه مسحة من اللين والمسالة (٢) .

ولا ينبغي أن نحكم على هذا الرأي بالصحة المطلقة ، خاصة وأن تلك الرواية الشهيرة المتداولة قد صارت منسوبة إلى (هوميروس) كما اتفق على ذلك معظم النقاد ، وليس عجيبا أن يختلف أسلوب « الأوديسة » عن « الإلياذة » فكثيرا ما يعرض المؤلف شيء يدفعه إلى التحوير في الأسلوب والتغيير في صورة الشخصيات وعملها المنوط بها ، أو التعديل في سرد الأحداث والسياق . وقد

(١) نفس المرجع السابق ، مقدمة المحرر ، ص ١٧ .

(٢) محمود تيمور : دراسات في القصة والمسرح ، ص ٢٧ .

عضد « تيمور » فكرته ورأيه بقوله عن الأوديسة : (فجاءت صورة لذهن الشيخ الهادى. الذى يعمل فى هواة وروية بعكس « الالياذة » فقد كتبها وهو فى ريعان الشباب والفتوة ، وذهن الشباب قوى جرىء لا يعرف اللين والرحمة ، فجاءت مفعمة بأهوال الحروب وفضائع البطولة (١) .

وأرى أن الذى يتحكم فى الأسلوب هو الموضوع ، وموضوع الملحميين مختلف ، فالإلياذة فيها جمع الجيوش واستعدادهم وذهابهم إلى ميدان القتال ، أما الأوديسة فموضوعها عودة الجيوش بعد النصر إلى بلادهم .

وليس الملاحم مقصورة على اليونان وحدهم فإن لكل أمة عريقة فى الحضارة ملاحم شهيرة من هذا الصنف ، فللهند (المهاباراتا) وللفرس (الشاهنامه) وللطليان (كوميديا دانتي الإلهية) وللفرنسيين (أغانى رولان) .

فكوميديا دانتي — على سبيل المثال — قصة حلم خيالى للشاعر وصف فيها زيارته للجحيم والمطهر والفردوس وتخيل فيها أنه تقابل مع بعض الشخصيات الفذة المشهورة ، فى التاريخ والأساطير ، فروى قصصهم وذكر سبب مجيئهم إلى هذه الأماكن . وحين يعرض المؤلف هنا للجانب الوصفى يتناول ذكر الجحيم فى أسلوب رائع ممزوج بالخيال الفياض ، ونلاحظ دقة التامة فى وصف الأشخاص والعرض لحالتهم التى يبدون عليهم ويتخيل القارىء أنهم أمامه . جماعة يقاسون من شدة العذاب وآخرون يتنعمون بالرغد فى رياض الفردوس . ويرجوعى إلى « كوميديا دانتي » أدركت أن هناك تشابها كبيرا بينها وبين « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى ، ولا يبعد أن يكون الشاعر الإيطالى قد تأثر من بعض النواحي برسالة المعرى ، فقد ازداد اتصال

العرب بالشرق على أثر الحرب الصليبية التي بدأت عام ١٠٩٩ ووفاة « داني » .
كانت عام ١٣٢١ م .

والسبب الذي دفع الشاعر إلى تأليف ملحمة تلك أنه كان يحب فتاة تسمى
« ياتريس » حباً لم نسمع بما يماثله في قوته وغرابته ، فقد بدأ حبه لها وهي
طفلة في التاسعة من عمرها ، وقيل أنه لم يرها إلا مرات قليلة وأنها جهلت حبه
وقد تزوجت « ياتريس » ثم ماتت فكان لهذه المفاجعة الالمية أثرها في نفس
الشاعر فكتب ملحمة تمجيداً لها ، فيخلد بذلك اسمها على مر الأجيال (١) .

قصة « ألف ليلة وليلة » :

وهي من القصص الشهيرة المنقولة عن اللغات الأخرى والتي تحتل مكاناً كبيراً
بين العامة والمثقفين ، واختلف الباحثون في أصلها وتاريخها ، والواقع أنها
قصص عديدة تجمعت جواً إلى الأجيال مما وضع أو ترجم . وقد ذكر كثير من
الناس أن هذه أخبار موضوعات من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب للملوك
بروايتها وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية
والرومية مثل كتاب « أفسان » وتفسير ذلك في الفارسية (خرافة) ويقال
لهم (أفسانة) والناس يسمون هذا الكتاب « ألف ليلة وليلة » وهو خبر الملك
والوزير وابنته وجاريها شهر زاد ، ودينار زاد (٢) .

فالكتاب في موضوعه منقول عن أصل فارسي ولكن العرب أخذوا هذا
الأصل وقاموا بترجمته ثم أضفوا إليه من عندهم ووسعوه وزادوا فيه من

(١) محمود تيمور : دراسات في القصة والمسرح ، ص ٣٠ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٢ ص ٢٩٥ .

الروايات حتى صار على الهبة المعهودة بيننا الآن . ومن يطلع عليه يجد فيه بدل قصصا يبدل أسلوبها وألفاظها وبعض ما حوته من العادات أنها كتبت بعد ذلك بقرون عديدة كسرب القهوة وذكر بعض الحكام المتناظرين من الممالك أو رجالهم . ولا يعل ذلك إلا بما تقدم من توسيع القصة الأصلية المنقولة عن الفارسية بإضافة قصص وأسماء كانت شائعة بين الناس مما وضعوه هم أو نقلوه عن سواهم والأرجح أن تلك الزيادات في العادات والتقاليد حدثت في مصر ، ولو أننا عقدنا مقارنة بين الترجمة الأصلية لهزار افسانه وقصة ألف ليلة وليلة لرأينا المرق الشاسع بينهما كالفرق بين أوديسة هوميروس وأنيادة فرجيل ، فالإنيادة أكثرها منقول عن الأوديسة ومع ذلك فهي تنسب إلى فرجيل .

وكتاب « ألف ليلة وليلة » نستطيع أن نقول بأنه يمثل الآداب الاجتماعية في القرون الإسلامية الوسطى ويدخل في ذلك الانتماء في المذات والتهتك ، وقد وصفت المرأة فيها وصفًا يدل على ضعفها وسوء الظن فيها وفي آدابها ، ويذكر الكتاب بقصص الغفاريات وعجائب الخلق وغرائب الحوادث مما يصوره الوهم والخيال ، وسواء كان ذلك ما وضعه الفرس أو مما نقله العرب فإنها من طبيعة تلك العصور . ونرى هناك الأسماك كبيرة الحجم والتي يبلغ طولها مئات من الأذرع ومنها ما هو بصفة البقر والحمر وقد شاهدها « الاستبداد البحري » في رحلاته البحرية ، وهناك الثعابين الضخمة التي تأكل الآدميين والطيور المتوحشة مثل طائر الرخ الذي يشبع من فرخه الصغير عشرات من الناس .

على أن هناك قصصاً أخرى في الكتاب مغزاها الصبر والحكمة والتبصير بالعواقب ، وقصصاً أخرى تتناول ذكر بعض مشاهير العرب كحاتم الطائي بعد موته وقصص معن بن زائدة ويحيى البرمكي والرشيد والمأمون وغيرهم .

ولعل الغرض من سرد تلك القصص هو الاشارة بصفات الكرم والشجاعة والوفاء التي عرف بها العرب على مر العصور . وبالجملة إنها مجموع قصص مختلفة المواضيع والأساليب والأغراض ، عباراتها على الإجمال سهلة ، تختلف قوة وصحة باختلاف القصص وأعصرها ، وكثيرا ما وصلت اليها أيدي النساخ والطباعين فهدبوها ، ونقحوها فلم تعد باقية على صورتها الاصلية ، وترجمت « الف ليلة وليلة » إلى دول أوربا وأضاف اليها الاجانب وحذفوا منها كما فعل العرب تماما .

الفصل الثاني

أسلوب القصة في الكتب المقدسة

قصة بدء الخليقة وخلق آدم

إذا عدنا إلى أسفار العهد القديم فأننا نلاحظ أن هذه الأسفار قد عرضت «بدء الخليقة منذ الأزل ، وتحدثت عن خلق الإنسان الأول (آدم) والحكمة من خلقه في أسلوب قصصى يوضح مظاهر تكريم الخالق للإنسان :

وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض ، فخلق الله الإنسان على صورته ذكرا وأنثى ، خلقهم وباركهم وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطيير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض»^(١).

وقد عرض سفر التكوين فى الأصحاح الأول لقصة بدء الخليقة ، وذكر أن الله قد خلق الإنسان كى يهيمن على الوجود بما يمنحه من قدرات هائلة ، وتتلخص قصة خلق الإنسان فى أن الله أخذ من تراب الأرض ونفخ فيه فصار التراب إنسانا ذا جسد كامل ونفس حية :

« وجبل الرب آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية »^(٢). وهذا نظير لما ذكره القرآن فى المضمون ذاته : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار)^(٣) وقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين »^(٤) ، و « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ».

(٢) التكوين : ٢ — ٧

(٤) سورة المؤمنون : ١٢

(١) التكوين : ٢٦ — ٢٨

(٣) سورة الرحمن : ١٤

وقد تحدث سفر التكوين عن مظاهر تكريم الله لآدم حيث منحه القدرة على التعبير باللسان واستخدام لغة التخاطب : فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية (١) . قال تعالى : «وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » . (٢)

وإذا كان الله تعالى قد تفضل على آدم به — هذا التكريم فإن هناك بعض المبالغات الزائدة في قصة بدء الخليقة الواردة في سفر التكوين ، وأود أن ألقى عليها الضوء .. نأخذ مثلاً ، هذه العبارة الواردة في التكوين : «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا » لا أظن أن هذا الأسلوب فيه شيء من الروعة أو القبول على الأقل ، وأرى أن الله تعالى حين كرم الإنسان ومنحه المواهب العقلية والقدرات الفائقة لم يقصد بذلك أن يبالغ في تعظيمه إلى درجة تشبهه بالخالق على أية كيفية !! وما أحسن التعبير القرآني الذي أشار إلى هذا التكريم ووضح مظهره : «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » . (٣)

ونستنبط مظهر تكريم الإنسان بجلاء في تلك النعم المتعددة ، ويكفي في ذلك ترابط أجزاء الآية وتكرار حرف العطف : « كرمنا .. وحملناهم .. ورزقناهم .. وفضلناهم » . وهذا جدير بأن يترك في النفوس آثاراً جليلة للغاية .. وهذا أبلغ من عبارة التكوين : « يتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان ... » .

(١) للتكوين : ٢ — ٢٠

(٢) سورة البقرة : ٣٣ .

(٣) سورة الإسراء : ٧٠ .

وقد لاحظت من خلال مطالعتي لهذه الأسفار أنها تتضمن أسلوباً مألوفاً خاصة بالنسبة للقصص الواردة فيها، فليس هناك ما يبعث على الإثارة أو يوحى بجراحة الأسلوب وجزالة المعنى .. وأين نحن من ذلك التصوير البديع الذي رسمه القرآن في قصة خلق آدم ، وكأننا نشاهد جموع الملائكة يسجدون لآدم باستثناء إبليس وهذا تعبير عن الخضوع للرب جل وعلا : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة ... » (١) فالله تعالى تعهد آدم بالتسوية التي تشمل على جمال الهيئة وسلامة الخلقة وتشير إلى عظمة الإنسان ورفيع مكانته وهي من الألفاظ التي تثير اهتمامنا .

وكما أن الله تعالى قد أعطى الإنسان عقلاً يفكر به ، فإنه يطالبه بأن يتأمل في قدرة خالقه له وعظمة جلاله ومحبته وقداسته ، ولذلك كان تمجيد الله من أهداف خلق الإنسان في الكتب المقدسة . (لمجدى خلخته وجبلته وصنعتة ..) (٢) . قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (٣) . فتمجيد الخالق في القرآن يعنى التوجه إلى الله بالعبادة الخاصة من غير أن يكون هناك أدنى مظاهر الشرك .

مخالفة آدم لوصية الله وسقوطه في الخطيئة :

وضع الله الإنسان الأول في جنة عدن وكان هناك في وسطها بخلاف الأشجار الكثيرة شجرة معرفة الخير والشر ، وترى الكتب المقدسة أن هذه

الشجرة تسمى « شجرة الحياة » والله أعطى الإنسان (آدم) الحرية لكي يختار الحياة معه فحذره من أن يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، وحين وقع آدم في الخطيئة وأكل من الشجرة قضى عليه الخالق بالهبوط إلى الأرض وعدم الحياة الأبدية بجوار الرب :

« قال الله لآدم: من جميع شجر الجنة تأكل أكلا وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذه الشجرة بقوله : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » (٢) .

وقد جمعت الآية الكريمة بين الأمر في قوله : « فكلا » والنهي في قوله : « ولا تقربا » والتحذير في قوله : « فتكونا من الظالمين » ففيها من صور البيان وروعة الإعجاز ما لا يخفى إذا ما قورنت بالعبارة الواردة في سفر التكوين والتي أشرت إليها آنفا . وكلمة (رغدا) توحى بالخير العميم وظله الوارف كما هو الحال في الجنة ، وقد أباح الله تعالى لآدم وحواء الجنة الواسعة بتنعمان فيها وبأكلان من ثمرها ، وهذا ما جعل الكتب المقدسة تبرهن على أن سقوط آدم وحواء في الخطيئة كان من أظهر الأسباب في قطع عرق الحياة الذي يتسبب عنه الموت والهلاك .

وقد تسبب الشيطان في هذه الخطيئة بعد أن دخل الجنة متخفيا في بطن الحية وخدع آدم وحواء ، فجعلها يظنان أن أكلهما من الشجرة سيهب لهما

(٢) سورة البقرة : ٣ : ٩١

(١) التكوين ٢ : ١٦ : ١٧

الحياة الأبدية ، فقطفت حواء من الشجرة وأكلت أولا ثم أعطت لآدم فأكل أيضا ، فكانت النتيجة أنهما وقعا في العصيان لمعصية الله . وممعا صوت الرب الإله يقول لآدم : هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها (١) . وهو للزجر واللوم .

وقد وجه الله كلاما صارما في أسلوب يمتزج بالوعيد والتهديد نستنبط من خلاله الموعظة الجلييلة التي تهدف إليها هذه القصة كما ذكرت في الكتب المقدسة ، وإذا تسربت هذه الموعظة إلى النفوس غرست فيها روح الخشية وأبعدتها عن المعصية .

وقصة آدم وحواء وخروجهما من الجنة يعرفها الكثير من الناس عن طريق الكتب المقدسة وتفسيرها وما عرف بالإسرائيليات ، وخلاصة ما يقصد منها : إعلام الناس بما حصل لآدم وحواء وتحذيرهم من الوسوس الشيطانية وتبصيرهم بما ينبغي عمله في الحياة ومع أفراد المجتمع ١١

وإذا أردنا الوقوف على أظهر المميزات اللغوية للقصّة في الكتاب المقدس ، فإننا نرى هذه اللغة تنسم بالبسط والإيضاح وتيسر الفهم والسهولة البالغة التي قد تصل في كثير من الأحيان إلى حد الابتذال والركاكة ، كما تنسم باستخدام بعض الأساليب البديعية للتأثير وترسيخ ما تهدف إليه في ذهن السامع . ومن أمثلة المغالاة والمزايدات الواردة في سفر التكوين عن نتائج سقوط آدم في الخطيئة :

« .. وللرأة قال : تكثيرا أكثر أتعاب جبالك ، بالوجع تلدين أولادا

وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك . وللهجة قال : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترايا تأكلين كل أيام حياتك وأضع عداوة بينك وبين نسلك ونسلها هو يسحق نسلك وأنت تسحقين عقبه » (١) .

لا يخفى علينا ما اشتمل عليه النص من مزايدات ومبالغات ظاهرة ، أقرب في مضمونها إلى رواية الأساطير التي يقصد ترويحها بين عامة الناس ، بقصد جذب انتباههم والتأثير في نفوسهم ، ومن هنا وردت بعض الألفاظ التي تحقق غرض التأثير وتشير إلى الوعيد والإنذار مثل : « بالوجع تلدين ، يسود عليك ، وترايا تأكلين ، وأضع عداوة ... » . ويبدو أنها الفاظ ركيكة غير مستساغة في نظري ، وهذا ما سارت عليه اللغة في معظم تلك القصص ، فكيف تلعن الحية من جميع بهائم الأرض ومن جميع وحوش البرية في حين أنها خلق من خلق الله وآية من آياته فاختصها بالمشي على بطنها اظهارا لعظيم قدرته وليس تعذيبا لها أو انتقاما منها كما ذكر في النص السابق ، أضف إلى ذلك أن لفظة « ملعونة » وإن كانت تدل على عظيم غضب الرب إلا أن مدلولها الحقيقي ومعناها الفعلي يزيد على كلمة « الغضب » ويصل إلى حد زوال الرحمة مطلقا ، ولفظة « يسحق » أو « تسحقين » توحى بالزوال والتبديد والله تعالى أراد عمران الدنيا مع بدء الخليقة !!

ومن هنا ندرك أن لغة القصة في القرآن الكريم تتميز عن الخصائص اللغوية للقصص في الكتاب المقدس والتي ذكرتها آنفا ، فهي تمتاز في القرآن بالتركيز والإشارة الخاطفة مع وضوح الفكرة وسهولة المأخذ والدقة التامة في انتقاء

الألفاظ النصيحة الموحية المؤثرة وتجنب حوشى الألفاظ إلى جانب تسلسل العبارات والجودة في صياغتها ، فهي في القرآن تهدف إلى التأثير عن طريق المضمون والمغزى ، وفي الكتب المقدسة تهدف إلى التأثير عن طريق الإطار أو الشكل !!!

وتذكر كتب العهد القديم أن آدم قد سمع صوت الرب فأراد أن يختبئ بين الأشجار : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنى عريان فاخبتأت . فقال : من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها !! (١)

ومع هذا فإن الله لم يترك آدم عريانا بل أحضر أقمصه من جلد الحيوان ، وألبسها له رمزا لما سيعمله في المستقبل عندما يلبس لباس الخلاص من خطاياہ (٢).

وبالتأمل في العبارة الأخيرة نجد أن هناك جملة من الألفاظ الركيكة مثل : أحضر ، ألبسها له ، يلبسه ... ذلك أن التصوير الحسى بهذه الكيفية ينسب إلى الخالق جل وعلا عسفا وزورا ، ولا يليق أن توضع في هذا الوضع عند أرباب الإيمان ، ولا أظن أن هذه الألفاظ تقرب المعنى من الأذهان أو تضيئ على قصة آدم وحواء شيئا من اليقين والصدق !! وقد لاحظت أن خلال تصفحي للقصص الواردة في الكتاب المقدس أن الأثر المادى يغلب عليها ، وهي ظاهرة جليلة فيها حيث تحتشد القصة الواحدة بعدد زاهر من الألفاظ التى تميل إلى التجسيد والتصوير المادى ، ولعل الغرض من ذلك سهولة تقريب الصورة للأذهان وإعمال أثرها في نفس القارىء ومحاولة نقله إلى معاشة الواقع المادى ذاته .

(٢) التكوين ٣ : ٧ : ٢١

(١) التكوين ٣ : ١٠ : ١١

وانتشرت الخطيئة في الجنس البشرى من ذلك الحين :

ولأن الإنسان الأول وقع في الخطيئة بسبب عهيانه ، فقد ورث الجنس البشرى هذه الخطيئة وصار الكل خطاة بسبب ميلادهم من آدم الخاطيء ، من أجل ذلك كأنما يأنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذا أخطأ الجميع .

وتنظر الكتب المقدسة إلى المسيح على أنه المخلص الذى سيهزم الشيطان ويقطع عليه سبيل الغواية ، وظلت هذه الفكرة تراود الأجيال المتعاقبة الى اشتاقت إلى منقذ هذا العالم ، ووقع فى خيلة هؤلاء أن حبة الله للانسان تكن فى مجيى المسيح الذى سيزيح ستار الشر ويحقق العدالة والخير :

كان أول وعد منحه الله لخلاص الإنسان عندما تكلم مع حواء بهدسقوطها مباشرة أن نسل المرأة يسحق رأس الحية ، ومعنى هذا ومعنى الوعد أن المسيح الذى سيولد من العذراء مريم هو الذى سيهزم الشيطان رأس الحية ويخلص الإنسان من سلطانه . ومنذ هذا الوعد الذى وعده الله للبشر كان الناس جميعا فى انتظار ميلاد المخلص من جيل إلى جيل ، وكان الله يؤكد هذا الوعد الذى وعده الله للبشر كان الناس جميعا فى انتظار ميلاد المخلص من جيل إلى جيل ، وكان الله يؤكد هذا الوعد لآبائنا ابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى وداود ودانيال (١) .

وهذا التأويل غير موثوق به فى رأى وليس حجة ثابتة ، فقد يكون المراد من نسل المرأة أنبياء الله ورسله على وجه العموم ، فهم الذين يبددون ظلمات الشر ويدفعون بالناس نحو الحج الخير وغمار الصلاح !

(١) التكوين : ١٢ : ٣ ، ٤٩ : ١٠ .

ومن أمثلة انتشار الخطيئة في الجنس البشري ما ذكر في كتب العهد القديم عن قصة قاييل وهايل ابني آدم ، فقد قتل قاييل أخاه هايل حسداً بعد أن قدما قربانا إلى الرب فنظر إلى قربان هايل وتقبل هذا القربان ولكنه لم يقبل قربان قاييل : « واطل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلك قال إنما يتقبل الله من المتقين » (١)

وبدلاً من أن يفكر قاييل في سبب عدم تقبل الرب للقربان الذي قدمه اغتاض من أخيه وتملكه الحقد والكراهية . فقال له الرب : لماذا اغتضت ولماذا سقط وجهك ؟ ذكر هذا على سبيل اللوم والتوبيخ . وكان قاييل في مقدوره أن يغلب على الحقد لما زوده الله بالقدرة على التفكير وحرية الإرادة ، ولكنه لم يستمع إلى كلام الله وتحذيره ، واندفع في طريق الشر وقتل أخاه هايل . ولم يترك الله قاييل بل حاسبه على خطيئته ، فقال الله لقاييل : أين هايل أخوك ؟ فقال قاييل : لا أعلم . أحارس أنا لأخى ! فقال الله : ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صارخ إلى من الأرض ..

وكان الله بهذا السؤال ينكر على قاييل جريمته الدامية بقتله لأخيه وتمادي قاييل في خطيئته بكذبه على الله ومحاولته تبرير ما فعله وقد نسي أن الله يعلم كل شيء .

ونستطيع أن نتبين ما أشارت إليه هذه القصة من دروس مستفادة تقوم على التحذير والوعيد والبعد عن الغضب والثورة فيها من سبل الشر ، فقد تطورت الخطية بدأت بالشعور بالغيظ واتلاء القلب بالحقد والشر مما أدى إلى القتل .

وعاقب الله قاييل الذى قتل أخاه هايل فالأرض التى يفلحها لن تعطية ثمرا جيدا ، كما أنه سيظل تأنها وهاربا على وجه الأرض ، وأحس قاييل بالندم واعترف بخطيئته كما أشار إلى ذلك الكتاب المقدس : (ذنبى أعظم من أن يحتمل أنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ، ومن وجهك أختفى وأكون تأنها وهاربا فى الأرض فيكون كل وجدنى يقتانى) (١) .

ولم يشأ الله أن يترك قاييل الخاطئ يعيش تأنها خائفا بسبب خطيئته :

« وجعل الرب لقاييل علامة لكي لا يقتله كل من وجده » (٢) .

والعبارة هنا تدل على حلم الله وعفوه الكثير ورحمته العظمى بعباده ، وهذا ما أشارت اليه القصة ، ذلك أن الغرض التعليمى الذى يقوم على سرد القصص من أجل العبرة والعظة قد احتل مكانا كبيرا فى كتب العهد القديم .

والقصة الإنجيلية مليئة بالعبير والعظات الصادرة على لسان المسيح نفسه ، وهي تقوم أساسا على دراسة الواقع الملموس وبيان الآثار المادى ، وهذا ما سنلاحظه بين طيات هذا الفصل من خلال العرض لمعجزات السيد المسيح الواردة فى الأناجيل .

والمعروف أن المسيح رسول من عند الله ، أرسله الله ليبلغ رسالة بعينها ، «ومن قبلنى فليس يقبلنى أنا ، بل الذى أرسلنى» (٣) . وورد فى انجيل يوحنا : «تعليمى ليس لى ، بل الذى أرسلنى ، إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم ، هل هو من الله ؟ أم أتكلم أنا من نفسى ، من يتكلم من نفسه يطلب

(١) التكوين : ٤ : ١٣ — ١٤ (٢) التكوين : ٤ : ١٥

(٣) مرقس : ٩ : ٣٧

مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم» (١) .
وقال: «أنا معكم زمنا يسيرا بعد ، ثم أمضى إلى الذى أرسلنى» (٢) . وأود فى
هذا الصدد أن أعرض للأصل الاشتقاقى اللغوى للفظة (الإنجيل) مستدلا بما
ذكره الجوالقى حيث يقول : (والإنجيل أعجمى معرب ، وقال بعضهم :
إن كان عربيا فاشتقاقه من النجل وهو ظهور الماء على وجه الأرض واتساعه .
ونجلت النوى استخرجته وأظهرته ، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم ، وقيل
هو : إفعيل من النجل وهو الأصل ، فالإنجيل أصل العلوم وحكم (٣) .
ومعنى الإنجيل فى الإنجليزية القديمة « Godspel » (أخبار طيبة) واللفظ
ترجمة للفظ اليونانى : « Evangelion » الذى يبدأ به إنجيل مرقس .

فالإنجيل (إفتجليون) كلمة يونانية ، معناها بشارة مفرحة أو خير سار
لأنها الحقيقة المفرحة التى طالما تاق المسيحيون ورجال الكنيسة إلى معرفتها
وتروى البشارة الخلاصية التى ستتحقق على يد المسيح ، فأصبحت هذه الكلمة
مرادفة تارة لتعاليمه وتارة لسيرته ، ووردت مرارا فى الكتب المقدسة وكتب
العهد الجديد . ولم يلبث أن انتقل اللفظ من المعنى المضمون إلى المعنى المتضمن
أى من معنى البشرى والتعليم إلى الكتاب الحاوى لتلك البشرى وذلك
للتعليم .

والآن عندما يقول المسيحيون كلمة « أنجيل » — إنما هم يقصدون بها
أن يعبروا إيمان : ترجمة حياة المسيح كما كتبها كل من متى ولوقا ومرقس

(٢) يوحنا ٧ : ٣٣

(١) يوحنا ٧ : ١٦ — ١٨

(٣) أبو منصور موهوب بن أحمد الجوالقى : المعرب من الكلام الأعجمى

على حروف المعجم ، طبع سنة ١٨٩٧ م .

يوحنا ، أو عما كتبه هؤلاء الأربعة جملة واحدة أو عن كل أسفار العهد الجديد ، أى ما كتب بعد ميلاد المسيح وقد نحنا كل منهم فى كتابه متحى خاصا :

(١) فتى بوصفه يهوديا ، كتب بشارته لليهود — أهل الدين المنزل — فتكلم عن المسيح كملك اسرائيل الموعود الذى تمت فيه نبوات وإشارات ورموز العهد القديم وقد أكثر من الاستشهاد بما جاء فى العهد القديم من النبوات عن المسيح .

(٢) ومرقس كتب انجيله بعد متى فخص الشعب الرومانى صاحب السيادة فدخل فى بشارته بطريق مباشر وتكلم عن يسوع كعظيم حاز كمال الحياة وحده وأوقف نفسه على فعل الخير دائما ، وكرسها لانتقاد الإنسان .

(٣) ولوقا كتب بعدهما ، فكتب المتدينين والمتكلمين والمفكرين وخص بشارته بأهل العلم من اليونان فتتبع نسب يسوع إلى آدم أب البشرية وتكلم عن المسيح وكهنوته الأدبى الكامل ومن شفاعته . وكان لوقا طبيبا رومانيا رجل علم وعمل .

(٤) أما يوحنا الحوارى ، فقد كتب بشارته بعد زملائه الثلاثة بعشرين أو ثلاثين سنة .. .

وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى تفسير كلمة « المسيح » وإرجاعها إلى مدلولها اللفظى ، منها أنه مسح من الأوزار والآثام ، ومنها أنه كان ممسوحا بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء ، ومنها أن جبريل عليه السلام

مسحه بجناحه وقت ولادته ليكون صونا له من مس الشيطان .. إلى غير ذلك من الأقوال المتفرقة في كتب العلماء والمفسرين .

قصة مولد المسيح كما ذكرت في الأناجيل :

عرضت الأناجيل لمولد المسيح عليه السلام في أسلوب جذاب وإن كانت هناك بعض الإضافات التي تتعارض مع المضمون القرآني لهذه القصة ، ويمكن القول بأن المولد الغريب للمسيح قد صحبته بعض الأحداث الهامة :

(فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليها ، الرب معك ، مباركة أنت في النساء .. فقال لها الملاك : لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحملين وتلدن ابنا وتسمينه يسوع ، هذا يكون عظيما ويعطيه الإله كرسي داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون للملكة نهاية . فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا ؟ فأجاب الملاك وقال لها : الروح القدس تحل عليك ... فقالت مريم : تعظم نفسي الرب ، وتبهج روحي بالله مخلص ، لأنه نظر إلى انضاع أمتي ، فهو ذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني ، لأن القدير صنع بي عظام واسمه قدوس . صنع قوة بذراعه ، شنت المستكبرين بفكر قلوبهم ، أنزل الأعداء من الكراسي ورفع المتضعين ، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين ..) (١)

لا شك أن هذا الحوار بين مريم وملاك الرب تتلون به القصة الإنجيلية بصورة جارية عند الحديث عن مولد المسيح ، وهو وإن كان جذابا بعض الشيء إلا أن درجة التأثير في نفوس المستمعين أو القراء ضئيلة للغاية خاصة

إذا ما قورن بما ذكر في القرآن الكريم من سورة مريم حيث يبدو التناسق
الفريد بين الآيات ويحتل الرنين الموسيقي العذب مكان الصدارة :

(واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت
من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ
بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا .
قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك
هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا . وكان أمرا مقضيا) (١)

شتان بين الحوار الذي تحدث به الإنجيل والحوار المذكور فى سورة
مريم ، ذلك أن القصة القرآنية لها مميزاتها وخصائصها فى الحوار والأسلوب
كما سيأتى فى الفصول القادمة بمشيئة الله . ولا عجب أن تتحدث مريم بنعمة
الله هذا الحديث الطيب ، فهى الأخرى آية من آيات الله ومن عباده المصطفين
الأخيار :

(إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى
إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت : رب إني وضعتها أنثى ، والله
أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيدها بك
وفديتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنتها نباتا حسنا ،
وكلفها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال
يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير
حساب) (٢) .

فقصة مريم وقصة مولد المسيح من إرهابات^(١) الدين الجديد: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين) و (والتي أحصنت فرجها فنفعنا فيها من روحنا وجعلناها وابنة آية للعالمين) (٢).

والأنجيل تضيف إلى قصة مريم ومولد المسيح مزيداً من الإرهابات: (ولما ولد يسوع في بيت لحم في أيام هيروُدس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود، فإننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له... حينئذ دعا هيروُدس المجوس سرّاً، وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر، ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال: اذهبوا واخضعوا بالتدقيق عن الصبي، ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا أيضاً وأسجد له. فلما سمعوا من الملك ذهبوا، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف — فوق حيث كان الصبي. فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً، وأتوا إلى البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه، وغروا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا وذهبوا، ثم إذ أوحى إليهم في حلم ألا يرجعوا إلى هيروُدس، انصرفوا في طريق أخرى إلى كورثهم) (٣).

وتناول إنجيل لوقا هذه القصة في صورة أخرى معبرة عن البشارة السعيدة بمولد المسيح وما صحبه من دلائل البهجة والفرحة الغامرة حيث يقول:

(فولدت ابناً بكر، وقطته^(٤) وأضجته في^(٥) المذود — إذ لم يكن لها موضع في المنزل. وكان في تلك الكورة رعاة مستبدين يحرسون حراسات الليل على

(١) إرهابات : الإرهاب هنا التقديم بالبشرى .

(٢) سورة المؤمنون : ٥٠ ، سورة الأنبياء : ٩١ .

(٣) متى ٢ : ١ — ١٢ . وكورثهم . أى مدينتهم .

(٤) قطته أى شدت عليه القمط وهي الخرقه التي يشد بها الصبي في مهده .

(٥) المراد مهده أو سرير الصغير .

وعيتهم ، وإذا ملاك الرب وقف بهم ، ومجد الرب أضاء حولهم ، فخافوا خوفاً عظيماً . فقال لهم الملاك : لا تخافوا ، منها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب ، إنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح ، وهذه العلامة تجدون طفلاً مقمطاً (١) مضجعا في المذود ، وظهر بفتة (٢) مع ملاك الرب جمهور من الجند السماوي ، مسبحين الله وقائلين : المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة ! ولما مضت عنهم الملائكة إلى السماء ، قال الرجال للدعاة بعضهم لبعض : لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر الواقع الذي أعلننا به الرب ، فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعا في المذود . فلما رأوه أخذوا بالكلام الذي قيل لهم عن هذا الصبي ، وكل الذين سمعوا تعجبوا مما قيل لهم من الرواة ، وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها . ثم رجع الدعاة وهم يمجدون الله ويسبحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم (٣) .

أظهر المعجزات في القصة الانجيلية :

انطلق المسيح — عليه السلام — يبشر برسالته ، بعد أن تقدمه صوت يوحنا الصارخ النذير .. تدفقت المواعظ من فمه ساحرة أخاذة تزيل غشاوة الغفلة وتؤثر في القلوب وتأخذ بمجامع الأبواب ، جديدة على قوم ألفوا الكلام في الطقوس والمراسم لاغير ، غريبة لأن فيها حياة إذ تصدر من قلب فياض بالحياة :

(فكل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم

(١) مقمطاً ملفوفاً في خرخته . (٢) بفتة : أى فجأة .

(٣) لوقا ٢ : ٨ — ٢٥ ، ٢٠ — ٣٠ ، ٤١ — ٥٢ .

يسقط لأنه كان مؤسسا على الصخر.. وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فقط ، وكان سقوطه عظيما (١) . وهذا المثل الجليل المذكور على لسان السيد المسيح شبيه لما حكاه القرآن في قوله تعالى : « أقم أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » (٢) .

وقد كانت هناك معجزات فى الأناجيل لاحصر لها ، وكثرت روايتها ، غير أن المسيح كان حريصا ألا تستعلن هذه المعجزات أو تشيع ، وكان يوصى أصحابها بالكتمان :

(وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلا : يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرنى ؟ فقد يسوع يده ولمسه قائلا : أريد فاطهر — وللوقت طهر برصه ! فقال له يسوع : انظر أن لا تقول لأحد ، بل اذهب أر نفسك للكاهن ، وقدم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم) (٣) .

لعل المسيح — عليه السلام — فيما يبدو لنا لم يكن يقصد بهذه المعجزات الباهرات أن يظهر نفسه أو يسعى إلى تحقيق مكانة رفيعة عند الناس ، ولكنه كان دائما يريد الجوهر ويتحرى المضمون الذى يمهّد إلى سبيل الإيمان ، ولم تلبث هذه الآيات أن تفتشت بين الناس ولم تعد كما كانت من قبل فى طى الكتمان :

(١) متى ٧ : ٢٤ — ٢٧ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٩ — ١١٠ .

(٣) متى ٨ : ٢ — ٩٤ : ٢٧ — ٣١ .

(وفيما يسوع مجتاز من هناك تبعه أعميان من هناك يصرخان ، فافتحت أعينها ! فأنتهرهما يسوع قائلاً : انظرا لا يعلم أحد — ولكنهما خرجا وأشاعاه في تلك الأرض كلها .. وتبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعاً وأوصاهم أن لا يظهروه) (١).

(ثم وضع يديه على عينيه وجعله يتطلع ، فعاد صحيحاً وأبصر كل إنسان جلياً . فأرسله إلى بيته قائلاً : لا تدخل القرية ، ولا تقبل لأحد في القرية) (٢).

لقد أراد المسيح ألا تكون هذه الخوارق مشغلة للنفوس عن جوهر الدين والرسالة ؟ آخذة منهم كل شغلهم وتفكيرهم ، ولعله قد أوصى تلاميذه أنفسهم حين شهدوا إحدى معجزاته بأن يكتبوها حتى قيامته :

(وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم ، وصوت من السحابة قائلاً : اسمعوا لهذا الحبيب الذي به سررت ! ! ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جداً ، فجاء يسوع ولمسهم وقال : قوموا ولا تخافوا — فرفعوا أعينهم ولم يروا أحداً إلا يسوع وحده . وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع : لا تعلموا أحداً بما رأيتم حتى يقوم ابن الإنسان من الأموات) (٣).

وهذا يرجع القول بأن المسيح كان حريصاً على ألا تكون هذه الخوارق محور اهتمام الناس .. والقول بأنه أخر إذاعتها إلى حين ، يحمل هو نفسه

(١) مرقس ١ : ٤٥ — ٣٤ : ١٢ ، ٨ : ٢٢ — ٢٦ .

(٢) لوقا ١٢ : ٥ — ١٥ .

(٣) مرقس ٩ : ٧ — ٩ ، لو ٩ : ٣٤ — ٣٦ .

هلاكة عدم التعرّيل عليها ، إذ لو كانت هي الجوهر الرسالة لما تأخر قط في إذاعتها ، لأن مرور الوقت ينال من تأثيرها وآثارها ، ويفقد روعة التحدى . إذ تفتّر حرارتها وتصير مجرد حكاية عن رسول ذهب من الوجود ، أو تكون دعوى بغير شهود !! والمسيح حريص في صدد هذه المعجزات على أن يبين دور الإيمان فيها ، ليخرج الناس منها بشمرة في قلوبهم ، ولا ينحصر الأثر في مجرد النجاة من مرض أو شر .

(ولما دخل يسوع كفرناحوم جاء إليه قائد مائة يطلب ويقول : يا سيدي غلامي مطروح في البيت مفلوجاً متعذباً جداً ، فقال له يسوع : أنا آتي وأشفيه . . . فأجاب القائد وقال : يا سيدي ، لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفي !! اسكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامي ، لأنني أنا أيضاً إنسان تحت سلطان ، لي جند تحت يدي ، أقول لهذا اذهب فيذهب والآخرائت فيأتني ولعبدى افعل هذا فيفعل . . . فلما سمع يسوع تعجب ، وقال للذين يتبعون : الحق : أقول لكم لم أجد ولا في إسرائيل بمقدار هذا . . اذهب وكما آمنت ليكن لكم — فبرأ غلامه في تلك الساعة) (١) .

حرص المسيح على توطيد دعائم الإيمان وغرسه في النفوس وجعله ممتزجاً بصدق النية وطهارة السريرة (وإذا امرأة نازفة دم منذ اثنتي عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومست هذب (٢) ثوبه فقط شفيت) فالتفت يسوع وأبصرها فقال : تقى يا ابنة إيمانك قد شفاك — فشفيت المرأة في الحال (٣) وإذا كان المسيح يذكر بهذا الجوهر الفعال فإنه يحرص أيضاً على أن تفتتح القلوب للإيمان ذاته :

(١) متى ٨ : ٥ — ١٣ ، ٩ : ٢٠ — ٢٢ ، ٢٧ — ٣١ .

(٢) هذب ثوبه : طرفه (٣) مر ٥ : ٢٥ — ٣٤ ، ١٠ : ٤٦ — ٥٢ .

(وفيا يسوع مجتاز من هناك تبعه أعميان يصرخان . . . فقال لهم يسوع : أتؤمنان أنى أقدر أن أشفيكما ؟ قالاه : نعم ياسيد . حينئذ لمس أعينهما قائلاً : بحسب إيمانكما ليكن لكما ، فافتحت أعينهما (١) .

(ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جائياً (٢) له وقالاً: ياسيد ارحم ابنتي فإنه يصرع ويتألم شديداً ، ويقع كثيراً في النار وكثيراً في الماء ، وأحضرتة إلى تلاميذك فلم يقدرُوا أن يشفوه ! فأجاب يسوع وقال : أيها الجبل غير المؤمن الملتوى إلى متى أكون معكم ؟ إلى متى احتملكم ؟ قدموه إلى هاهنا . فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفى الغلام من تلك الساعة . ثم تقدم التلاميذ إلى يسوع — على انفراد — وقالوا : لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه ؟ فقال لهم يسوع : لعدم إيمانكم ، فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم . وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم (٣) .

ولعله يركز في هذا المثال على حقيقة هامة تتمثل في مجاهدة النفس والهوى ، فالعبادة ليست بسيرة للغاية ولكنها تتطلب طاقة عظيمة تكون معها السيطرة على دواعي الهوى والقدرة على إحباط النزوات العسية .

على أن القصة الإنجيلية في عرضها لهذه المعجزات تكاد في رأي لا تخلو من المبالغات والمزايدات التي نسبت إلى المسيح عسفاً وجوراً ، إننا حقاً مطالبون بتصديق القرآن في عرضه لأظهر معجزات المسيح كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص والاستنباء ببعض الغيبيات إلى غير ذلك ، ولكن كثيراً

(١) لو ٧ : ١٠ — ١٠ ، لو ٨ : ٤٣ — ٤٨ ، لو ١٨ : ٣٥ — ٤٣ .

(٢) جانيا : جالسا على ركبته .

(٣) متى ١٤ : ٢٨ — ٣١ ، ١٧ : ١٤ — ٢١ ، ٢١ : ١٨ — ٢٢ .

من الروايات التي يتضمنها الإنجيل تميل ميلا واضحا إلى الإسراف في إطراء المسيح فلا تحظى بالقبول من جانب القراء ويأخذ الرب سبيله إلى نفوسهم ولا يظنّفون بسماها :

(وفي الصبح إذ كان راجعاً إلى المدينة جاع ، فنظر شجرتين على الطريق ، وجاء إليهما فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط . فقال لإحدهما : لا يمكن منك ثمر بعد إلى الأبد ، فيبست التينة في الحال ، فلما رأى التلاميذ ذلك تعجبوا قائلين : كيف يبست التينة في الحال ؟ فأجاب يسوع وقال لهم : الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان ولا تشكون فلا تفعلون أمر التينة فقط ، بل إن قلتم أيضاً لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون ، وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه (١) .

ونحن نقسأه : ألم يجد المسيح سوى هذه المعجزة بأن يحكم على الشجرة أن تصير يابسة لا تأتي بثمر إلى الأبد ؟ وإذا كان هذا حكمه فأين نحن من تعاليمه السامية التي تسعى من أجل حياة ملؤها الرغد والرفاهية والخير ؟ ما كان المسيح عليه السلام ينطوي على نية تقطع الخير وتمنع الظل الوارف والثمر اللين الذي ينفع الإنسان ١١ وما كان له أيضاً ليغرس في النفوس طابعا من الصلف والغرور يمدح هؤلاء القدرة الخارقة على نقل الجبل من مكانه وانطراحه في البحر ١١ .

هذا في رأي ادعاء ياباه المنطق الإنساني ويرفضه الدستور السماوي !

(وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشيا على البحر ، فلما أبصره التلاميذ ماشيا على البحر اضطربوا قائلين : إنه خيال ، ومن الخوف

صرخوا : فلو كنت كلهم يسوع قائلا : تشجعوا ، أنا هو لا تخافوا . فأجابه بطرس وقال : يا سيد إن كنت أنت هو ، فمرني أن آتي إليك على الماء ، فقال : تعال ! فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع ، ولكن لما رأى الريح شديدة خاف ، وإذا ابتداء يغرق صرخ قائلا : يارب أنجني ! ففى الحال مد يسوع يده وأمسك به وقال له : يا قليل الإيمان لماذا شككت ؟ (١) .

وهكذا دأب المسيح على أن يربط المعجزات دائما بالإيمان ، ولا يتركها دون أن يكون لها أثر فى النفوس بعرض الدعوة وبيان الرسالة ، وتمجيد الله الذى أجرى هذه الآيات على يد رسوله : (وفيما هو يتكلم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجميع قالت له : طوبى للبطن الذى حملك والثديين اللذين رضعتهما ! أما هو فقال : بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه) (٢) .

ويحرص المسيح فى تعاليمه على حفظ الوصايا والعمل بها (وإذا واحد تقدم له وقال : أيها المعلم الصالح ، أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟ فقال له : لماذا تدعونا صالحا ؟ ليس أحد صالحا إلا واحد هو الله ، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة احفظ الوصايا) (٣) .

وقد أوجل القرآن الكريم ألوان المعجزات التى أجراها الله على يد المسيح بعد أن جعلها مقترنة بالمشيئة الإلهية ، وعبر فيها عن رفعة قدر المسيح عليه السلام وما تجلى به الله عليه من عظيم نعمه وكثير خيراته :

(١) مرقس ٦ : ٤٥ — ٥٣ ، مر ١١ : ٢٠ — ٢٦ .

(٢) لو ١١ : ٢٧ — ٢٨ .

(٣) متى ١٩ : ١٦ — ١٧ ، ١٠ : ١٧ — ١٩ ، لو ١٨ : ١٨ — ٢٠ .

« إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكري نعمتي عليك وعلى والدتك ، إذ أبدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والبراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني ، وتبريء الأكمة والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني ، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين . وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، ظالوا آمنوا واشهد بأننا مسلمون » (١) .

والقرآن يعبر بالاسلام عن دين الله الذي تعاقب على حمل رسالاته الأنبياء أجمعون : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) .

وقد روت الأناجيل كثيرا من الروايات عن شفاء الأمراض ، أما معجزة إحياء الموتى فقد وردت على نطاق أضيق . « وفيما هو يكلمهم بهذا ، إذا رئيس قد جاء فسجد له قائلا : إن ابنتي الآن ماتت ، لكن تعال وضع يدك عليها فتحيها ، فقام يسوع وتبعه هو وتلاميذه . . . ولما جاء يسوع إلى بيت الرئيس ونظر الجمع يضيحون ! قال لهم : تنحوا ، فإن الصبية لم تمت ولكنها نائمة ، فضحكوا عليه ! فلما خرج الجمع ، دخل وأمسك يدها - فقامت الصبية ، فخرج ذلك الخبر إلى الأرض كلها » (٣) .

(١) سورة المائدة : ١١٠ — ١١١

(٢) سورة البقرة : ١١٢ .

(٣) مت ٩ : ١٨ — ٢٦ ، مر ٥ : ٢١ — ٤٣ .

نلاحظ من خلال سرد بعض هذه المعجزات الخاصة بالمسيح أن القصة الإنجيلية ترمي إلى أغراض تعليمية عديدة تقوم على اتباع المسيح والالتزام بما كان عليه وفوق ذلك كله حسن الظن به إلى درجة بالغة ، (إن ابنتي الآن مانت ، لكن تعال وضع يدك عليها فتتحيا) ونلمح في تلك العبارة التلطف الشديد المصحوب بحسن الظن وصدق الإيقان . ولعل ذلك الاعتقاد الراسخ قد دفع هؤلاء إلى إطرأء المسيح ورفعته إلى درجة الألوهية وجعلهم يتهافون عليه ويشيعون أخباره في الأرض كلها وينادونه بالسيد والمعلم والمخلص وكلها ألفاظ تدل على التبجيل الزائد ونراها تذكر على أسنة ذوى العاهات والحاجات في مواضع كثيرة من الإنجيل .

وتتميز لغة الإنجيل بسرد الحوار السريع عند العرض لمعجزات السيد المسيح ، هذا الحوار الذى ينقضى باستجابته للدعوة وعزمته على قصد الخير من غير تسويف . . وإذا كان المسيح — عليه السلام — يستجيب لنداء الحق فإننا نراه يقصد من ذلك إحياء القلوب بالإيمان وغرس القيم الروحية المثلى في نفوس الناس من خلال إجراء الحوار وفعل المعجزات وهذا ما أراه من أهم أغراض القصة الإنجيلية وأهدافها التى قد تخفى على الكثيرين منهم .

وكان على مترجمي الإنجيل من اللغة اليونانية أن يصحروا الدقة في أساليبهم وكتاباتهم ، ذلك أنهم أخفوا كثيرا من الحقائق وتواروا وراءها ، وأغنى بالحقائق هنا المقصود من إجراء المعجزات ، من غير اقتصرار على تأهيل المسيح إلى منزلة الربوبية . فالسيد المسيح على سبيل المثال حين يقترب من العصابة كما مر « وهي مضطجعة » ويأمرها بأن تقوم من رقدتها الحتمية ، أو حين يقترب من النعش ويأمر الميت المحمول بأن يقوم ، ويستجيب كلاهما

لئذائه لم يكن يفعل ذلك عن محض إرادة منه أو تطلع إلى مكانة عند الناس كما يعتقد البعض ، إنما أراد في الحقيقة أن يبين أثر المشيئة الإلهية وقيمة التوكل على الله كشجرة من ثمار الإيمان الصادق . كما أن كلمة (مضطجعة) توحى بالفعال الحسن ، والبشارة الطيبة بأنها ما زالت على قيد الحياة وستعود إلى الحياة

وكان على هؤلاء المترجمين أن يقدرُوا في عباراتهم الأثر العظيم للمشيئة الإلهية ، ولا أظن أن المسيح قد عدها في كلامه ويكفي أن القرآن الكريم قد حكاهما على لسان المسيح في أكثر من موضع وسرى ذلك في قصة نزول المائدة .

ومن ملاحظاتي الأخرى في القصة الإنجيلية أنها تبدي اهتماما أكبر بالأثر المادى والتصوير الحسى ، ويكاد ذلك يتضح للقارىء حين يتصفح الأناجيل ويطالع ما فيها من أخبار وقصص متنوعة . ولعل التصوير قد غلب على هذه القصص لأنه يعمل على التقريب وزيادة الإدراك ، ويأتى بعد ذلك العرض المشوق للقصة أو الحكاية التصويرية غرض مذكود من أغراض القصة الإنجيلية الأخرى يقوم على تمجيد الرب والخضوع لعظمته كما رأينا : (ومجدوا الله قائلين : قد قام فينا نبي عظيم ، وخرج عنه هذا الخير فى اليهودية وفى جميع الكورة المحيطة) (١) .

ومن أغراض القصة الإنجيلية أيضا حفظ الوصايا والاستفادة من التعاليم وهذا ما ركز عليه المسيح فى دعوته ، وقد اتفق فى ذلك أنبياء الله ورسله حيث كانت دعوتهم الأساسية تقوم على التوجيه الفاضل والنصح الطيب من

خلال ذكر الوصايا الربانية وسوف نتناول العديد من أغراض القصة القرآنية في الفصول المقبلة بمشيئة الله ، ونكتفي هنا ببعض السمات والأغراض الخاصة بالقصة الإنجيلية التي استنبطتها بنفسى حين عرضت لأمشلة منها كما مر . ومن صور التناقول فى الألفاظ ما ذكر على لسان المسيح حين علم بموت لعازر حبيبه الذى دمه المرض وقضى عليه فقال لتلاميذه : (لعازر حبيبنا قد نام ، لكنى أذهب لأوقظه) فقال تلاميذه : يا سيد إن كان قد نام فهو يشفى وكان يسوع يقول عن موته .. فلما أتى يسوع وجد أنه قد صار له أربعة أيام فى القبر ، وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزوها عن أخيها ، فلما سمعت مرثا أن يسوع أت لاقته فقالت مرثا ليسوع : يا سيد لو كنت ها هنا لم يميت أخى ! لكنى الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك إياه ! قال لها يسوع : سيقوم أخوك .. (١) .

وندرك من خلال هذا الحوار التناقول الشديد فى مغزى هذه القصة ، فرثا وأختها مريم يتفاءلان برؤية المسيح ، والمسيح يتفاءل بقيام لعازر من الموت . والواقع أن قصة «لعازر» هذه تحتل مكانا كبيرا فى نفوس المسيحيين وأدركت ذلك بنفسى من خلال تنقلى بينهم واستدلالى منهم عن بعض الأشياء ، وهم يرون أن «لعازر» كان من أشد الناس حبا للمسيح الذى انزعج واضطرب حين علم بموته .. وقال : أين وضعتموه ؟ قالوا له : يا سيد ، تعال وانظره . فبكى يسوع ، فقال لليهود : انظروا كيف كان يحبه ! ؟ وقال بعض منهم : ألم يقدر هذا الذى فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضا لا يموت ؟؟

ويذكرون أن المسيح قد علم بموته وتعمد ألا يزوره حين كان فى أشد

خللات المرض ومكث في الموضع الذي فيه يومين ، حتى إذا دفن وصار له أربعة أيام في القبر تحرك إليه وأشار عليه بالخروج من القبر فخرج ويداه ورجلاه مربوطات بأقطة ، ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب .

وكان يسوع قد أظهر أثر الإيمان بقوله لمرثا : ان آمنت سترين مجد الله ، ورفع عينيه إلى فوق وقال : أيها الرب أشكرك لأنك سمعت لي — وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي .

وأمثال هذه المعجزات جعلت اليهود يدبرون الشر والمكيدة للسيد المسيح ، فتآمروا عليه وأخذوا يتشاورون في قتله : فكثير من اليهود الذين جاءوا إلى صريم ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به ، وأما قوم منهم فمضوا إلى الفريسيين وقالوا لهم عما فعل يسوع : فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجعاً ، وقالوا : ماذا نصنع ؟ فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة ، إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به . فمن ذلك اليوم تشاوروا ليه تلووه (١) .

والاتفاق كامل بين نصوص القرآن وروايات الأناجيل المتداولة عن شفاه المرضى وأحياء الموتى .

قصة نزول المائدة :

يروى القرآن في آخر سورة المائدة قصة استمدت منها السورة اسمها : « إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم

اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين (١) .

وقد وقع هذا الاستفهام من جانب الحواريين في بداية إيمانهم وقبل أن يستحكم الإيمان بالله ، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام : (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى لا تشكوا في قدرته جل وعلا واعلموا أنه أمر يسير عليه سبحانه . وقيل أنهم طابوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام : (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) . ومعنى الآيات الكريمة : تطمئن قلوبنا بكمال قدرة الله ، أو بأنك مرسل إلينا من عنده ، أو بأن الله قد أجابنا إلى ما سألناه ونعلم علما يقيننا بأنك قد صدقتنا في نبوتك ونكون عليها من الشاهدين أى الحاضرين دون السامعين أو من الشاهدين لله بالوحدانية (٢) .

وقد كان نزول المائدة يوم الأحد ، وهو يوم عيده ، والعيد واحد الأعياد ، وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد ، وقيل للفرقة بينه وبين أعواد جمع عود ، وقيل أصله من عاد يعود : أى رجع فهو عود بالواو ، وتقلب ياء لانكسار ما قبلها ، مثل الميزان والميقات والميعاد ، فقيل ليوم الفطر والأضحى عيدان لأنها يعودان في كل سنة (٣) .

وفي الأناجيل تكررت رواية قصة نزول المائدة التالية :

- (١) سورة المائدة : ١١٢ — ١١٥ .
- (٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ٨٨ .
- (٣) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عود) .

« وأما يسوع فدعا تلاميذه ، وقال إنى أشفق على الجمع لأن لهم ثلاثة أيام
 يمكنون معى وليس لهم ما يأكلون ، ولست أريد أن أصرفهم صائمين لثلاث
 يمحوروا (١) فى الطريق ! فقال له تلاميذه : من أين لنا فى البرية خبز بهذا المقدار
 حتى يشبع جمعا هذا عدده ؟ فقال لهم يسوع : كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا :
 سبعة وقليل من السمك ... فأمر الجمع أن يكثوا على الأرض ، وأخذ
 السبع خبزات والسمك ، وشكر وكسر وأعطى تلاميذه ، والتلاميذ أعطوا
 الجمع ، فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر : سبعة سلال مملوءة
 والآكلون كانوا أربعة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد (٢) . وقد
 اتفقت الأناجيل الأربعة فى مضمون هذه القصة التى يغلب عليها الإسراف الزائد
 وتنطوى عباراتها تحت ستار الزيف والمغالاة ، وهناك اختلاف بين الأسلوب
 وطريقة العرض والغرض والمضمون بالمقارنة بقصة نزول المائدة فى القرآن
 الكريم والتى أشرت إليها آنفا !! وبالنظر إلى هذا السؤال المذكور على لسان
 تلاميذ المسيح نذكر الفرق جيدا : من أين لنا فى البرية خبز بهذا المقدار حتى
 يشبع جمعا هذا عدده ؟ ذلك أن هذا السؤال الموضوع — فى رأى — إنما هو
 بمثابة تقديم لمحول المعجزة الجليلة للسيد المسيح ، وهو من الأغراض الرئيسية
 للقصة الإنجيلية فى العرض لتلك المعجزات الباهرات ! وتحقق المعجزة كما ذكر
 فى السياق : سبعة سلال مملوءة ، والآكلون كانوا أربعة آلاف رجل ما عدا
 النساء والأولاد !! ومظهر المغالاة واضح وجلى فى هذه العبارة .

وبعد أن تصحب القصة بذكر هذه المحوارق ، تصل الأناجيل بعد ذلك

(١) يمحوروا : المراد بصيهم المحور وهو الضعف وعدم القدرة على السير.

(٢) متى ١٥ : ٣٢ — ٣٩ ، مرقس ٦ : ٣٠ — ٤٤ ، لو ١٩ :

١٠ — ١٧ ، يوحنا ٦ : ١ — ١٥ .

السرد الطويل إلى الغرض الفعلي المنشود في نهاية القصة فتقول : « وصعد إلى السفينة ، فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا : إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم ، وأما يسوع فإذا علم أنهم مزعمون^(١) أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا انصرف أيضا إلى الجبل وحده » (٢) .

وقد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا ؟ فذهب جمهور المفسرين إلى الأول وهو الحق لقوله تعالى : « إني منزلها عليكم » ووعد الحق وهو لا يخلف الميعاد .

وقال مجاهد : ما نزلت وإنما هو مثل ضربه الله لخلقها نبيها لهم عن مساواة الآيات لأنبيائه . وعن الحسن : لما قيل لهم عن العذاب قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل . وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله (٣) .

وروى ابن جرير عن قتادة عن عمار ، قال : نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة ، فأمروا أن لا يبخونوا ولا يخبثوا ولا يدخروا . قال : نغان القوم ، وخبثوا وادخروا ، فسخم الله قرعة وخنازير^(٤) . ويروى أن الملائكة نزلت بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

(١) مزعمون : أي قاصدون .

(٢) لوقا ١٩ : ١٠ — ١٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، مطابع الشعب .

(٤) تفسير الطبري : ٢٢٩ / ١١ .

الفصل الثالث

الخصائص التعبيرية اللغوية لأسلوب القصة القرآنية

الخصائص التعبيرية اللغوية لأسلوب القصة القرآنية

يفرد القرآن الكريم بأسلوبه المعجز في عرض قصص الأنبياء والأمم السابقة ، ويتميز هذا الأسلوب بخصائص جليلة تعطى للنسق القصصى روعة وضوحاً وتكون لها آثارها العميقة في النفس ، وهذا ما أردت أن أبينه في هذا الفصل مشيراً إلى الجوانب التعبيرية واللغوية وميزة نظم القرآن وسياقه في تناول قصص الغابرين مستشهداً بالأمثلة القرآنية ...

« وهذا الأسلوب إنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله ، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز ، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة ، واءتقلهم عن الكلام فيه ، وضربهم بالحجة من أنفسهم ، ثم هو الذي مثل لهم . اليأس قائماً لا يتصل به الطمع ، وصور لهم المعجز غالباً لا تنال منه القدرة . وهذا يتبين من طرق نظمه ، ووجوه تركيبه ، ونسق حروفه في كلماتها وكلماته في جملها ، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهل العرب عن أنفسهم ، من هيئة رائعة وروعة مخوفة ، وخوف تقشعر منه الجلود ، حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية ، وتحلف الملكة المستحكمة ، ورأى بلغاؤهم أن هذا التركيب جنس من الكلام غير ماهم فيه » (١)

يتبين لنا أن تركيب القرآن يمثل روح الفطرة اللغوية في العرب وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد من العرب ، فهو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطلع على قلوبهم .

(١) مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٢١٤

النظم في قصص القرآن :

إذا أردنا أن نوضح صورة من هذا التركيب فإن نظم القرآن في عرض القصص يعطينا خير صورة . ونرى الباقلاني قد اختار سورة النمل ثم راح يناقشها ويطالب بالتأمل فيها كلمة كلمة ، وفصلاً فصلاً ، ثم أخذ يعرض من آياتها حتى إذا وصل بعرضه إلى قوله تعالى :

« إني آنست نارا آتيتكم منها بخير أو آتيتكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » (١) ذكر أن هذه القصة ترددت في غير تلك السورة . وقال تعالى في سورة طه في هذه القصة :

« لعل آتيتكم منها بقبس أو أجده على النار هدى » (٢) وفي موضع :
« لعل آتيتكم منها بخير أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » (٣) . وهو يشير بذلك إلى استخدام كلمة (شهاب) في موضع و (جذوة) في موضع آخر .

والقرآن قد تصرف في وجوه وآتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ، ولهذا قال تعالى : « فليأتوا بحديث مثله » ليكون أبلغ في تعجزهم وأظهر للحجة عليهم ، وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة بليغة بنفسها تامة في معناها (٤) .

وهذه الالتفاتة من جانب الباقلاني إلى تكرار هذه الكلمات التفسات طيبة تدل على محاولة للتنبيه إلى تميز الأسلوب القرآني المعجز عن غيره من الأساليب وهذا كفيل بأن يكشف عن فنية الأسلوب وبلاغته على عبارات مجلة . وسوف

(١) سورة النمل : ٧ (٢) سورة طه : ١٠ (٣) سورة القصص : ٢٩

(٤) الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص ٢٨٨ ، ط . محمد علي صبيح القاهرة .

تتناول موضوع « التكرار وأثره في لغة القصة القرآنية » في الفصل التالي
بعد أن أعرض لخصائص الأسلوب القصصي القرآني .

والقرآن الكريم ينتقل بأسلوبه المعجز من موضوع إلى موضوع، ويضرب في ذلك مثالا عالياً في الروعة . نأخذ مثالا على ذلك بقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام « فلما جاءها نودى أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » (١) . فلننظر إلى ما جرى له الكلام من علو أمر هذا النداء ، وعظم شأن هذا الثناء ، وكيف انتظم مع الكلام الأول وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية ، ولننظر كيف ينتقل القرآن من قصة إلى قصة ومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل وحتى يصور لك الفصل وصلا ببدع التأليف وبلغ التنزيل (٢) .

لقد أراد الباقلاني بحديثه هذا أن يعلل للنظم والتناسق الفني بين الآيات في قصص القرآن بوجه خاص من خلال الوحدة العضوية أو وحدة التركيب بين أجزاء السورة ، حتى تظهر هذه الروح وكأنها خلق متكامل يمسك بعضه برقاب بعض وهي من صفات الكلام الجيد .

وهذا الترابط بين أجزاء السورة ترابط يتضح فيه اتصال المتأخر بالمتقدم وعلى هذا نستطيع أن نقول بأن النظم بين التناسق والترابط بين أجزاء القطعة الفنية الواحدة باعتبارها كلاما لا تنقطع أوصاله كقطع القصيدة إلى آيات يتفصل بعضها عن بعض وإنما تتلاحم تلاحما يشهد بقدرة المبدع حتى لا تتضاءل الصور الجزئية في الأثر الفني .

(١) سورة النمل : ٨

(٢) الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص ٢٨٨ / ٢٨٩ .

والمعروف أن البلاغة في القصص تحاك بأساليب شتى في أماكن متنوعة من القرآن الكريم ، دون أن ينالها الضعف أو الخلل في نظمها أو يؤثر على دقة تركيبها ، وإنما المراد هو الإعجاز القرآني في الأسلوب وطريقة العرض .

وروح التركيب لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن ، وبها انفرد نظمته وخرج مما يطيقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ثم إلى تأليف هذا النظم فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعاني في النفوس .

الألفاظ في القصص القرآني :

ومن خصائص الأسلوب القصصي القرآني الدقة التامة في انتقاء الألفاظ وحسن اختيارها ووضعها في موضعها وهو ما يسمى (إصابة المعنى) وهذا ما أردت أن أشير إليه بعد أن غفل عنه كثير من الباحثين ، وهو في الحقيقة يوضح الأثر اللغوي في سياق القصة القرآنية :

من ذلك قوله تعالى في قصة سليمان مع ملكة سبأ : (قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) (١) . فهذه وصف بديع لانبجاس نظمها أجود منه ، فهؤلاء القوم يظهرون الخضوع

والولاء للملك كما يعبر عنه قوله تعالى (والأمر إليك) ونحن لانجد في صفتهم أنفسهم أربع مما وصفهم به القرآن ، وموضع اتفاقه في هذا الكلام ويمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله (فانظري ماذا تأمرين) . وهذا إيماء بالقدرة على إحداث الخوارق والاستعداد لكل هول ، والخبر هنا يفيد الفخر والاعتزاز ويدل على النفوذ الواسع وشدة البأس كما عبر عنه بضمير الجمع (نحن) وقال (أوأوقوة . .) ولم يقل (أقوياء) لأنها أبلغ في الدلالة وأعظم أنرا في النفس .

وهناك نوع من الألفاظ يرسم صورة الموضوع ، ولكن لا يجرسه الذي يلقيه في الأذن ، بل بظله الذي يلقيه في الخيال ، وللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير ، حينما يوجه إليها انتباهه ، وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية . مثال ذلك قوله تعالى : (وانزل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها (١) ، فكلمة (انسلخ) ترسم الصورة العنيفة للتملص من هذه الآيات ولم يقل (خرج) أو (أعرض) لأن الانسلاخ حركة حسية قوية . ومثله قوله تعالى عن موسى عليه السلام (فأصبح في المدينة خائفا يترقب) (٢) فلفظة (يترقب) ترسم هيئة الحذر المتلفت الذي يبدو في قلق شديد ، ولا تغفل هنا أنه خائف يترقب (في المدينة) موضع الأمن والاطمئنان . والعبارة هنا تصور قيمة اللفظ المصور للفرع في موضع الأمان وتقديم كلمة (خائفا) على (يترقب) فيها إيماء بمدى الفرع الذي استولى على موسى عليه السلام .

(١) سورة الأعراف : ٧٥ .

(٢) سورة القصص : ١٨ .

ومن بديع النظم في القرآن ما ذكر عن موقف الأمم من الأنبياء والمرسلين وبراعة وصف هذا الموقف كما ورد في سورة النمل قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » (١)

فليست هناك كلمة أبلغ في الدلالة من كلمة (ليأخذوه) في قوله تعالى (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) أو تقع من الحس موقعها أو تقوم مقامها في الجزالة والدقة . ولو وضع موضع ذلك : ليقتلوه أو ليرجفوه لينفوه أو ليطرده أو ليهلكوه ونحو هذا ، ما كان ذلك بديها ولا بارطا ، فهم يريدون أن يتمكنوا منه ومن الإيقاع له وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل .

وهكذا يتضح مافي الكلمة من تضمنها كل ماعسى أن يخطر للمشر كين على بال في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وطريق الخلاص منه مما لا تؤديه أية لفظة أخرى .

وقد حرص العلماء على يسان الفروق بين الكلمات المتقاربة المعنى ، والتعابير المتشابهة الدلالة ، فمن هؤلاء الخطابي الذي يؤكد : أن من دقائق التركيب وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا بدل مكانه غيره جاء منه تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام واختلال التركيب ، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة

في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ،
والأمر فيها عند علماء اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز
بها عن صاحبها في بعض معانيها وإن كانا يشتركان في بعضها ^(١) .

وهذا شيء جدير بالبحث والاستدلال ، وهو ما تتميز به القصص القرآني ،
فالواحد منها قد يتوهم مماثلة كثير من الألفاظ لبعضها وإمكانية التعبير بهذه
الألفاظ جملة مادامت مترادفة ، ولكن القصص القرآني — كما أرى — قد
يحرى الدقة التامة في التركيب وصياغة الألفاظ المخصوصة ، من ذلك ماورد
في سورة يوسف بعد أن دبرت المؤامرة من جانب إخوة يوسف وألقوه في
غيابات الحب ، ذكر قوله تعالى : (فأكله الذئب) . فإن قال قائل : كان
الأجدر أن تستخدم لفظة افترسه الذئب بدلا من (أكله) لأن الافتراس
يستعمل في فعل السباع !

نعقب على ذلك فنقول : إن الافتراس معناه في فعل السباع القتل دون
الالتهام بالكلية ، وأصل الفرس دق العنق ، وإخوة يوسف إنما ادعوا على
الذئب أنه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلا
ولا عظما . ذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق من يوسف يكون
بمثابة شاهد دليل ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس
لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل . وهكذا
يتضح السر في استخدام هذه اللفظة .

(١) محمد خلف الله : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٢٦ ، ط .

النسق القرآني في القصة :

من طريقة القرآن أنه يتخير الأسلوب المناسب للفكرة ، وينوع في نظام الفواصل والقوافي ، بتنوع الموضوع الذي يعرضه ، ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها وطريقة بنائها اللفظي من حيث السهولة والخشونة وتخفيف الحرف الأخير الذي تختتم به . وهذا ما أردت أن أقف عليه هنا من معالجة النسق القرآني وفي الأمثلة القصصية من حيث نظام الفواصل وتنوعها بين الطول والقصر تبعاً للسياق الذي تسير عليه الآيات . وأضرب مثلاً على ذلك بسورة مريم ، فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى ، وتليها قصة مريم وعيسى ، وتسير الفاصلة والقافية هكذا : (ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً ^(١)) ثم يقول : (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ^(٢)) . إلى أن تنتهي القصتان على روى واحد . وإذا بهذا النسق يتغير فجأة ويخرج عن الروى المعهود وذلك في قصة عيسى عليه السلام ، على النحو التالي :

(قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ... ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) ^(٣) .

(١) سورة مريم : ٢ ، ٣ . (٢) سورة مريم : ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة مريم : ٣٤ — ٣٦ .

وإذا انتهى القرآن من إصدار الحكم وإلغاء القرار عاد إلى النظام الأول في القافية والفاصلة لأنه عاد إلى قصص جديد على النحو التالي :

(فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ، أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ، وأنذرهم يوم الحسرة إذا قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ، إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون . . . واذكر في الكتاب إبراهيم ...) (١) .

وهنا يرد سياق آخر يشتمل على قصة إبراهيم مع أبيه : (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) (٢) .

والتماسق الفني في القرآن وعرض قصصه يرمز إلى الإيقاع الموسيقي المتعدد الألوان ، والذي يؤدي وظيفة أساسية في البيان ، وتعتبر هذه الموسيقى إشعاعا للنظم الخاص في كل موضع من كتاب الله ، وتابعة لقصر النواصل وطولها ، كما أنها تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة . وقد جمع النسق القرآني بين مزايا النثر والشعر جميعا ، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقي الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن والتي تغنى عن التفاعيل والتقفية التي تغنى عن القوافي وضم ذلك إلى الخصائص الأخرى .

والإيقاع الموسيقي ينتشر في كثير من سور القرآن الكريم ، وحيثما تلا الإنسان القرآن أحس بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه ، ويبرز بروزاً واضحاً في كثير من السور القصار ، والفواصل السريعة ، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة وهو ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني . مثال ذلك قوله تعالى في سورة النجم :

(والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو في الأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ...) (١) .

فهذه فواصل متساوية في الوزن تقريباً — على نظام مخالف للشعر العربي — متحدة في حرف التقفية تماماً ، ذات إيقاع موسيقي متحد تبعاً لهذا وذلك ، ونلاحظ فيها تآلف الحروف في الكلمات ، وتناسق الكلمات في الجمل . نلاحظ أن الأسلوب القرآني في عرض قصصه يحرص على التقيد بنظام القوافي إذا كان هناك إيقاع موسيقي في الآيات ، فاللفظة المنتقاة تأتي لتؤدي معنى في السياق وتؤدي تناسباً في الإيقاع ، دون أن يطفئ هذا على ذاك ، أو يخضع النظم للضرورات . كما نلاحظ اتزان الإيقاع في الآيات والفواصل ، وخير ما أستطيع الاستشهاد به قوله تعالى على لسان خليله إبراهيم مع قومه :

(قال : أفرأيتم ما تعبدون ، أنتم وآبائكم الأقدمون ، فإنهم عدولي إلا

رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذله مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (١) .

نلاحظ من خلال سياق الآيات أن ياء المتكلم قد خطفت ولم تذكر فى « يهدين ويسقين ويشفين ويحيين » محافظة على حرف القافيه والنسق مع « تعبدون والأقدمون والدين » ومثله خطف الياء الأصلية فى الكلمة ، نحو قوله تعالى : « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر » ١٢١ ، فباء « يسر » حذفت لتوافق رءوس الآيات وقصد الانسجام مع « الفجر ، عشر ، والوتر ، وحجر » .

ومثله حكاية عن جزاء الكفار ووصف حالهم يوم القيامة فى قوله تعالى : (يوم يدع الداع إلى شئ نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذه يوم عسر) (٣) .

فقد ذكرت كلمة (الداع) مرتين فى الآية الكريمة من غير الياء ، ولو ذكرت الياء لاختل النظام فى السياق القرآنى . ومثله فى سورة الكهف : « ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً » (٤) ، فلو مددنا ياء (نبغى) لاحتل الوزن والتركيب .

والموسيقى السكامة فى التركيب تختل لو عدلنا عن صيغة قياسية بتقديم

(١) سورة الشعراء : ٧٨ — ٨٢ . (٢) سورة الفجر : ١ — ٥ .

(٣) سورة القمر : ٦ — ٨ . (٤) سورة الكهف : ٦٤ .

كلمة على أخرى وهذا ما نلاحظه في قوله تعالى :

« ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال : رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدناءك رب شقياً » (١) . فلو أردنا تقديم كلمة « مني » فنجعلها سابقة لكلمة « العظم » فتكون : قال رب إني وهن مني العظم . لاختل التركيب أيضاً ذلك أنها تتوازن مع حرف التوكيد (إني) في صدر الفقرة : « قال رب إني وهن العظم مني » . وهذا من بدیع الأسلوب القرآني في سياق قصصه .

ونلاحظ في قصة نوح — عليه السلام — نوعاً من الموسيقى المتموجة في التركيب . والتي تعيش بنا في جو من المخاطر والأهوال ، وقد رأيت الأسلوب القرآني يسدع في عرض ذلك المشهد بين نوح وابنه الذي يستهين بالصعاب ولا يبالي بالفرق ، وإذا بالقرآن يعرض لمصيره المؤلم ونهايته المفزعة بعد التعبير عن صورة الحوار الذي دار بينهما في إيجاز واختصار من غير اختلال في الوزن ولا اضمحلال في التركيب . وهذا ما استنبطته من خصائص الأسلوب القصصي في القرآن من الميل الشديد إلى الإيجاز بما يعطي المعنى الصائب .

برع القرآن في وصف هذا المشهد على الوجه التالي :

(وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل ، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من

المفرقين (١).

فالتكوين اللفظي والتكوين الموسيقي يشاركان في رسم الهول العظيم بما يؤثر في النفس ، ويصحب هذا التأثير الزجر والوعيد ، ويتكامل الإيقاع في التركيب ، كما نرى في ذلك المشهد .

ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية ، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجرى مجرى الحشو والاعتراض ، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة ، ولو نزع كلمة منه أو أزيلت عن وجهها ثم أدير لسان العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها ، لم يتهيأ ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة وهو سر من إعجازه قد أحس به العرب . لا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزئ واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد به شرط الفصاحة ، لأن لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تساق له الجملة ، وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه (٢) .

من خلال هذا الكلام يتضح أنه من الضروري في مثل نظم القرآن من اختيار معاني الجمل وانزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة ، بحيث لاتند لفظة ، ولا تختلف كلمة ، ثم استعمال أمسها اتصالا بالمعنى وأفصحها في الدلالة عليه وأبلغها في التصوير والأداء .

(١) سورة هود : ٤٢ — ٤٣ (٢) مصطفى صادق الرافعي

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٢٥٥ ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٥٢ م .

ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة ولا تقع لأحد من البلغاء أو الفصحاء مثل ألفاظ القرآن في كلامه وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها ، لأنها في القرآن تتميز وتظهر في تركيب ممتنع فتعرف به ، ولهذا ترتفع إلى نوع أسمى من الدلالة اللغوية والبيانية وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة . ولو أننا تدبرنا ألفاظ القرآن في نظمها لرأينا حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيها هي له من أمر الفصاحة ، ولن نجد هذه الحركات إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ، مساوقة لها في النظم الموسيقي .

وأود أن أضرب بعض الأمثلة إثباتا لهذه الوجوه وتدليلا على صحتها :
نأخذ من ذلك لفظة : (النذر) جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن ثقله على اللسان وخاصة إذا جاءت فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه . ولكنه جاء في القرآن على العكس ولم يعد ثقيلًا على اللسان : (ولقد أُنذِرهم بطشتنا قهارًا بالنذر) (١) .

ونحن إذا تأملنا هذا التركيب لتذوقنا ما فيه من اللغة والبيان من حيث مواقع الحروف ، وتأمل مواضع القلة في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى الواو في (تماروا) مع الفصل بالمد ، كأنها تثقل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها

والراء ترددت مرتين في كلمتين متواليتين ، فالراء في (تماروا) جاءت لمساندة الراء في (نذر) (١) .

وقد تتبعت أمثلة أخرى من الألفاظ ، فرأيت أن القرآن يتقن انتقاء اللفظة ، ويحرص على أن تكون سائغة في التركيب ، وقد يكون لهذه اللفظة مرادفات عدة ، ولكنه يؤثر الإتيان باللفظة التي يكون معها إصابة المعنى . من ذلك ما جاء في قصة موسى مع فرعون في قوله تعالى : (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين) (٢) .

فقد عبر القرآن بلفظة (الطين) ولم يذكر (الآجر) إذ ليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرهما نافر لا يصاح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن .

وإن كانت هذه اللفظة (الآجر) قد استعملها فصحاء العرب إلا أن القرآن أخرج معناها ومرادفها وآثر أن يجعله في سياق الآية لرفقتها وخفتها ولا يخفى علينا موقع القلة التي هي في الدال من قوله (فأوقد) وما يتلوها من رقة اللام .

والتركيب في الآية — كما أرى — يرمي إلى تحقير شأن فرعون وتسفيه رأيه ووصف ضلاله ، وعبر بالإيقاد على الطين تمكينا على فرعون لأن البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية ، وقد ذكر هذا على سبيل الاستحالة وعدم القدرة في صيغة أسلوب طلبى .

(١) الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ٢٥٨ .

(٢) سورة القصص : ٣٨

ومن أمثلة إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل قوله تعالى : (فأوجس
نفي نفسه خيفة موسى) (١) لأن أصل الكلام أن يتصل بفاعله ويؤخر المفعول
الكن آخر الفاعل وهو (موسى) لأجل رعاية الفاصلة . والتأخير حكمة
أخرى وهي أن النفس تتشوق لفاعل (أوجس) ، فإذا جاء بعد أن آخر
وقع بموقع (٢) .

ومنه قوله تعالى : (ولقد جاء آل فرعون النذر) (٣) فأخر الفاعل لأجل
الفاصلة .

الخروج :

وهو الانتقال من معنى إلى معنى ويسمونه « حسن التخلص » ، وعرفوه
بأنه امتزاج ما يقدمه الشاعر من البسط أمام المدح أو الذم أو غيره من تسيب
أو وصف أو أدب . وقد ذهب بعض المتكلمين إلى أنه أحد وجوه الإعجاز
وهو دقيق يكاد يخفى في غير الشاعر إلا على الحاذق من ذوى النقد ، وهو
مثبت في الكتاب العزيز إذا تتبع وجد كابتداء فصول نجدها منافرة في الظاهر
لما قبلها من الفواصل أو غيرها ، فلا يكاد يجمع بينها إلا بعد إمعان النظر
وتدقيق الفكر (٤) .

قد آثرت أن أضم هذا النوع إلى خصائص الأسلوب القصصى القرآنى

(١) سورة طه : ٦٧

(٢) الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٦٣ ، مطبعة عيسى

اللبابى الحلبي ، ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م .

(٣) سورة القمر : ٤١

(٤) ابن أبى الأصم : بديع القرآن ، ص ١٤٦ ، مطبعة الرسالت القاهرة .

معتبره بدخل في تركيب الكلام وهذا من مستلزمات بحثنا ، ورأيت القرآن وقد جاء وإذا هو يتنقل في عرض قصصه من غرض إلى غرض ومن معنى إلى معنى من غير أن يستعمل شيئاً من هذه الأساليب وإنما يأتي الكلام فيه وبعضه يستدعي بعضاً ، فأخر الآية أو الجملة يطلب ما يليها ويستدعيه فيأتي وفقاً له وينتج من ذلك إحكام الانصال وشدة التداخل مما لا تشهر معه بفرجة أو انتقال ، وهو من أظهر الخصائص .

من أمثلة الخروج ما جاء في قوله تعالى من سورة الإسراء :

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي جادكنا حوله لئريه من آياتنا إنه هو السميع البصير . وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . . (١) .

قد يقال : أي رابط بين الإسراء وقوله تعالى : (آتيناه موسى الكتاب) ؟ فري أن وجه انصافها بما قبلها على هذا التقدير : أطلعناه على الغيب عياناً ، وأخبرناه بوقائع من سلف بيانا ، لتقوم أخباره على معجزته برهاناً ، أي سبحان الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكراً ، وأخبرك بما جرى لموسى وقومه ، لتكون قصتها آية أخرى . أو أنه أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه كما أسرى بموسى حين خرج منها خائفاً يترقب .

ثم ذكر بعده : (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) (٢) .

ليذكر بنو إسرائيل نعمة الله عليهم قديماً ، حيث نجاهم من الغرق ، ذالوا

لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا (*) .

وبذكر القرآن في آيات بعد معنى هذه القصة ، بكلمات قليلة العدد ، كثيرة الفوائد ما اشتمل عليه من الموعظة الجائلة التي تتصل بسياق القصة بقوله :
(إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (١) .

ولم ينقطع بذلك نظم الكلام حتى خرج من ذلك التوجيه إلى قوله تعالى :
(عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) (٢) . يعنى أن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو ، ثم خرج خروجاً آخر إلى حكمة القرآن لأنه الآية الكبرى :
(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين . .) (٣) . وبهذا يظهر الخروج أو حسن التلخيص في الآيات السابقة .

ومثله ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام ، في قوله تعالى :
(واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون : قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . .) (٤) إلى قوله تعالى : (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) (٥) .

(*) قال الباقلاني : أخبرهم أن نوحاً كان عبداً شكوراً وهم ذريته ، والولد سرأبيه ، فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم ، لأنه يجب أن يسروا سيرته فيشكروا ، وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان لما حملهم عليه ونجاهم فيه ، حين أهلك من عداهم به ، وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم ثم عاد عليهم بالإفضال والإحسان حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولد لهم وعمر ذريته .

(١) سورة الإسراء : ٧ (٢) سورة الإسراء : ٨

(٣) سورة الإسراء : ٩ (٤) سورة الشعراء : ٦٩ ، ٧٠

(٥) سورة الشعراء : ٧٢ — ٧٨

أرى أن القرآن قد تخلص من قصة إبراهيم وحواره مع قومه المشركين إلى قوله : (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) والذي يتضح معه تمنى الكفار في الدار الآخرة إلى أن يعودوا مرة أخرى إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول ، وهذا من بديع التخلص الذي يرمز إلى سوء عاقبة المضلّين عن الحق بعد سرد الحوار في قصة إبراهيم إظهارا لجحودهم وإصرارهم على الشرك ، ومن هنا عقب القرآن على هذا وخرج إلى بيان سوء مصيرهم على سبيل الزجر والوعيد كما أراه كذلك .

وإذا عدنا إلى قوله تعالى : « هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟ وجدنا في الآية الكريمة استفهاما يفيد التعجب الإنكارى من حال الكفار ، وقد تحرى فيه إبراهيم الخليل أسلوب الحجة المقنعة لإبطال دعواهم (قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآبائكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين) .. (١)

وذلك أنه لما أراد الانتقال من أحوال أصنامهم إلى ذكر صفات الله تعالى قال : إن أولئك لى أعداء إلا الله ، فانتقل بطريق الاستثناء المنفصل لإبطال مزاعمهم ودحض صورة شرّكهم وإثبات وحدانية الله تعالى .

ونرى في سورة النمل حكاية على لسان « همدد » سليمان :

(إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم

فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (١) .

قد جرى هذا الكلام على لسان « المدهد » رسول سليمان عليه السلام — إلى ملكة سبأ : وحمل المدهد تلك الأخبار عن ملكة سبأ وقومها الذين كانوا يسجدون للشمس من دون الله . وإذا به يغير مجرى الكلام وينتقل إلى هؤلاء المشركين بأن يكفوا عن مظهر الشرك ويخلصوا في عبادتهم لله وحده فخرج الكلام بقوله :

(ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) (٢) وكان المدهد الذي يتكلم بفصيح اللسان يعجب في ذلك الأسلوب من حالهم ، وبوجه أظن الحاضرين إلى أثر العبادة وضرورتها أو يتصور أن هذا الكلام من الممكن أن يصل إلى أسماعهم . وهذا من بديع التلخيص في الآية الكريمة السابقة .

وهكذا نرى سياق القصة يسير على هذا النحو في كثير من مواضع القرآن ولا يخفى علينا أن هذه المعاني وإن انتقلت من موقف إلى آخر ، إلا أنها تعتبر من بديع النظم القرآني وترتب عليها آثار جليسة في النفس بدر كمال حذاق اللغة . وقد ذكرت في سورة الأعراف قصص الأمم الخالية والأنبياء الماضين من عهد آدم عليه السلام إلى أن انتهت إلى قصة (موسى عليه السلام) فقال القرآن في أعقابها :

(واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) (٣) إلى (الذين يتبعون الرسول

(٢) سورة النمل : ٢٥ — ٢٦

(١) سورة النمل : ٢٣ — ٢٦

(٣) سورة الأعراف : ١٥٥

النبي الأُمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل (١) . فقد تدرج القرآن فى هذه السورة من الحديث عن موقف الأمم السالفة من دعوة أنبيائهم ورسالاتهم إلى قصة موسى إلى الدعوة نحو تصديق النبي ﷺ وأتباعه والافتداء به ، وهو من حسن التخلص أيضاً .

وحيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له ، ومن بدية قوله تعالى فى قصة يوسف — عليه السلام :

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) (٢) .

يشير الى قصة يوسف عليه السلام . فوطأ بهذه الجملة الى ذكر القصة ، يشير اليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز . وكقوله تعالى موطئاً للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح عليه السلام :

(إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله مميح عليهم) (٣) ، ثم دخل بعدها فى سياق القصة بقوله : (إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى) . (٤) ومن ذلك قوله تعالى فى قصة إبراهيم مع النمرود :

(ألم تر الى الذى حاج إبراهيم فى ربه) ، إلى قوله تعالى : (والله لا يهدى للقوم الظالمين . أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) عطف قصة على قصة ، مع أن شرط العاطف المشاكلة ، فلا يحسن فى نظير الآية (ألم تر الى ولبك) ، (أو كالذى مر) ووجه ما بينها من المشابهة أن (ألم تر) بمنزلة : هل

(١) سورة الاعراف : ١٥٦ (٢) سورة يوسف : ٣

(٣) سورة آل عمران : ٣٣ — ٣٥ (٤) سورة البقرة : ٢٥٨ ، ٢٥٩

رأيت كالذى حاج إبراهيم؟ وإنما كانت بمنزلتها لأن (ألم تر) مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي ولذلك يحاج بيلى، والاستفهام يعطى النفي، إذ حقيقة المستفهم عنه غير ثابتة عند المستفهم، ومن ثم جاء حرف الاستفهام مكان حرف النفي، ونفى النفي إيجاب، فصار بمثابة « رأيت » غير أنه مقصود به الاستفهام، ولم يكن يؤتى بحرفه لوجوده فى اللفظ، فلذلك أعطى معنى: هل رأيت؟ وقد جرى إلى مع أن (رأيت) يتعدى بنفسه لتضمنه معنى « تنظر » (١).

وقد لاحظت من أمثلة نظوم القرآن الأخرى فى مرد القصص أن الكلمة قد تجيء فى الآية كأنها فى الظاهر معها، وهى فى الحقيقة غير متصلة بها:

من ذلك قوله تعالى فى قصة سليمان على لسان بلقيس: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) (٢).

فقوله تعالى: (وكذلك يفعلون) من قول الله جل وعلا، لا من قول المرأة.

ومنه ما جاء فى قصة يوسف على لسان امرأة العزيز: (الآن حصص الحق، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) (٣) وانتهى قول المرأة، ثم قال يوسف: (ذلك ليعلم الملك أنى لم أخنه بالغيب) (٤) وإن كان السياق يخيل

(١) السيوطى: الإتيان فى علوم القرآن، ج ١، ص ٤٦. ط. مصطفى

الباب الحلبى ١٩٥١ م — ١٣٧٠ هـ.

(٣) سورة يوسف: ٥١

(٢) سورة النمل: ٣٤

(٤) سورة يوسف: ٢

الينا أنه من قول المرأة . ومنه قوله تعالى على لسان الكفار : (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (٢١) .

وندرك من خلال العرض السابق لهذه النظم أن الأسلوب القصصى القرآنى يتميز بخصائص معينة تتكشف للباحث الدقيق ومنها يستطيع أن يقف على أسرار اللغة وما يتبعها من إجادة فى البيان ودقة فى النسق القصصى كما يتبين لنا ، وهذا ما أردت أن أفق عليه فى هذا الفصل ولعلى أكون قد أصبت الهدف المروم . وزيادة فى الإيضاح أود أن أشير إلى ما ذكره القرآن الكريم عن أصحاب الكهف ، ولنتظر إلى استهلال قصتهم بقوله تعالى : (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) (١) فلفظة إنهم قد جمعت بين الإيغال فى الماضى والحضور فى الزمن ، فلا بداء بضمير الغائب يشدنا من أقصى الحاضر إلى أقصى الماضى وإذا بنا نرى هؤلاء المتحدث عنهم فى حالتهم التى هم عليها : (فتية آمنوا بربهم) . ولما كان البيان القرانى يرى أن الموقف يحتاج إلى إبراز ما هم عليه من هدى استبدل كلمة (هدى) بكلمة (إيماناً) فى قوله تعالى : (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) . ثم نتأمل فى كلمة (قاموا) من قوله تعالى : (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا . .) نجدها تعنى بدء العمل وتعنى الثبات على الأمر والتفانى فى الإخلاص وتوحى بعلو الهمة والحيوية الزائدة وتعنى الاعتدال والاتزان ومن ثم وقعت الكلمة فى موقعها المناسب ، وكان من الممكن أن يكتفى بقوله (وربطنا على قلوبهم فقالوا) ولكنه أتى بها لما توحى به من الدلالات التى ذكرتها . والآية فى جملتها توحى بكونهم محتاجين من الله أن يثبتهم ويعطمئهم ويربط على قلوبهم .

وانتظر في جواب الأمر في قوله تعالى : (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) (١) .

ولنتمعن في تلك المقابلة بين الإيواء إلى الكهف ونشر الرحمة ، نجد الثقة والطمأنينة إلى رحمة الرب سبحانه ، ففي الوقت الذي يطلب منهم فيه أن يأووا إلى الكهف الضيق المظلم يمسح عنهم كل معاناة من جراء ذلك ، فيترتب على ذلك الضيق وجود السعة والبجوحة والاستظلال في رحمة الله المنشورة .

وفي قوله تعالى ، (ليتساءلوا بينهم) يوهم أنهم بعثوا للتساؤل وليس كذلك بل بعثوا لما هو أعم وأهم من التساؤل ، لكن الذي حدث هو أنهم حين بدأوا يتنبهون ترددت التساؤلات من واحد إلى آخر إيماء إلى طول المكث وشعورهم بأنهم استغرقوا في نومهم أكثر مما قدروا .

وهكذا نجد في النسق التعبيري الدقة والإحكام ، ونجد الإيماء والتخييل كما نجد الصديق في إنطاق الأشخاص وتصوير انفعالاتهم ، إلى غير ذلك مما تتميز به للبيان القرآني وأسلوبه الرفيع في عرض قصصه المحكم .

لغة القصة والاعجاز القرآني :

نستطيع بعد هذا العرض لأمثلة من البيان في بعض الأمثلة القصصية أن نشير إلى وجه آخر للأثر اللغوي ومساهمته الفعالة في نظرية الإعجاز القرآني، وقد رأيت كيف يحرص القرآن الكريم على حسن انتقاء الألفاظ وصياغتها الباهرة ووضعها في مكانها اللائق، وهذا ماسبق أن تبيناه عند عرضنا لبعض خصائص الأسلوب القصصي القرآني تحت مضمون : « إصابة المعنى ». وأود في هذا المصدد أن أعرض لمثال آخر في ضوء بيان الأثر اللغوي الذي يقوم عليه الإعجاز القرآني، وأقصد بالذات ذلك المشهد الرائع الذي ورد في نهاية قصة نوح من سورة هود :

يقول الله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » (١) .

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عدد من الألفاظ الموحية التي يدل كل لفظ منها على عظمة الخالق جل وعلا، ومن خلال هذه الألفاظ تمكشف لنا قيمة للنسق الفني والانسجام بين العبارات . وقد بنى الفعل للمجهول في قوله : « وقيل » إشارة إلى أن الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من في الكون . . .

وأوثر في نداء الأرض « يا » دون الهمزة كما أوثر تنكير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها فالمقام هنا يستدعي التصغير، لأنها ماثلة أمام القوة العليا التي تتضاءل دونها قوى الطبيعة، ويستدعي أيضا الإصرار

جلبية الأمر (١).

ونجى. كلمة « ابلعي » مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها، وهو أن تبتلعها في سرعة سريعة بل في غمضة عين (٢).

وإذا عدنا إلى تلك الألفاظ : « قيل ، ابلعي ، غيض ، استوت » ... الخ نستشعر عظمة الخالق جل وعلا ، وندرك أنه قد تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم العلوى والعالم السفلى إلا هو . ونلاحظ في ندائه للأرض والسماء أن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها ولا يستعصى ذلك على الحق جل وعلا الذى يتحكم في زمام هذا الكون وبالتالي تنقاد إلى أمره باعتباره المستولى عليها المتصرف فيها بوسع قدرته [وعظيم إرادته .

قال فخر الدين الرازى : إن السماء والأرض من الجمادات ، فتوله : (يا أرض ويا سماء) مشعر بحسب الظاهر على أن أمره وتكليفه نافذ في الجمادات ، وليس المراد أنه تعالى يأمر الجمادات فذلك باطل ، بل المراد أن توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر في الوهم نوع عظمتة وجلاله تقريراً كاملاً (٣).

(١) د . فتحي أحمد عامر : فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) د . أحمد أحمد بدوى : من بلاغه القرآن ، ص ٥٥ ، مكتبة نهضة

مصر .

(٣) الإمام فخر الدين الرازى : مفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير ،

ج ٥ ، ص ٦٢ ، المطبعة الخيرية ، سنة ١٣٠٨ هـ .

وأما قوله : « وقضى الأمر » فالمراد أن الذي قضى به وقدره في الأزل قضاء جزما حتماً فقد وقع تنبئها على أن كل ما قضى الله تعالى فهو واقع في وقته وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه في أرضه وممائه » (١) .

ولا يخفى علينا — إلى جانب من ذكر — أن كلمة « غيض » توحى بالسرعة الباهرة ، وكأن الأمر قد تم في لحظة عين ، وفيها من الفصاحة والبيان ما هو ظاهر أمام العيان ، واختيرت كلمة « استوت » دون « رست » لما في الاستواء من معنى الثبات والاستقرار التام وهي أبلغ في الدلالة والتصوير ولما فيها من معنى الاطمئنان والسلامة .

ونلاحظ في تلك الجمل القرآنية أنها قصيرة ، تتسم بالإيجاز الشديد ولكنها تأتي في مضمونها بدلالات رائعة تتجلى معها صورة الإعجاز وهي من خصائص أسلوب القصة في القرآن الكريم .

قال الشوكاني : وقد أطبق علماء البلاغة ، على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الأقدام في علم البيان المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها (٢) .

الهدف البياني من ذكر الكلمة في القصة :

من الخصائص التي يتميز بها الأسلوب القصصي القرآن أنه يؤثر في بعض

(١) السابق نفسه .

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ ، مطبعة مصطفى البابي

قصصه ذكر كلمة أو اقتباس من لغة البيئة نفسها ، ليصور للقارىء البيئة والمجتمع واللغة وحتى كثيرا من العادات والأخلاق والتقاليد . والكلمة الأجنبية كثيرا ما تجرى على لسان شخصية من شخصيات القصة ، وأود أن أشير إلى بعض تلك الكلمات التي بتحقيق معناها الهدف البياني للقصة القرآنية وتدل على البيئة ومواقع الأحداث :

١ — من ذلك قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : (وقالت هيت لك) (١) . على لسان امرأة العزيز ، فهذه اللفظة التي جرت على لسانها ليست عربية ولكنها مستوحاة من البيئة الفرعونية القديمة ، حيث كانت تدور أحداث القصة ومعناها بالسريانية :

« أنا ملك لك » . . . وقد روى عن ابن عباس والحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها (٢) . قال أبو عبيدة كان الكسائي يقول : هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها : تعال ، قال أبو عبيدة : فسألت شيخا عالما من حوران فذكر أنها لغتهم (٣) . فالأصل في هذه الكلمة أنها من البيئة المصرية القديمة حيث كانوا يتحدثون باللغة القبطية ، وقيل أنها بالعبرانية هياخ أى تعال عربى القرآن . قال ابن الأنباري : أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى بكة فتكلموا بها ، وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم في القسطاس ، ولغة العرب والفرس في السجيل ولغة العرب والترك في الفساق ولغة العرب والحبيشة في فاشنة

(١) سورة يوسف : ٢٣ .

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ص ١٥ .

(٣) السابق نفسه .

الليل (١) . وقال سبحانه : (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب) (٢) .

سيدها : ليست هذه اللفظة في كلام العرب ومعناها زوجها بلسان القبط ، لأن القبط يسمون الزوج سيداً .

قال الشوكاني : وإنما لم يقل سيدها ، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً . (٣) .

وورد في نفس القصة : (قالوا تفقد صواع الملك ولسن جاء به حمل بعير) (٤) في لغة بعض العرب أن البعير هو الحمار وقيل هو الجمل (٥) . وعن مقاتل أن البعير كل ما يحمل عليه بالعبرانية .

٢ — وفي قصة موسى عليه السلام يقول تعالى : (إذ أوحينا إلى أمك مابوحى . أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل) (٦) . أى اطرديه في البحر ، واليم بالسريانية البحر أو النهر الكبير .
وقال سبحانه على لسان موسى عليه السلام :

(١) تفسير نحر الدين الرازى ، ج ٦ ، ص ١١٥ .

(٢) سورة يوسف : آية ٢٥ .

(٣) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٤) سورة يوسف : آية ٧٢ .

(٥) الجواليقي : العرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم ،

ص ١٥٩ .

(٦) سورة طه : ٣٨ ، ٣٩ .

(وتلك نعمة تمنها على أن عبت بنى إسرائيل) (١) .

قال أبو القاسم : عبت بنى إسرائيل معناه قتلت بلغة القبط (٢) .

٣ — وقال في قصة داود عليه السلام : (يا جبال أوبي معه) (٣) .

فكلمة (أوبي) ليست عربية خالصة ، وإنما هي بلسان الحبشة بمعنى التسبيح ، ومعنى تسبيح الجبال تسخيرها له وجعلها قادرة على ذلك معجزة لداود عليه السلام .

وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن ابى أسحق أوبي بضم الهمزة أمراً من آب بثوب إذا رجع : أى ارجع معي (٤) .

٤ — وقال في قصة سليمان عليه السلام : (فلما قضينا عليه الموت مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) (٥) .

فلفظة (المنسأة) العصا بلغة الحبشة ، وقرأ الجمهور منسأته بهمزة مفتوحة وقرأ ابن ذكوان بهمزة ساكنة ، قال المبرد : بعض العرب يبدل من همزتها ألفاً وأنشد : إذا دببت على المنسأة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل (٦) . والأرجح أنها باللغة اليونانية ، لأن « منسأة » فيها بمعنى العصا الطويلة .

(١) سورة الشعراء : آية ٢٢ .

(٢) السيوطي : الانتقان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

(٣) سورة سبأ : آية ١٠ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٢ / ٤٦ ، دار المعارف بمصر سنة ١٣١٠ هـ .

(٥) سورة سبأ : آية ١٤ .

(٦) الشوكانى : فتح للتدبير ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ .

قال الزجاج : المنسأة التي ينسأ بها أى يطرد ، أو اسم آله من نسأه أى
أخره كالمكسحة والمكنسة (١) .

٥ — وقال سبحانه في قصة نوح : (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور
قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ..) (٢) .

عن ابن عباس : التنور وجه الأرض أى صارت الأرض عيوناً تنور ،
حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار ، صارت تنور ماء (٣) .

والأرجح في رأبي أن لفظة (التنور) ليست عربية الأصل ، ولكنها اسم
مما عربته العرب ، ومعناه في الآية التمثيل بحضور العذاب .

قال ابن دريد : التنور فارسي معرب لا تعرف له العرب اسماً غير هذا ،
لذلك جاء في التنزيل لأنهم خوطبوا بما عرفوا (٤) .

وفي قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء
وقضى الأمر) (٥) . أخرج ابن أبي حاتم عن وهيب بن منبه في قوله تعالى :
(ابلعي ماءك) معناه بلسان الحبشة ازدرديه (٦) .

قال أبو القاسم : غيض نقص بلسان الحبشة (٧) .

(١) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ ، مطبعة عيسى البسابي
الجلبي بمصر . (٢) سورة هود : آية ٤٠ .

(٣) تفسير الطبري : ٣١٨ / ١٥ .

(٤) الجواليقي : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ،

ص ٣٩ ، المطبعة المسيحية ، سنة ١٨٩٧ م (٥) سورة هود : آية ٤٤ .

(٦) السيوطي : الإقتان في علوم القرآن : ج ١ ص ٣٩ .

(٧) السابق نفسه .

٣ — وقال في قصة موسى والخضر عليها السلام :

« وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما » (١) .

ذكر المفسرون أن « الكنز » كان لوحا من ذهب مصمت ، مكتوبا فيه :
بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن عرف النار ثم ضحك ! عجبت لمن أيقن
بالقدر ثم نصب ! عجبت لمن أيقن بالموت ثم أمن ! أشهد أن لا إله إلا الله ،
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (٢) .

والأرجح أن كلمة (كنز) فارسية معربة ، واسمها بالعربية مفتوح ، كما
ذكره الجواليقي (٣) .

٧ — وقال سبحانه في قصة مريم عليها السلام :

(فتأداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا) (٤) .

فكلمة (سريا) معناها النهر الصغير بالسريانية ، وذكر قتادة أنها النهر الصغير
بالنبطية .

والسرى تطلق في العربية على العظيم من الرجال ، ومنه قولهم فلان
سرى : « أى عظيم » ، ومن قوم سراة : « أى عظام » (٥) . والأرجح
هنا أنها بمعنى الجدول أو النهر الصغير بالسريانية كما أشرت إليه آنفا وهو

(١) سورة الكهف : آية ٨٢ .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ١٨٣ ، ط .

الشعب . (٣) الجواليقي : المعرب من الكلام الأعجمي ، ص ١٣٣ .

(٤) سورة مريم : آية ٢٤ .

(٥) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ص ٣١٨ .

«اللعنى المناسب لمضمون الآية الكريمة ، لما أراد الله تعالى من كرامة مريم عليها السلام وإظهار عظيم فضلها على نساء العالمين .

٨ — فى قصة شعيب عليه السلام : (وزنوا بالقسطاس المستقيم) .
أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : القسطاس بلفة الروم الميزان (١) .
وقيل القسطاس العدل بلفة الروم .

٩ — فى قصة أصحاب الكهف : (أم حسبت أن أصحاب الكهف
بالرقم كانوا من آياتنا عجبا) (٢) .

قال كعب والسدى أن الرقيم هو اسم القرية التى خرج منها أصحاب
الكهف ، وقال سعيد بن جبير ومجاهد أنه لوح من حجارة أو رصاص
رقت فيه أسماءهم جعل على باب الكهف (٣) .

وورد فى كتاب الإتيقان : أن الرقيم معناه اللوح بالرومية (٤) .

وهكذا يتبين لنا من خلال تلك الأمثلة القصصية السابقة أن القرآن
الكريم يؤثر ذكر كلمة أجنبية فى سياق الأحداث القصصية على سبيل
الاستئناس والتنويه بلفة البيئة التى تجرى فيها أحداث القصة ، فيكشف
للقارئ عن مزايا عديدة تتصل بتلك البيئة وأهلها وينقل جانبا من أخلاقهم وعاداتهم
فى ظل تلك الألفاظ المستوحاة من مجتمعهم ، وهذا جدير بأن يعطى للأسلوب
القصصى القرآنى ميزة فاضلة تتكشف للقارئ البصير .

(١) السيوطى : الإتيقان فى علوم القرآن ، ج ١ ص ٣٨ .

(٢) سورة الكهف : آية ٩ .

(٣) الشوكانى : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ .

(٤) السيوطى : الإتيقان فى علوم القرآن ، ج ١ ص ٣٩ .

التصوير في القصة القرآنية

تجلى مظاهر الإعجاز القرآني في طريقة التصوير عند عرض القصة الواحدة ، والتعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر ، وقد لاحظت أن القرآن في عرضه لتلك المشاهد يتحرى الدقة التامة في انتقاء الألفاظ ، ورسم الشخصيات وإبراز الحوار القصصى في صورة رائعة وكأنا نستمع إليه وقت قراءتنا للأحداث القصصية .

والتصوير له ألوان عديدة في مشاهد قصص القرآن ، وتباين هذه الألوان تبعاً لموقعها من البيان القرآني ، فلون يبدو في قوة العرض والأحياء ، حق ليظن المشاهد حاضراً يحس ويرى ، وهذا واضح جداً في قصة أصحاب الكهف فبينما نجدهم يتشاورون في أمرهم بعد ما اهتمدوا إلى الله بين قوم مشركين إذا بالمشهد ينتهى إلى هنا كما عبر عنه القرآن الكريم .

قل الله تعالى :

(إنهم فقية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذا شطاطاً ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فنأظلم من افترى على الله كذباً ، وإذا اعتزلتهم وهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً) (١) .

بهذا ينتهى المشهد ، ويسدل الستار ، فإذا رفع الستار مرة أخرى وجدناهم قد تفذوا ما استقر عليه رأيهم ، فهام أولاء في الكهف نراهم أمامنا رأي

العين : (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) (١) . وكلمة (ترى) فيها إيحاء بالروعة وإثارة الانتباه ، وما أجل هذه اللفظة (تزاور) التي تعطي معنى حركة الشمس ونصور مدلوها بوقوعها في موضعها . فهي حركة متماوجة أبدع التصوير في إظهارها . ثم لننظرهم (وهم في فجوة منه) فالألفاظ تؤدي دوراً كبيراً في هذا المشهد ، فنقل هيئتهم وحركتهم كأنما تشخص وتتحرك على التوالي :

(وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلهم بأسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) (٢) .

وما أجل أن تجمع الآية للتضاد بين (أيقاظاً) و (رقود) ، ونرى الألفاظ تضطلع بالتصوير والحركة في كل هذه السهولة . وحين تدب فيهم الحياة ننظرهم ونسمعهم كأنهم أشخاص أمامنا يتحدثون ويتشاورون : (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعدوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً ، إنهم إن يظنوا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذن أبداً) (٣) . جمعت هذه الصورة الرائعة بين أساليب الخير والإنشاء ، من تعليل وحكمة واستفهام وتعجب فغابت عليها قوة التصوير والأحياء ، والحوار

السابق في مضمونه موجز للغاية كما نراه ، ولكنه جمع إلى جانب الإيجاز دقة الوصف والتثام الجمل بما يحقق أسمى أغراض هذه القصة .

وهناك لون آخر من ألوان التصوير يبدو في تصوير العواطف والالتفات وإبرازها ، وشاهد اللون قصة مريم عند ميلاد عيسى عليه السلام ، وقد سبق أن عرضت لها في الحديث عن تنوع طريقة العرض ، وإذا ذكرناها نشير إلى العاطفة الأنثوية لدى مريم في دفاعها عن عرضها ، وقد نزل عليها الروح الأمين يخبرها أنه سيب لها غلاماً ذكياً فتقول : (أنى يكون لى غلاماً ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً) (١) .

هكذا صراحة بالألفاظ المكشوفة فهي والرجل في خلوة ، والغرض من مفاجأته لها صار مكشوفاً وما يخفف من روعة الموقف أن يقول لها : (إنما أنا رسول ربك) فقد تكون هذه خدعة فانتك أو حيلة ناهب . فالحياة إذا ليس مجدياً والصراحة هنا أولى : (قال كذلك ، قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً) (٢) . هنا نجد فجوة من فجوات القصة ، فجوة فنية كبرى تترك للخيال يتصورها ثم تمضى القصة في طريقها لثرى هذه العذراء المسكينة في موقف آخر أشد هولاً : (حملته فانتذبت به مكاناً قصياً ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) (٣) . ونكاد هنا نرى ملاحظتها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها ، فهي تخشى الفضيحة إلى جانب ما تواجهه من الألم الجسمى الحاد الذى (أجاءها) إلى جذع النخلة (٤) .

(٢) سورة مريم : آية ٢١

(١) سورة مريم : آية ٢٠

(٣) سورة مريم : ٢٢ — ٢٣

رسم الشخصيات في القصة :

يأتى رسم الشخصيات في القصة القرآنية كلون من ألوان التصوير ،
ولست أقصد من هذا الجزء الإفاضة في رسم كل الشخصيات ، ولكننى سأناول
تحليلاً لبعض الشخصيات البارزة .

ومن هذه الشخصيات شخصية — موسى عليه السلام — الذي هو
نموذج للزعيم الشديد ، ولا أدل على ذلك من وكزه القبطى وقضائه عليه ،
ولكن سرطان ما تذهب هذه الشدة فيعود إلى نفسه شأن الأقوياء : (قال هذا
من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) (١) . ولكنه خائف مترقب هيئة المتلفت
الذى يتوقع الشر فى كل لحظة بسبب خوفه ، وبرغم أنه تاب فى المرة الأولى
فقد أوشك أن يعيد الكرة مرة أخرى لولا أن الرجل تدار كقائلا : (يا موسى
أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى
الأرض وما تريد أن تكون من المصالحين) (٢) فيرجع عن اندفاعه ويرحل
عن المدينة . فتلك شخصية بارزة ونموذج إنسانى واضح فى كل مرحلة من
مراحل القصة .

وإذا أردنا شخصية مقابلة لشخصية موسى نرى شخصية إبراهيم —
عليه السلام — فهو نموذج الهدوء والتسامح والحلم . وما أصدق القرآن فيه :
(إن إبراهيم لحليم أواه منيب) (٣) . ونرى حلم إبراهيم الغالب بسبحود
عليه وبصبره حناناً ورحمة على أبيه ، فينصحه قائلاً : (يا أبت إنى قد جاءنى
من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن

(٢) سورة القصص : آية ١٩

(١) سورة القصص : آية ١٥

(٣) سورة هود : آية ٧٥

الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إنى أخاف أن يمكك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً (١) .

ويمكن السر في تكرار هذا النداء المنبعث من أعماقه في الحرص الشديد على أن يوجه أباه إلى وجهة التوحيد وهي خير وجهة، ولكن أباه ينكر عليه ذلك ويغفل له في القول ويهدده تهديداً بقوله : (قال : أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجنك وأهجرني ملياً) (٢) . وأسلوب الاستفهام في الآية يحمل معنى الإنكار والتعجب ويدل على اللوم والتقريع ، ويتبعه القسم الجاحد الذى يصر فيه أبوه على البطش والهجران إن لم يغب إبراهيم إلى دين آبائه وأجداده . وإذا تتبعنا هذه الشخصية بالفحص الدقيق رأينا أنها لم تلق بالالفة الحملة الشعواء بل ظلت محتفظة بمحملها الزائد من غير اختلال ، وهذه الطبيعة التى جبل عليها إبراهيم الخليل أهله لأن يكون صديقاً نبياً فقال : (سلام عليك ، سأستغفر لك ربى إنه كان بى خفياً ، وأعترلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدطاء ربى شقياً) (٣) . ثم هاهو يحطم أصنامهم — ولعله العمل الوحيد العنيف الذى يقوم به — وإنما تدفعه إلى هذا رحمة أكبر ، فعسى أن يؤمن قومه إذا رأوا آلهتهم جذازاً ، وعلموا أنها لا تدفع عن نفسها الأذى ، ولقد كادوا يؤمنون فعلاً : (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون) (٤) ولكنهم مادوا فهموا بإحراقه ، وحينئذ : (قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) (٥) .

(٢) سورة مريم : آية ٤٦

(٤) سورة الأنبياء : آية ٦٤

(١) سورة مريم : ٤٣ — ٤٥

(٣) سورة مريم : آية ٤٧

(٥) سورة الأنبياء : آية ٦٩

ويوسف — عليه السلام — إنه نموذج الرجل الواعي الحصيف ، فهاهو
 إذا يلقي العنف من مراودة امرأة العزيز له فيأبى وينتصر في النهاية على الإغراء ،
 ويملك نفسه في الموضع الذي تنهاوي فيه الإرادة ، وهنا تبرز المرأة في حالة من
 أنكر حالاتها ، وفي دفعة من دفعات غريزتها : (واستبقا الباب وقدت قميصه
 من دبر) (١) . وتقع المفاجأة المذهلة : (وألفيا سيدها لدى الباب) (٢) . وهنا
 تدرك المرأة غريزتها أيضاً فتجد الجواب حاضراً ، إنها تنهم الفقى ، قالت .
 (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) (٣) . ولكنها امرأة تعشق فهي تخشى عليه
 الهلاك والتزل ، فسارت بالعقاب المأمون (إلا أن يسجن أو هذاب أليم) (٤)
 ويظهر الرجل الحصيف الذى دخل السجن ظمأً حين يفسر الرؤيا المنامية للملك
 وتظهر براءته بعد أن يتبين الحق واضحا على لسان امرأة العزيز نفسها :
 (الآن حمص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) (٥) .

فإذا رأى أنس الملك به وارتياحه لتأويله ، وسمع منه قوله : (إنك اليوم
 لدينا مكين أمين) (٦) لم يدع الفرصة تذهب بل (قال : اجعلنى على خزائن
 الأرض ، إنى حفيظ عليم) (٧) فيجاب إلى طلبه فى أنسب الظروف .

وقد تجلت العبقرية الفذة فى شخصية يوسف عليه السلام بعد أن أحسن
 التصرف فى سنى الخصب والجذب التى أصابت البلاد ، فقد أشرف على المالية
 والتموين خمس عشرة سنة ، لا على تموين مصر وحدها ، بل على تموين البلاد

(٢) سورة يوسف : آية ٢٥

(٤) سورة يوسف : آية ٥٤

(٦) سورة يوسف : آية ٥٤

(١) سورة يوسف : آية ٢٥

(٣) سورة يوسف : آية ٥١

(٥) سورة يوسف : آية ٥١

(٧) سورة يوسف : آية ٥٥

القرية المجاورة ، التي أجذبت كذلك ، ثم إذا جاء إخوته فعرفهم وهم له منكرون ، جعل حصواه منهم على أخيه ثمنا لحصوله على القوت ، فإذا جاءوه وأرادوا احتجازه : (جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون) (١) . فإذا أنكروا السرقة وطلبوا تفتيشهم وأخذ من تظهر الكأس في أمتعه ثمنا للكأس تبذت الحصافة :

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) (٢) وتركمهم يعودون بدونه ، ثم يرتدون بأوعيتهم اليه فيكشف لهم هذه المرة عن نفسه بعد أن يلقي عليهم هذا الدرس وبعد أن يحملهم تلك المشقة ، وهذه كلها تصرفات الرجل الواعى الحصيف .

مزايأ أخرى للقصص الديني :

تبدو الصبغة الإسلامية واضحة في ذكر الآيات التي يستدعى وجودها سياق الحكاية مما يدل على أن الحكاية وضعت خاصة لتفسير الآيات القرآنية ، وإذا كان القصص قد أسهموا في تفسير هذه القصص وعرضها كما فعل الثعالبي في كتابه (عرائس المجالس) والكسائي في كتابه (قصص الأنبياء) فإن من ذلك تمجيد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذكره بين أنبياء التوراة وتقديمه على جميع الأنبياء ورفع شأنه وآله ودينه . وللصبغة الإسلامية في القصص الديني لون بارز في ذكر يوم الجمعة كأنه أعظم الأيام لأنه تجرى فيه أعظم الأمور وأهم الأحداث ففي يوم الجمعة استتمت الروح في جسد آدم خمسمائة عام عند

(١) سورة يوسف : ٧٠ .

(٢) سورة يوسف : ٧٦ .

زوال الشمس وسجد جميع الملائكة لآدم في يوم الجمعة ، وبقوا في سجودهم إلى العصر فجعل الله ذلك اليوم عيدا لآدم ولأولاده إلى يوم القيامة ، وكما يخلق الله آدم يوم الجمعة فهو يقبض روحه في يوم الجمعة أيضا (١) : ويأمر الله الملائكة أن تحمل البيت الحرام إلى السماء وذلك في يوم الجمعة ، وفي يوم الجمعة يولد أكثر الأنبياء كإبراهيم وإسحاق وغيرهما .

ويرى يوسف رؤياه في ليلة الجمعة ، وعندما يعلم أبوه يعقوب بوجود ابنه يوسف في أرض مصر يأتي إليه مع كل آله ويدخلون أرض مصر يوم الجمعة (٢) .

وموسى يتأفف من الموت ، ثم يعود فيرضى به على أن يطلعه ربه على الساعة التي يقبضون فيها روحه فيخبره بأنه متوفاه في يوم الجمعة (٣) . ويدخل يشوع بن نون مدينة أريحا مع جيشه يوم الجمعة (٤) . وبكلمة واحدة تقوم الساعة وقت الضحى يوم الجمعة (٥) .

وهناك تفاصيل كثيرة غير التي مر ذكرها تظهر هذا القصص الديني في أجل مزاياه وقد اصطبغ بالروح الإسلامى ، وعندما قبل الله توبة آدم عليه السلام أرسل الملاك جبريل قائلا : اذهب وحيه منى بالإسلام ، ويحمل جبريل

(١) الكسائى : قصص الأنبياء ، ص ٢٧ ، ط . ليدن ، ١٩٣٥ م .

(٢) الكسائى : المرجع السابق ، ص ١٥٧

(٣) الكسائى : المرجع السابق ، ص ٢٤٠

(٤) الكسائى : المرجع السابق ، ص ٣٠٩

(٥) الكسائى : المرجع السابق ، ص ١٥٠

الكلمات من الله لآدم فإذا هي بعض الآيات القرآنية . أما أنبياء العهد القديم كإبراهيم وإسحق وداود وسليمان فهم كلهم مسلمون والنبي إسحاق يخر ساجداً لله ويرفع يديه إلى السماء بإشارة التوحيد وهي إشارة الإسلام (١) .

والحقيقة التي تبدو لنا أن كلمة (مسلم) تفيد معنى خاصاً في هذه الروايات المذكورة وفي القرآن الكريم ، فعندما جاء يوسف يشكر الله تعالى معلناً نعمته عليه ، دعا الله تعالى أن يتولاه في الدنيا والآخرة وأن يتوفاه مسلماً أى مطيعاً مخلصاً لله ؛ غير خاص ولا آثم (٢) . وكذلك كان موقف الحوار بين أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام :

قال تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) (٣) وهكذا يصطبغ التخصيص الديني بالروح الإسلامي كما ذكرت .

وقد لاحظنا من مزايا القصة القرآنية إلى جانب ما ذكر ما يأتي :

١ — عدم التحديد في ذكر الأسماء والحوادث .

٢ — الإخلال في ذكر الأسماء الأصلية في القصة وبالتالي في ذكر الأسماء الثانوية .

(١) الكسائي : قصص الأنبياء ، ص ١٥٠

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، ص ١٧٣ ، ط ٠ القاهرة .

(٣) سورة آل عمران : آية ٥١

٣ — عدم الدخول في تفاصيل حتى لا تتعرض القصة للشك أو تكون عرضة للتفكك .

٤ — الإيجاز الشديد في عرض الأحداث القصصية بما يعطى المعنى الصائب مع الجزالة والدقة في صياغة الألفاظ واستخدام الأساليب وهذا ما قد نبيناه آنفا .

٥ — الاستئناس أحيانا بلفظة من البيئة التي تجري فيها أحداث القصة ، وذلك ينقل القارئ أو السامع زمنيا ومكانيا فتتضح الصور وتتجسم الأحداث .

الفصل الرابع

التكرار وأثره في لغة القصة القرآنية

التكرار وأثره في لغة القصة القرآنية :

وقعت في القرآن الكريم صور من التكرار اللغوي لبعض الجمل أو الكلمات أو الأحداث ، كالقصص ونحوها . وبعض هذا التكرار يمر دون أن يحد منه القاريء أو السامع شيئا يلفت به إليه ، إذ يقع التكرار على نحو ما لوفى للأذن على ما جرت به الأساليب البيانية في اللغة وذلك كأن يتكرر اللفظ أو الجملة لغرض التوكيد كقوله تعالى :

(كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم)^(١) وهذا الأسلوب معمول للزجر والردع كما يدل عليه سياق الآيات وأتبعها بالتوكيد في الفعل بقوله (لترون الجحيم) وكقوله تعالى : (الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة)^(٢) .
يتمثل هذا التكرار لا يجسا به حاسة السمع بجديد لم تألفه الأذن من إعادة الجملة أو بعض أجزائها بصورة كاملة أو بتغيير بعض حروفها أو حرركاتها ، فذلك مما وقع كثيرا في أساليب الخطاب في لغتنا العربية^(٣) .

وقد أردت أن أبين في هذا الجزء أمثلة من التكرار في سور القرآن الكريم وأتعرّف على أسرار هذا التكرار ثم أنتقل إلى استنباط الحكمة من تكرير بعض قصص القرآن وكيف أن هذه القصص تتميز في أسلوبها التكراري عن غيرها من السور التي قد يدخلها التكرار وذلك بطريق المقارنة ، ثم إلقاء الضوء على

(١) سورة التكاثر : ٢ — ٦ (٢) سورة الحاقة : ١ — ٤

(٣) عبد الكريم الخطيب : من قضايا القرآن ، ص ١١١ ، ط . دار

الأثر اللغوي لهذه القصص التي نقلها إلينا القرآن وتحدث فيها عن أخبار
الغابرين والماضين . أقول أن التكرار في القرآن قد يجيء على صورة غير
مألوفة فيبدو واضحاً أن لهذا التكرار مقصداً آخر غير مقصد التوكيد ،
إذ يمتد ويطول في سلسلة من الأحداث تنتظم السورة كلها في بعض الأحيان
وتأخذ بها من جميع أطرافها . كما في سورة القمر وفي سورة الرحمن وسورة
المرسلات . فلقد تكررت مقاطع خاصة في هذه السور الثلاث مرات وبصفة
واحدة دون تحويل أو تبديل فيها ، ولكن هل نظن أن هذا الإسهاب مع
التكرار من شأنه أن يكون ثقيلاً على الأسماع أو تملج الآذان ؟ .

نستطيع أن نحكم على بطلان هذا الاستفسار إذا ما شرعنا في تلاوة هذه
السور بشيء من التروي والتدبر فنتلذذ بالقراءة والسماع ونجد للتكرار عذوبة .

وينص البلاغيون على أن التكرار أحد أنواع الإطناب يأتي في تقديرهم
للإنذار والردع ، كما يأتي لتعدد المتعلق مثل قوله تعالى في سورة الرحمن :
(فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله في سورة المرسلات : (ويل يومئذ
للمكذبين) . أما سورة القمر فدلّت على الأسلوب الموجز رغم أن التكرار
يتردد كثيراً في قوله تعالى : (فكيف كان عذابى ونذر) عقب كل حادث
فاجع لمكذبي الأنبياء . ولكن كيف يتردد التكرار على هذه الصورة في سورة
القمر التي أشارت إلى موقف الأمم الغابرة من دعوة الأنبياء ، ثم تكون
مثالاً للإيجاز ؟ .

يمكن الإجابة على هذا بأن الإيجاز ليس إيجاز كلمات وجل فحسب
ولكنه إيجاز موضوع وكذلك الحال في الإطناب ، فالسورة الواحدة إذا
أوجزت المعاني الكثيرة التي تنوال متعاقبة مجملة فهي مثال الإيجاز مها حدث

التكرار ، لأن المراد من هذا التكرار تقرير حقيقة في النفوس تتبع ما أجل قبلها من حديث ، فالأسلوب في هذه الحالة يكون موجزا ويؤدي دوره المطلوب في تقرير الحقائق وغرض التكرار من ورائه تقرير المعاني كما ذكرت .

وهكذا جاء التكرار في سورة القمر لأنه لم يوضح مجالا ولم يفصل مبهما بل أدى دوره الأدبي في التأثير الوجداني ، فبقية السورة الكريمة معه مثالا للإيجاز القوي الواضح بألفاظه ، الجازم بما يثبت من تقرير وتأكيده .

نزلت سورة القمر لتتحدث عما أصاب مكذبي الأنبياء من عواقب وخيمة عجلت بنهاياتهم الفاجعة ، لتكون إنذارا حاسما للمشركي مكة ، حيث سلكوا صنيع سابقهم (وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر) (١) . وتحقيقا لهذا الإنذار المهدد قامت السورة بعرض سريع لمواقف قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون من أنبيائهم وما فوجئوا به من دمار عاجل محقق لنقول لهم بعد ذلك (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر . أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر) (٢) . فليس من شأن السورة إذن أن تفصل قصص الأنبياء كسورة هود مثلا ، إنما شأنها أن توجز القول لتنتهي إلى نتيجة حاسمة محدودة ، وإذا كانت سورة هود قد سلكت سبيل الإطناب إذ تحدثت عن قوم نوح بما يبلغ أربعين سطرا من سطور المصحف الشريف

(١) سورة القمر : ٤ ، ٥ . (٢) سورة القمر : ٤٣ : ٤٦ .

تبتدىء بقوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى ألكم نذير مبين) (١) و تنتهى بقوله تعالى : (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) (٢) . إذا كانت سورة هود قد سلكت سبيل الإطناب إذ تحدثت عن قوم نوح كما سبق فيها فصلت من إجمال وصورته من مواقف فإن سورة القمر توجز السطور الأربعين في قوله تعالى : (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعنا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر وجفنا الأرض عيونا فاتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر) (٣) ولا يخفى علينا مافى هذا الإيجاز الذى لا يعدى خمسة أسطر من سطور المصحف الكريم ويشتمل على قصة نوح — لا يخفى علينا مافيه من توافق رءوس الآى والإيقاع الموسيقى العذب الذى يترك أعمق أثر فى النفوس ، ونلاحظ فيها توالى الأحداث وتعاقبها كما دل عليه الواو والفاء ، ونستنبط منها العبرة التى توحى بتأييد الله ونصره المبين لأتبيائه ، واختتم الأسلوب الخبرى فيها بالزجر والوعيد لكل كافر بربه . ولا يخفى علينا ما للأثر اللغوى من مكان فى ذلك الكلام من قصة نوح ، والإيجاز يحتفظ بطابعه البليغ فى دقة العرض ووضوح التصوير ، فهو بإجماله الملوّج يرسل من الإيحاء الدال ما يعبر عن معان كثيرة تكاد الفاظها تخفى ويظهر مدلولها النفسى فى جذب النفوس وإثارة الوجدانات . وهذه المعانى التى يشغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال تبرز وتكون وتتسع إلى معان

(٢) سورة هود : ٤٨

(١) سورة هود : ٢٥

(٣) سورة القمر : ١٠ — ١٤

آخرى بتحملها اللفظ بالتأثير والتأويل ، وبالنظر الدقيق إلى السورة نلاحظ أنها تسير على نفس النسق فتقول عن قوم هود : (كذبت ماد فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر . نزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) (١) . وتقول عن قوم صالح : (كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ، إنا إذا لفي ضلال وسعر . أألقي بالذکر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن المساء قسمه بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة . فكانوا كهشيم المحتظر) (٢) . وتمضى السورة على هذا النهج في حديثها عن قوم لوط وفرعون لتردد في كل حادث قوله تعالى : (فكيف كان عذابي ونذر) وقوله : (ولقد يسرنا القرآن للذکر فغفل من مدکر) ترديدا هو بمثابة نتيجة لازمة لمقدمات معروضة تسير إليها سيرا منتظما ، وفي خاتمة الأحداث يذکر قوله تعالى : (أكفار كم خير من أولئکم أم الکم براءة فی الزبر) وهو بمثابة استفهام للسخرية والتقريع للکفار یوضح أن الطريق قد ضاقت بهم وهددتهم النذر بما يتوقعون .

وفي سورة الرحمن تکرر قوله تعالى : (فبأی آلاء ربکا نکذبان) إحدى وثلاثین مرة ، وكان هذا المقطع آية مستقلة من بین آیات السورة التي تبلغ ثمانیا وسبعین آية .

ويمکن أن نصف سورة الرحمن بأنها مثال الإطناب لأنها تقوم على

(١) سورة القمر : ١٨ : ٢٠

(٢) سورة القمر : ٢٣ : ٣١

تقرير قضيتين اثنتين : إحداهما قدرة الخالق في هذا الكون الكبير ، والثانية حديث اليوم الآخر بما ينتهي إليه من نار أو جنة ، فبدأت الحديث عن بيان قدرة الله في هذا الكون من خالق الإنسان وتعليمه البيان وخلق الشمس والقمر والنجوم والشجر ورفع السماء ووضع الأرض ذات الفاكهة والنخل والحب ، وترددت الآية الكريمة : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) عقب كل آية لتقوم بدورها في التأكيد والإلزام والكلام فيها موجه إلى الثقلين أي الجن والإنس حيث يقع عليها التكليف وذكر الخطاب فيها على سبيل الزجر والوعيد ولترك صدها مجلجلا يدعو القلوب إلى العظة والاعتبار .

وفي سورة الرسائل تكرر قوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين) إحدى عشرة مرة ، واعتبر هذا المقطع آية بذاتها من بين آيات السورة وهي خمسون آية .

أعود فأقول إن التكرار في القرآن هو إعجاز من إعجازه ووجه جديد من وجوه البلاغة ، لم ينطق به قبل القرآن لسان ، ذلك أن الكلام الذي يتكرر يثقل ويسقط ، أما التكرار الذي وقع في القرآن فإنه كان في المواضع التي جاء فيها نغما جديداً من أنغام الحسن الرائع أضيف إلى تلك الأنغام السارية في القرآن كله . لنقرأ هذا المقطع : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فنرى الآيات تنطق بلحن موسيقي يفيض رحمة وينبض جلالاً وقوة ، يهتف بالنفوس الشاردة أن ترجع إلى ربها ، وقوله : (فكيف كان عذابي ونذر) تماسك بين الحروف ، وتجاذب بين الكلمات ، وتساوق في النغم المنبعث منها ، فلا خلخلة ولا اضطراب ولا ثقل .

ولقد كان هذا التكرار على تلك الصورة المرددة مدخلا يدخل منه أصحابه

الأهواء ومرضى القلوب على كتاب الله ، ليخوضوا فيه وليتخرصوا على نظمه ، وليطعنوا في بلاغته بهذا التكرار المتتابع ، وليقولوا إنه بهذا التكرار قد أدخل الاضطراب على الأسلوب وجعله ثقيلاً على اللسان والسمع معا 1 ويقصدون من ذلك التقليل من روعة الأسلوب القرآني وإخراجه عن المستوى الرفيع للبلاغة . ولكننا نقول لهؤلاء جميعاً إن عليهم أن يتصلوا بأسرار العربية ويتذوقوا بلاغتها الرفيعة حتى تتكشف لهم الحقائق ويرنادوا أصولها العميقة .

وكان من جراء خصائص الأسلوب في القصص القرآني أن يعرض الحدث التاريخي الواحد في أكثر من موقع ، مع اختلاف في جوانب التناول بين موقع وآخر ، إذ نراه يقدم في كل موقع متطلباته من الحدث . مثال ذلك قصة (نوح) في سورة الأعراف وفي سورة هود ، ففي سورة الأعراف يقول تعالى : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قل الملائكة قوم : إنا لنراك في ضلال مبين . قل يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا لعلكم ترحمون فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمن) (١) . نلاحظ أن القصة هنا لا تعنى من التفاصيل إلا بما يكشف عن موقف القوم من الرسالة ، فالمحور الذي تدور حوله هو رفض الملائكة من قوم نوح دعوته إلى الخير ، وما تولد عن ذلك من إلحاح نوح عليهم وإعذاره إليهم وإغرائهم على تقبل ما يقول واستمراره على ذلك مع إصرارهم على الرفض والتكذيب حتى يفاجأ بإنجائهم والذين معه في الفلك وإغراق المكذبين . ويسدو في ذلك

العرض أسلوب الملائنة في دعوتهم وقد استخدمه نوح عليه السلام طمعا في هدايتهم ، وإجاضه النصيحة إياهم كما تدل عليه اللام في قوله : (وأنصح لكم) فلا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام . وقد كان هؤلاء يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين وعبر القرآن عن ذلك بقوله : (أرعبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) فلهمة الإنكار والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل : أكذبتم وعجبتم .

وفي سورة هود يقول تعالى عن قصة (نوح) :

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا . بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) (١) إلى قوله تعالى : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) (٢) .

نلاحظ أن القصة عنيت هنا بتقديم ماجرى بين نوح وقومه من تحاور جدال ، والكشف عن طبيعة هؤلاء الرافضين ، وحججهم التي أبدوها وحقيقة ذلك ، وتوضيح الفارق بين رقة نوح وتلفه مع قومه ، وامتصاص ما يواجهه به الملأ الذين كفروا من قومه من إهانة وتجريح ، غير مبال بما عدا هدايتهم ، ونلاحظ أنها عنيت كذلك بتبيان عاقبة هؤلاء المعاندين وما جرى

على أستمهم من أساليب السخرية والاستهزاء : (ما نراك إلا بشراً مثلاً
وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا)^(١). و (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من
قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما نسخرون فسوف تعلمون
من يأتيه عذاب يخزيه ويحمل عليه عذاب مقيم)^(٢). وهو صابر ملتزم بطاعة
ربه ، حتى جاء أمر الله وفار التنور وكان ما كان على ما هو واضح في
السياق القرآني ، وفي أساليب السخرية التي ذكرت تعريض من جانب الكفار
بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها
فيهم فقالوا على سبيل الإنكار : هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة
فما جعلك أحق منهم ، ولذلك قالوا : (وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم
كاذبين) والمحطاب من الكفار لنوح ومن معه من المؤمنين ولذلك عبر عنه
بـ « صيغة الجمع » وقد أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً مثلهم .

وهكذا تبينت من خلال ذلك العرض لقصة نوح في مشهدين متوالين ،
أنه أوجز القصة في المشهد الأول من سورة الأعراف وأسهب في بيان مصير
قومه من المشركين في المشهد الثاني من سورة هود وأقصد بذلك تفصيله
للفرق وجريان السفينة قبله في موج من الجبال ودعوة نوح ابنه أن يكون
معه ثم استواء السفينة على جبل الجودي وابتلاع الأرض لمائها ، وأقول إن
للقصة القرآنية من خصائصها التنوع بين الإيجاز والإسهاب كما مر بنا من
خلال العرض السابق ، وليس هناك خلل بين أجزائها في الحالتين وكل منها
يحقق الغرض المذشود من القصة ويعطي المعنى الصائب لها .

والعكرار في الحقيقة لا يتناول القصة كلها — غالباً — وإن وردت القصة

في مواضع شتى كما سنرى في قصة موسى وإنما هو تكرار لبعض حلقاتها ، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبارة ، أما مضمون القصة ذاته وهيكلها فلا يكرر إلا للمناسبات خاصة في السياق ، وحين نقرأ هذه الحلقات المكررة نرى أنها تتوافق مع السياق تماما ولا تخرج عنه في اختيار الحلقة التي تعرض هناك وفي طريقه العرض كذلك .

وهناك ما يشبه أن يكون نظاما مقررًا في عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة — يتضح حين يقرأ بحسب ترتيب نزولها — فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ، ثم تطول هذه الإشارات شيئًا فشيئًا ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون في مجموعها جسم القصة ، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات .

أسرار التكرار في القصص القرآني :

إن تكرار بعض القصص في مواطن مختلفة من سور القرآن الكريم وعرض الشخصية ن معارض كثيرة ليحمل في طياته أمراراً جليلاً أردت أن أقف عليها بعد أن بذلت الجهد في ذلك بحثاً واستقصاء . والذي أدركته في هذا الصدد أن الباحثين حين تصدوا لهذا الموضوع اقتصروا على مجرد الإشارة إلى أن التكرار في قصص القرآن وجه من وجوه الإعجاز وحده ، ومنهم من رأته يطرح سؤالاً يستفسر فيه عن التكرار وأسبابه وكأنه يتربص من يوفيه الإجابة عليه !! وهذا ما أود أن أستشهد عليه بالمثال ، يقول أحدهم :

(سؤال سأل به العقل الإسلامى نفسه فيما يخص هذا التكرار ، وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التى من أجلها كان التكرار ، فلماذا هذا الاختلاف ؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة فى موطن ، عنه فى آخر ؟) (١) ويبدو أنه لم يتوصل إلى حقيقة السر .

إننا نجد كثيراً من الشخصيات تأخذ مواقف متعددة فى القرآن الكريم وذلك فى أزمنة متباعدة ، فى عرض القرآن لها حسب نزوله ، ولو أن الشخصية كانت مقصودة لذاتها قصداً أصلياً لذكرت أحداثها ومواقفها فى معرض واحد ، ولاستقلت كل قصة بنفسها فكنا نجد قصة موسى مثلاً فى سورة واحدة وكذلك قصة إبراهيم وعيسى ونوح وغيرهم .

ولكننا نرى الشخصية تؤدي دورها مع الأحداث ، تتحرك خلالها وتتفاعل معها وتمضى إلى تحقيق الغرض الذى رسمت له وعلى هذا يمكن القول بأن التكرار فى قصص القرآن ليس تكراراً للحدث وحده ، ولا إعادة للواقعة بصورتها التى عرضت بها أولاً ، بل إن أكثر القصص القرآنى تتكرر فيه الشخصية ولا تتكرر فيه الحادثة (٢) .

وإنما الذى دعا إلى القول بالتكرار فى القصص القرآنى هو ظهور الشخصية فى مواقف متعددة ، فوقع للنظرة المجردة من التعمق والتبصر أن ذلك من التكرار ، بل والتكرار الممل الذى لا تدعو إليه داعية ، من حال أو مقام

(١) د . محمد أحمد خلف الله : الفن القصصى فى القرآن ص ٣٢ ، القاهرة .

(٢) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآنى فى منظوقه ومفهومه ص ٤٢ ،

ط . رار الفكر العربى .

سودك من المزاعم الباطلة لأن الشخصية ليست مقصودة لذاتها كما ذكرت .
ولوكانت الشخصية — لا الحادثة — هي مناط القصة ودافعها الأصلي لجاءت
كل قصة نبى أو كل شخصية غير نبى فى موضع واحد من القرآن فى سورة
أو بعض سورة ، ولكن إذا نحن اعتبرنا الحادثة — لا الشخصية — هي محور
القصة نجد هذا التمزق فى الشخصيات وإنما نجد فى كل حادثة أو موقف قصة
كاملة ، وإن كان هذا لا يمنع من أن نلتقى بالشخصية الواحدة فى أكثر من
حدث مع تباعد الزمان والمكان كما أن هذا لا يمنع من أن تقترن الأحداث
المتماثلة ويجمع بعضها إلى بعض فى مساق واحد وفى عرض متصل وفى
سورة أو بعض سورة .

وقد كانت ظاهرة التكرار لها دواعيها الرئيسية التى لفتت أنظار العلماء
إليها وحرك أقلامهم وأستهم لها ، فزى أن إعادة القصة الواحدة بألفاظ
مختلفة تؤدى معنى واحداً من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة وتبين
البلاغة وأعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة إثباتاً
للإعجاز القرآنى وتنبيهاً للعرب عن قصورهم فى الإتيان بمثله مبتدأ به
ومكررأ. (١)

ومن الأسرار الأخرى للتكرار عدة أمور ذكرها صاحب البرهان :

أحدها : أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً ، ومثال ذلك أنه ذكر الحية
فى عصا موسى عليه السلام وذكرها فى موضع آخر نعبانا .

الثانية : أن الرجل — وذلك فى صدر الإسلام وقبل أن يكمل نزول

(١) أبو الحسن أحمد بن فارس : الصحاحى فى فقه اللغة وسنن العرب فى

كلامها ، ص ٢٠٩ ، ط . بيروت / لبنان ١٩٦٣ م / ١٣٨٢ هـ .

القرآن — كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه — أى عن القرآن — ما نزل بعد صدور الأولين ، وكان أكثر من آمن به أى بالقرآن مهاجريا . فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين وكذلك سائر القصص ، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة لقوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة الآخرين وهم الحاضرون — أى المقيمون بالمدينة .

الثالثة : أن الله تعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية منه لصحة نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في موضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأى نظم جاءوا وبأى عبارة عـبروا .

الرابعة : أنه لما تحداهم قال (فائتوا بسورة من مثله) (١) فلو ذكرت القصة في موضع واحد واكتفى بها لقال العربى : ائتونا أنتم بسورة من مثله . فأنزلها الله سبحانه وتعالى في تعداد السور فعالجتهم من كل وجه (٢) .

أضف إلى ما ذكر أن في تكرار القصص تسلية لقلوب النبي صلى الله عليه وسلم بما اتفق للأنبيا مثله مع أممهم قال تعالى : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (٣) .

كما أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأسايب مختلفة لا ينفى مافيه

(١) سورة البقرة : آية ٢٣ .

(٢) بدر الدين الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٢٧ ،

الطبعة الأولى ، ١٩٥٨ — ١٣٧٧ هـ .

(٣) سورة هود : ١٢٠

من الفصاحة ، ونرى عرض القصة الواحدة في أنماط متعددة من النظم القرآني بين الإطناب والإيجاز ، والبسط والقبض - وهذا وجه من وجوه الإعجاز في الآيات - يقوم منه شاهد على الزمن كله وعلى الإنسانية كلها بأنه كلام منزل من عند الله تنقطع دونه أنفاس البلغاء ، وتقصر عن التعلق بقصصه أيدي أصحاب البيان . ومن هنا كان التكرار ثمة معنى دقيق في التحدي ما يظنه العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً لاختلاف طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحو ذلك .

ومن أسرار اللغة الأخرى في التكرار أن القصة الواحدة من هذه القصص ، كقصصة موسى مع فرعون - وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى - فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير وأنت على أسلوب الأخرى ، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ ، فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها ، فكان الله تعالى فرق ذكر ما دار بينها وجعله أجزاء ، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها ، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ، من أفراد كل قصة منها بموضع ، كما في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة .

واجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة من إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم وجذب النفوس إلى سماع تلك القصص لما جبلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة واستلذاذها بها وإظهار خاصية القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هجنة في اللفظ ولا ملل عند سماعه فباين ذلك كلام المخلوقين كما أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة

منها صارت منفردة في تارات التكرير (١) .

ولعل هناك شيئاً جديراً بالملاحظة قد أدر كتمه عند تناول أسرار التكرار في القصص القرآني وهو أن قصة يوسف قد استقلت بنفسها وتميزت عن سائر القصص بإفرادها في سورة باسمها ، وسعيت وراء استنباط الحكمة من عدم تكرارها وسوقها مساقاً واحداً في موضع واحد دون غيرها من القصص . ولعل الباحثين لم ينتبهوا إلى ذلك بل لم يتعرضوا للوقوف على هذا السر ، وذلك ما أردت بيانه في هذا المضمار من بحثنا اللغوي . والجواب من وجوه

تمكنت من حصرها وأضفت إليها :

الاول : أنها قصة تعالج ناحية اجتماعية تقوم على الصراع الذي مبعثه الغيرة والحقد من جانب إخوة يوسف وكيدهم له ، وهذا ما نراه يحدث كثيراً في المجتمعات الأسرية ، فأراد القرآن أن يجعل هذه القصة مستقلة بنفسها لما فيها من العواقب الوخيمة لكل من يحيد عن الحب والإخلاص ويكون مجبولاً على الغيرة والشر . وسائر القصص كما أرى تتماثل في كونها تقوم على الدعوة إلى توحيد الخالق جل وعلا والتحذير من مخالفته .

الثاني : ما فيها من تشبيب النسوة به ، وتضمن الاخبار عن حال المرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالا ، وأرفعهم مثالا ، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك (٢) .

الثالث : أنها اختصت بمحصول الفرج بعد الشدة ، بخلاف غيرها من القصص

(١) السيوطي : الإتيان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

فإن ما لها إلى الوبال ، كقصه إبليس ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح وغيرهم ، فلما اختصت هذه القصة عن سائر القصص بذلك اتفقت الدواعي على نقلها لخروجها عن سمت القصص (١) .

الرابع : إنما كررت قصص الأنبياء لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا وسلمهم ، والحاجة داعية إلى ذلك التكرير فكلما كذبوا نزلت قصة منذرة . بحلول العذاب كما حل على المكذبين ، كما أن هذه القصة نزلت بسبب طلب الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقص عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه فزلت مبسوطة تامة ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصة وترويح النفس بها والإحاطة بطرفيها (٢) .

الخامس : إنما كرر الله قصص الأنبياء وساق قصة يوسف مساقاً واحداً إشارة إلى عجز العرب كأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : إن كان من تلقاء نفسي فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في سائر القصص .

وأما مناسأل آخر ، وهو أن الله سبحانه وتعالى ذكر قصة نوح ، وهود وصالح وشعيب ، ولوط وموسى في سورة الأعراف وهود والشعراء ، ولم يذكر معهم قصة إبراهيم ، وإنما ذكرها في سورة الأنبياء ومريم والعنكبوت والصفافات . وقد استطعت بعد طول بحث أن أتوصل إلى السر في ذلك ، إذ تبين أن تلك السور الأول ذكر الله فيها نصر رساله بإهلاك قومهم ، ونجاء الرسل وأتباعهم ، وهذه السورة لم يقتصر فيها ذكر من أهلك من الأمم ، بل

(١) السيوطي : الإلتقان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

كان المقصود ذكر الأنبياء وإن لم يذكر قومهم ، ولهذا سميت سورة الأنبياء
بذكر فيها إكرامه للأنبياء ، وبدأ فيها بقصة إبراهيم ، إذ كان المقصود
ذكر كرامته الأنبياء قبل محمد وإبراهيم أكرمهم على الله تعالى وهو خير البرية
وهو أبو أكثرهم : وليس هو أبا نوح ولوط ، لكن لوطا من أتباعه ، وأيوب
من ذريته بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام (ومن ذريته داود وسليمان
وأيوب) (١) .

وأما سورة العنكبوت ، فإنه سبحانه وتعالى ذكر فيها امتحانه المؤمنين
ونصره لهم ، وحاجتهم إلى الجهاد ، وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر ، وعاقبه
من كذب الرسل ، فذكر قصة إبراهيم ، لأنها من النمط الأول وكذلك
في سورة الصافات قال فيها : (ولقد ضل قبلهم أكثر الأوائل . ولقد أرسلنا
فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) (٢) وهذا يقتضى أنها عاقبة
رديئة ، إما بكونهم غلبوا وذلوا ، وإما بكونهم أهلكوا ، ولهذا ذكر قصة
إلياس دون غيرها ولم يذكر إهلاك قومه بل قال : (فكذبوه فإنهم محضرون) (٣)
وقد روى أن الله رفع إلياس ، وهذا يقتضى عذابهم في الآخرة ، فإن إلياس لم
يقم بينهم ، وإلياس المعروف بعد موسى من بني إسرائيل ، وبعد موسى لم يهلك
المكذبين بعذاب الاستئصال ، وبعد نوح لم يهلك جميع النوع ، وقد بعث الله
في كل أمة نذيراً ، والله سبحانه لم يذكر عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا ،
كما ذكر ذلك عن غيرهم بل ذكر أنهم ألقوه في النار ، فجعلها برداً وسلاماً ، وفي

(١) سورة الأنعام : آية ٨٤

(٢) سورة الصافات : ٧٢ ، ٧٣

(٣) سورة الصافات : آية ١٢٧

هذا ظهور برهانه وآياته ، حيث أذلهم ونصره (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) (١) . وهذا من جنس المجاهد الذى يعرض عدوه ، والقصص الأول من جنس المجاهد الذى قتل عدوه ، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم بل هاجر وتركهم وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين أظهرهم حتى أهلكوا ، ولم يوجد فى حق إبراهيم سبب الهلاك ، وهو إقامته فيهم وانتظار العذاب النازل ، وهكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، لم يقم فيهم بل خرج عنهم حتى أظهره الله عليهم بعد ذلك ، ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل ، فإنهم إذا علموا حصول المقصود قد يتوب منهم مراتب كما جرى لقوم يونس فهذا — والله أعلم — هو السر فى أنه سبحانه لم يذكر قصة إبراهيم مع هؤلاء (٢) .

من أسرار التكرار فى قصة موسى عليه السلام :

أود بعد ذلك العرض للتكرار فى قصص القرآن والوقوف على أسرارها وبيان أثر ذلك فى لغة القرآن أود أن أتناول قصة موسى — عليه السلام — باعتبارها أشد القصص فى القرآن تكراراً فقد وردت فى حوالى الثلاثين موضعاً أو أكثر وأريد هنا أن أتبع مراحلها وكيف جاءت فى تلك المواضع مع بيان ما يمكن فى ذلك من أسرار لغوية.

وبسوغ لنا فى هذا الصدد أن نشير إلى الحكمة من تكرير أقاصيص بنى إسرائيل فى القرآن حيث يتبين لنا وجوه من المقاصد :

أحدها : الدلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أخبر عنها من غير تعلم وذلك لا يمكن إلا بالوحي .

(١) سورة الصافات : آية ٩٨ .

(٢) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

الثاني : تعديد النعم على بنى إسرائيل ، وما من الله على أسلافهم من الكرامة والفضل ، كالنجاة من آل فرعون ، و فرق البحر لهم وما أنزل عليهم في التيه من المن والسلوى ، وتفجير الحجر وتظليل الغمام .

الثالث : إخبار الله نبيه بتقديم كفرهم وخلافهم وشقاوتهم وتعنتهم على الأنبياء ، فكأنه تعالى يقول : إذا كانت هذه معاملتهم مع نبيهم الذى أكرمهم الله به ، وأنقذهم من العذاب بسببه فغير بدع مايعامله به أخلافهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

الرابع : تحذير أهل الكتاب الموجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من نزول العذاب بهم كما نزل بأسلافهم . (١)

وقد استعرضت دراعى التكرار في قصة موسى ورجحت آراء المفسرين في ذلك الصدد وأدركت أن القرآن الكريم يحرص على نقل هذه التهمة وأمثالها بأساليب متباينة حتى يتميز بطابعه الفريد وصورته الباهرة ، وهذا وجه من وجوه التحدى والإعجاز فيه كما ذكرت آنفا ، فالبيئة العربية التي نزلت فيها الآيات الكريمة كانت أحوج إلى مثل هذا البيان وما فيه من فصاحة ونراكيب لا يعلى عليها .

أما قصة موسى فإنها تسير في عدة مراحل أود أن أستشهد ببعضها :

١ — في سورة الأعلى (السورة الثامنة في النزول) إشارة قصيرة :

(١) ذكر اللقفل هذه الوجوه في تفسيره الجامع ، قال عنه ابن خلكان : هو محمد بن أحمد بن الحسين الشاشى اللقفل ، رئيس الشافعية في عصره ، توفي سنة ٥٠٧ هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان) مصر ١٢٧٥ هـ ، ص ٤٦٤ .

(إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) (١) . وفي القفج
(السورة العاشرة) إشارة إلى فرعون بدون ذكر موسى منع عاد وثمود
(وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد فصب
عليهم ربك سوط عذاب) (٢) .

وفى سورة الأعراف : بدأ التفصيل الأول للقصة فى معرض قصص
مشارك مع نوح وهود ولوط وشعيب ، انحدت فيه صيغة الدعوة وصيغة
التكذيب والعقاب الذى أخذ المكذبين . وقد بدأت القصة هنا برسالة موسى
وهارون إلى فرعون وملئه : ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا وسلطان مبين
إلى فرعون وملئه . . . (٣) ثم ذكرت معجزة العصا واليد البيضاء وجمع
السحرة والمباراة بينهم وبين موسى وغلبته عليهم ، وإيمانهم به وتعذيب
فرعون بنى إسرائيل بعد ذلك . وتسليط الجراد والقمل والضفادع والدم
على فرعون وقومه ، واستغاثتهم بموسى وكف الأذى عنهم ، وعودتهم تعذيب
بنى إسرائيل ، ثم خروج هؤلاء من مصر . وبعد الخروج طلبهم من موسى
أن يتخذ لهم إلهًا كما للمصريين آلهة ، وتذكيره لهم بربهم ، ثم ميعاد موسى
مع ربه بعد ثلاثين ليلة زبدت إلى أربعين وطلبه رؤية ربه ودك الجبل
وانصعاق موسى وإفاقته ثم اختيار سبعين رجلا منهم لميقات ربه وغشيتهم
بالجبل لما طلبوا رؤية الله جهرة وإفاقته ثم دعاؤهم بطلب الرحمة فالرد عليهم
بأن الرحمة قد كتبت للمؤمنين الذين يتبعون النبي الأمى .

٣ — وهناك إشارة فى سورة الفرقان للرسالة وتكذيب القوم المشركين

(١) سورة الأعلى : ١٨ ، ١٩ (٢) سورة القفج : ١٠ : ١٣

(٣) ١٠٣

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (١) ثم ترد إشارة أخرى في سورة مريم عن موسى عليه السلام ومناجاته لربه : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (٢).

وفي سورة طه يبدأ تفصيل آخر ، يبدأ من حلقة أسبق من حلقة الرسالة التي ذكرت في « الأعراف » تلك هي رؤية موسى للنار من جانب الطور : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا . فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هَدَى ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . . .) (٣) . الاستفهام للتقرير في قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ومعناه أليس قد أتاك حديث موسى ، وقيل معناه قد أتاك حديث موسى ، وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لما يلافيه من مشاق أحكام النبوة ، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها وأن ذلك شأن الأنبياء قبله ، والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى ، والمراد بالأهل هنا امرأته والجميع لظاهر لفظ الأهل أول للتفخيم ومعنى امكثوا أقيموا مكانكم ، وعبر بالملكث دون الإقامة لأن الإقامة تقتضى الدوام والملكث ليس كذلك (٤).

(١) سورة الفرقان : ٤٣ ، ٤٤ (٢) سورة مريم : ٥١ : ٥٣

(٣) سورة طه : ٩ : ١٣

(٤) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير (أنى) بالفتح أى نودى بأنى أنا ربك
وكسر الياقون أى نودى فقيل يا موسى أو لأن النداء ضرب من القول فعومل
معاملته تكرير الضمير فى إنى أنا ربك لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإحاطة
الشبهة (١). وبعد أن يكلف الذهاب إلى فرعون ، يحاور ربه ليرسل معه
هارون ، يشد أزره ويكون وزيراً له ، فيذكره الله بنعمته عليه فى مولده ،
ورده إلى أمه ثم تسير القصة كما سارت فى « الأعراف » .

٥ — وفى سورة « الشعراء » تبدأ القصة من حلقة الرسالة ، وتسير فى
الخطوات التى سارت فيها إلى حلقة الخروج ، ولكنها تزيد هنا أسرين : الأول
ذكر موسى أنه قتل رجلاً من المصريين فهو يخشى أن يؤخذ به ، وتذكر
فرعون له بأنه قدر بنى فيهم وليداً وفعل هذه الفعلة ومضى . والثانى ذكر انلاق
البحر كالطود العظيم وهذا وذلك مع تنوع فى الحوار بين فرعون وموسى
وإثبات إلهه بصفاته وتنوع فى الحوار مع السحرة كذلك .

٦ — وفى سورة « القصص » تبدأ القصة من أول حلقة فيها : من
مولد موسى فى إبان اضطهاد قومه فوضعه فى التابوت وإلقائه فى البحر والتقاط
آل فرعون له ، وتحريم المراضع عليه . وقول أمه لأختها أن تقص أثره
وإشارتها على آل فرعون بمريض للطفل هي أمه ثم كبره
ثم قتله للمصرى ومحاولة قتل آخر ، وتهديد إياه بإفشاء سر القتل الأولى

(١) الزحشرى : الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، ج ٢ ، ص ٢١

ونصح رجل له بالهرب وقد جاء من أقصى المدينة يسعى وخروجه إلى أرض
مدين والتقاءه بنتى شعيب وسقيه لها إلى أن يذهب إليه ويتزوج يا حدى
ابنتيه :

(قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني
حجج فإن أتممت عشر آفن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء
الله من الصالحين) (١) .

وعرضت السورة لموقف فرعون من دعوة موسى واستمزائه به حيث
ذكر القرآن :

(فأود لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ، لعلني أطلع إلى إله موسى
وأنى لأظنه من الكاذبين) (٢) . ولم يقل اطنخ لي الآجر لأنه أول من عمل
الآجر أى الطين ، فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن
وعلو طبقته وأشبه بكلام الجابرة .

والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل وأطلع بمعنى واحد (٣) .

٧ — فى سورة يونس عرض قصير — فى وسط قصص مشترك —
ليبان عاقبة التكذيب : وقد ذكرت فيه حلقة السحرة باختصار ، وتجاوز بنى
إسرائيل البحر ، وإتباع فرعون لهم وغرقه ، ولكن زاد فى حلقة الفرق أن

(١) سورة القصص : ٢٧

(٢) سورة القصص : ٣٨

(٣) الرغشري : الكشف ، ج ١ ، ص ١٢٤

يقول (حتى إذا أدركه الفرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) (١) :

أى صدقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه ، خذفت الباء والضمير للشأن . وقرئ بكسر إن على الاستئناف ، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف : أى آمنت ، فقلت أنه ، ولم ينفعه هذا الايمان لأنه وقع منه بعد إدراك الفرق له ، ولم يقل اللعين آمنت بالله أو برب العالمين ، بل قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، لأنه بقى فيه عرق من دعوى الإلهية . وهذا فى رأي أبلغ ما ذكره القرآن لأن الله تعالى نزه اسمه المعظم أن يجرى على لسان فرعون الذى باه بغضب من الله فعدم رحمته تعالى .

ولذلك كان الرد عليه فى نفس السياق القرآنى :

« آ لآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية » (٢) قرئ ننجيك بالتخفيف ، والجمهور على الثقيل ، وقرأ اليزيدى ننجيك بالحاء المهملة من التنجية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ، ومعنى ننجيك بالجيم نلقيك على نجوة من الأرض وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأننا من ذاك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه (٣) . وقيل المعنى نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب فى قاع البحر ونجعلك طافيا على الماء ليشاهدوك ميتا بالغرق ومن هنا تستخلص العبرة الجميلة ، ومعنى ننجيك نطرحك على ناحية من الأرض وروى ابن مسعود أنه قرأ بأبدانك .

(١) سورة يونس : ٩٠ ، ٩١ (٢) سورة يونس : ٩٠ ، ٩١ .

(٣) الشوكانى : فتح القدير ، ج ٢ ص ٤٤٨

ونلاحظ أن الله تعالى أتى في هذه القصة بالتعليل لتنجيته بيده كما يدل عليه سياق الآيات ، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى ، والمراد بالآية علامة أى لتكون لمن خلقك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك وأنت لست كما تدعى ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتا بالفرق ، وقيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله تعالى ، وهذا ما تمكنت من الوصول إليه في بيان التعليل وتوضيحه. وقرئ: لمن خلقك على صيغة الفعل الماضي أى لمن يأتي بعدك من القرون أو من خلقك في الرياسة أو في الكون أو في المسكن الذي كنت تسكنه (١).

٨ — وفي سورة غافر أو المؤمنين : تعرض حلقة الحوار بين فرعون وموسى ولكن يزيد في هذا الحوار قول فرعون (ذروني أقتل موسى وليدع ربه) (٢) وهذا مذكور على سبيل الوعيد من جانب فرعون وتهديده لموسى وهو كثير في هذه القصص ، وظهور رجل من آل فرعون يكتم إيمانه ، ينافح عن موسى ويشير عليهم ألا يقتلوه فقد يكون على صراط مستقيم وهي زيادة لا ترد في غير هذا الموضع .

٩ — وفي سورة فصلت إشارة سريعة : (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب) (٣) وكذلك ترد إشارة في سورة الزخرف ولكن يزيد هنا أن فرعون يقول :

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٥٠ .

(٢) سورة غافر : آية ٢٦ (٣) سورة فصلت : آية ٥٥

(أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؟) (١) يجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر وتجري نصب على الحال منها وأن تكون الواو للحال واسم الإشارة مبتدأ والأنهار صفة لاسم الإشارة وتجري خبر المبتدأ . وقد جرى هذا الكلام على لسان فرعون بعد أن بلغ مبالغاً عظيماً من الطغيان والجبروت وكأنه يريد بالاستفهام تقرير ربوبيته وعزته .

١٠ — وفي الكهف تعرض حلقة مقابلة موسى لعبد من عباد الله أوتي من لدنه رحمة وعلم علماً ، وقد طلب إليه موسى أن يصحبه ليستفيد من علمه ، فأخبره أنه إن يصبر معه ليعلمه فوعده موسى بأن يصبر ، ثم لم يستطع معه صبراً لأن الرجل أخذ في تصرفات لا يدرك كتبها موسى : (قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً) (١) ويستمر الحوار على هذه الحال من توافق رؤس الآي والإيقاع العذب الذي يتخلل الفواصل وسلاسة الكلام ، ويأتي الخضر عليه السلام بخوارق يذهل لها موسى ومن خلال ذلك يبدو عنصر التشويق في مجرى الأحداث والعلماء يذكرون أن الخضر يمثل الحقيقة وموسى هنا يمثل الشريعة .

١١ — ويأتي تفصيل آخر في سورة البقرة في معرض تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم ومقابلتهم هذه النعم بالكفر والجحود رغم هذا الإناهم الذي من الله به عليهم : (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ، وظللنا عليكم الغمام

(١) سورة الزخرف : ٥١ ، ٥٢

(٢) سورة الكهف : ٦٧ : ٦٩

وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفُسهم يظلمون (١). ثم حلقة البقرة التي أمرهم الله بذبحها فجعلوا يتلکأون ، ويسألون عن صفاتها حتى استنفذوا الماعذير (فذبحوها وما كادوا يفعلون) (٢). وهي حلقة جديدة لم تذكر من قبل أصلاً .

١٢ — وفي سورة المائدة : تذكر حلقة وقوفهم على أبواب الأرض المقدسة (فلسطين) لا يدخلون : (قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) (٣) إلى قوله : (قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) (٤) قال الزجاج : الجبار من الآدميين العاتي وهو الذي يجبر الناس على ما يريد ، وأصله على هذا من الإجبار ، وهو الإكراه فانه يجبر غيره على ما يريد له يقال أجبره إذا أكرهه ، وقيل هو مأخوذ من جبر العظم فأصل الجبار على هذا : المصلح لأمر نفسه ، ثم استعمل في كل من جر إلى نفسه نقماً بحق أو باطل ، وقيل إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه . قال الفراء : لم أسمع فعلاً من أفعال إلا في حرفين جبار من أجبر ، ودراك من أدرك (٥) والمراد هنا أنهم قوم عظام الأجسام طوال متعاضمون .

(١) سورة البقرة : ٥٦ ، ٥٧ (٢) سورة البقرة : ٧١

(٣) سورة المائدة : ٢٢ (٤) سورة المائدة : ٢٦

(٥) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ٢٦

وقد كان هذا القول منهم فشلاً وجبناً أو عناداً وجسرة على الله ورسوله كما يدل عليه قوله تعالى : (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون) قالوا هذا جهلاً بالله عز وجل وبصفاته وكفراً بما يجب له والطلب فيه كما أرى الاستهانة والسخرية . وقيل أرادوا بالذهاب الإرادة والقصد ، وقيل أرادوا بالرب هارون وكان أكبر من موسى ، وكان موسى بطيعه فقد يعبر عن كلمة الرب بالمصاحب أو الصديق الحميم . وفي رد موسى عليهم : (رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي) يحتمل أن يعطف وأخي على نفسي وأن يعطف على الضمير في (أني) أي أني لا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه . والطلب هنا كما أرى للدعاء والغرض منه الاسترحام والاستعطاف ، وقد ذكر موسى عليه السلام ذلك القول تحسراً وحزناً واستجلاً بالنصر من الله عز وجل . وأتبع ذلك بالأسلوب الخبري في قوله تعالى : (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) وهذا قضاء كتبه الله عليهم على سبيل العقاب والإنذار أي أنها محرمة على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم عن قتال الجبارين . واختلف أهل العلم هل كان معهم موسى وهارون أم لا ؟ فقيل لم يكونا معهم ، لأن الله عقوبة ، وقيل كان معهم لكن سهل الله عليهما ذلك وهذا في رأيي أرجح كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم .

يتبين لنا من خلال العرض السابق أن قصة موسى وبنى إسرائيل من أشد القصص تكراراً في القرآن ومعظمها إشارات توجيهية إلى القصة اقتضاها السياق كما هو ملاحظ ، أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقريباً وهذا ما أردت أن أقف عليه من تكرار قصة موسى والحلقة التي تتكرر يكون معها شيء جديد جدير بالذكر يتحتم وجوده ويتفق مع مجرى الأحداث : قصة موسى

عليه السلام تعتبر نمطا لغويا من قصص القرآن وطى هذا فليس فى تلك
القصص تكرار مطلق .

قال الزركشى فى البرهان : للاختلاف أسباب أحدها وقوع الخبر به طى
أحوال مختلفة وتطورات شتى كقوله فى خاق آدم من تراب ومرة من حمأ
مسنون ومرة من طين لازب ومرة من صلصال كالنخار ، فهذه الألفاظ مختلفة
ومعانيها فى أحوال مختلفة لأن الصلصال غير التراب إلا أن مرجعها كلها إلى
جوهر وهو التراب ، ومن التراب درجت هذه الأحوال . وكقوله تعالى عن
عصا موسى (فإذا هى ثعبان مبين) (١) ، وفى موضع (تهتر كأنها جان) (٢)
والجان الصغير من الحيات والثعبان الكبير منها وذلك لأن خلقها خلق الثعبان
العظيم واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته (٣) .

الاشتقاق اللغوى للقصة :

أود أن أشير إلى الاستعمال اللغوى للقصة وأستشهد بما ذكره علماء اللغة
والفلسوف حين تناولوا هذا الاستعمال فى كتبهم . ويكاد هؤلاء أن يتفقوا فى
آرائهم .

فالقصة : فعل القاص ، إذا قص القصص والقصة معروفة ، والقص اتباع
الأثر ، ويقال : خرج فلان قصصا فى أثر فلان ، وقصا ، وذلك إذا اقتفى
أثره ، وقيل القاص بقص القصص لاتباعه خبراً بعد خبر ، وسوق الكلام
صوتاً (٤) .

(١) سورة الأعراف : آية ١٠٧ (٢) سورة النمل : آية ١٠

(٣) السيوطى : الإتيان فى علوم القرآن ، ج ١ ص ٢٩ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب (مادة قصص) .

والمفسرون يخطون بالمسألة خطأ إلى الأمام ، فهم ينظرون إلى المسألة باعتبارين : اعتبار لغوى ، يعتمدون فيه على ذلك التحصيل اللغوى والاشتقاق كما سبق . واعتبار دينى : ينظرون فيه من وجهة نظر خاصة . وعلى رأس هؤلاء الإمام الرازى — رحمه الله — الذى يجمع بين الاعتبارين ، ويقرب بين الاتجاهين ، وذلك عند تفسيره الآية الكريمة :

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين (١) .

فالقصاص إتباع الخبر بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة المتابعة . قال تعالى : « وقالت لأخته قصيه » ٢ أى أتبعى أثره ، وقال تعالى : « فارتداعلى آثارهما قصصا » (٣) أى إتباعا .

وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا شيئا . ونرى الرازى هنا يحاول أن يقرب بين المعنى اللغوى والاصطلاح الأدى ذلك حين يربط بين الاثنين باستعماله لفظة « الحكاية » ، وإطلاق لفظة القصة عليها .

وفى قوله تعالى « إن هذا هو القصص الحق » (٤) نرى القصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ، ويرشد إلى الحق ، ويأمر بطلب النجاة . وإذا كان القرآن قد سمى الأحداث والوقائع قصصا ، فهل هذه التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحى ومع المحتوى الفنى للقصة كما هو معروف فى الآداب الإنسانية قديما وحديثا ؟ .

(١) سورة يوسف : آية ٣
(٢) سورة القصص : آية ١١
(٣) سورة الكهف : آية ٦٤ .
(٤) سورة آل عمران : آية ٦٢ .

الإجابة على هذا السؤال ، يجدر بنا أن نعود إلى المعنى اللغوي للقصة
النرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص
القرآني .

فالقصة مشتقة من القص وهو تتبع الأثر كما مروى من هذا قولهم :
قص الأثر أى نظر فيه واقتفى آثاره وشواهد . يقال : قصصت أثره
واقصصته وتقصصته وخرجت فى أثر فلان قصصا . وقص عليه الرؤيا
والحديث . وفى القرآن أيضاً : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا
لك كيداً » (١) .

والقصة فى القرآن إنما تتبع أحداثا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى
عرضه ، ومن هنا كانت تسمية الأخبار التى جاء فيها القرآن الكريم قصصا
كما يدخل فى المعنى العام لكلمة « خبر » أو « نبأ » . وقد استعمل القرآن
الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضى ، وإن كان قد فرق بينهما فى
المجال الذى استعملاه فيه ، جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز ،
فاستعمل النبأ والأنباء فى الإخبار عن الأحداث البعيدة ، زمنيا أو مكانيا على
حين أنه استعمل الخبر والأخبار فى الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع
أو التى لا تزال مشاهدتها قائمة ماثلة للبينان (٢) .

وفى النبأ والأنباء يقول الله تعالى : فى أصحاب الكهف : « نحن نقص
عليك نبأهم بالحق » (٣) ويقول سبحانه فى شأن الأمم الماضية وما وقع

(١) سورة يوسف : آية ٥ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني : فى منطوقه ومفهومه :

ص ٤٥ ، دار الفكر العربى .

(٣) سورة الكهف : ١٣

فيها من أحداث : « ذلك من أنباء القرى ، نقصه عليك منها قائم وحصيد » (١) ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (٢) .

وفى الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين : « ولنبلونكم حق . نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » (٣) .

ويقول جل شأنه فيما يكون من أحداث يوم القيامة « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » (٤) .

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) نجد أن القصص القرآني إنما هو من قبيل الأنباء ، أي الأخبار التي بعد الزمن بها واندثرت أو كادت تندثر ، ولهذا ممهاها القرآن من أنباء الغيب . ونلاحظ أن القصص القرآني يبحي بالماضي البعيد في عرض أحداثه دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو متوقعات المستقبل .

يتبين لنا بما سبق أن الاشتقاق اللغوي للقصة أو القصص كما رأينا ، هو كشف آثار وتنقيب عن أحداث ، نسيها الناس أو غفلوا عنها ، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو مأسعرضه في خاتمة الفصل الرابع تحت عنوان : « أغراض القصة القرآنية » أسوة بما ذكرته آتفا من الإشارة إلى بعض أغراض القصة الإنجيلية .

(٢) سورة هود : ٤٩

(٤) سورة الزلزلة ٤

(١) سورة هود : ١٠٠

(٣) سورة محمد : ٣١

أغراض القصة القرآنية :

لقد سبقت القصة القرآنية في صورة أحداث واقعية لتحقيق أغراض دينية بحتة ، وإذا كان الغرض المنشود من القصة الإنجيلية يرمى إلى تبجيل المسيح والاعتراف له بالعظمة البالغة إلى درجة الربوبية ، بعد أن شاهدنا أمثلة وأدلة كافية إلى غير ذلك من الأغراض ، فإن هذه الأغراض إنما تخرج في كثير من الأحيان عن النطاق الواسع الذي عرض له القرآن في قصصه المعجز ، وتكاد تكون أغراض القصة الإنجيلية محدودة للغاية إذا ما قورنت بأغراض القصة القرآنية التي سأشير إليها الآن .

فالقرآن كتاب دعوة دينية أولاً وقبل كل شيء ، وفي تضاعيف السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحاً ، ويستبين منهجها الذي تحذو البشرية إليه لا يختلف وإن اختلفت العصور . وإنك لتسمع إليهم واحداً بعد الآخر — فيما سجل القرآن من وصاياهم ونصائحهم وإرشادهم لأمم فيجد كلاماً منسقاً وهدياً منسجماً صدر من مشكاة واحدة وانساق إلى هدف واحد ، يمهّد أوله لآخره وتصدق نهايته بداياته .

لقد اشتمل القرآن الكريم على وفرة غزيرة من القصص القرآني الواعى المحكم ، يدل على حقيقة الدين ويحدد تحديداً الطريقة المثلى لرضا رب العالمين ، في الوقت الذي يشرح للناس سنن الله في خلقه . ولم يكن هذا القصص سرداً مجرداً لبعض الروايات القديمة يتسلى بها السامعون ، يصدق بعضها ويكذب بعضها كما في القصة الإنجيلية ، ولكنها أى قصص القرآن قد اتسمت بالواقعية المطلقة التي لازيف فيها ، ولم تكن سرداً تاريخياً ، فقد يتبادر إلى الذهن أن القصة القرآنية رواية تاريخية خالصة ، تحكى أحداث

التاريخ ووقائعه ، وماهكذا القصة في القرآن الكريم ، إذ القرآن لا يهدف من ورائها إلى سرد الوقائع والأحداث كما ذكرت ، شأنه في ذلك شأن الروايات والأساطير وإنما هو يعمد إلى الحدث الواقع فيتخير منه الجانب الذي يخدم ما يتعرض له من قضايا ليقدمه في سياق مناسب من خلال القلب القصصى . وأذكر هنا أن القرآن كان تاريخا لسير الدعوة الدينية في الحكاية وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة ، وماهي العقبات التي اعترضتها في هذا السير ؟ وهل وقفت عندها أم تغلبت عليها ؟ هذا إلى جانب توضيح وسائل الأنبياء في تبديد هذه العقبات والإصرار على مدافعتها ، وكيف قابلت الأمم على مر العصور دعوة الأنبياء ؟ ومصير الصراع بين الغي والرشد .

ونرى القرآن الكريم يذكر القصة في مواطنها بأساليب متغيرة أو في صور متقاربة ، ولكل منها مغزى لا يؤديه غيره ، ومرمى لا يصيبه سواه . وإلى هذا يشير قوله تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . ما كان حديثا يفترى » (١) . و « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (٢) . وفي ضوء الآية الثانية نستنبط غرضا هاما للقصة ، يقوم على تثبيت العقيدة وترسيخها في أفئدة المؤمنين من خلال ما يعرض عليهم من قصص الأحداث الماضية .

وهناك ملحوظة يجدر الإشارة إليها ، ونحن بصدد الحديث عن أغراض القصة القرآنية ، وهي أن القصة القرآنية ليست عملا فنيا مقصودا لذاته ، وإنما هي وسيلة للإرشاد والإيمان والعظة وشرح الأوامر والنواهي الشرعية وشرح

(١) سورة يوسف : آية ١١١ . (٢) سورة هود : آية ١٢٠ .

مفكر الحق والخير والتعاون بين الناس كمنهاج قويم في حياتهم ، ومن هنا كانت القصة إحدى وسائل القرآن إلى غايته :

« فالقصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه ، وطريقة عرضه وسير حوادثه كما هو الحال في القصص الفني ، إنما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع ، وإن القصة التي ترد فيه لا تختلف في غايتها عن المثل الذي يضر به للناس . » (١)

وكان من أعظم أغراض القصة إثبات الوحي والرسالة في مقدمات بعض القصص أو في أعقابها ، جاء في أول سورة « يوسف » : « إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن . وإن كنت من قبله لمن الغافلين » (٢) .

وجاء في سورة « القصص » قبل عرض قصة « موسى » : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » (٣) وبعد انتهائها : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين . أو ما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (٤) .

(١) د . بكرى شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن ، ص ٢١٧ . ط .

بيروت .

(٣) سورة القصص : آية ٣

(٢) سورة يوسف : ٢ — ٣

(٤) سورة القصص : ٤٤ — ٤٦

وجاء في سورة آل عمران : في مبدأ عرضه لقصة مريم : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون » (١).

وجاء في سورة « ص » قبل عرض قصة آدم : « قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون . ما كان لى من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين . إذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشر آمن طين .. (٢) . فهذا الإرهاس بذكر الوحي والرسالة يمهّد لقصة خلق آدم عليه السلام تنبيهاً للعقيدة في قلوب المؤمنين . وجاء في سورة « هود » بعد قصة « نوح » « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (٣) .

وكان من أغراض القصة : بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة ، وأن استقبال قومهم لهم متشابه ، فضلاً عن أن الدين من عند إله واحد ، وأنه قائم على أساس واحد — وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة أيضاً ، مكررة فيها طريقة الدعوة على نحو ما جاء في سورة هود :

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه : إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملاء الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشراً مثلاًنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى

لکم علینا من فضل بل نظنکم کاذبین « (١) إلى أن يقول : « ویاقوم لا أسألكم علیه مالا إن أجرى إلا علی الله » (٢) وإلى أن يقولوا له : « یانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقین » (٣) .

ولا یخفی علینا ما تضمنته هذه الأخبار من ألوان السخرية والاستهزاء التي ظل علیها المشركون ، ووصلوا فيها إلى درجة بالغة من الكفر والجحود كما جرى علی السنتهم ، فكان هذا السرد القصصی له أثره في توجيه أنظارنا إلى ثبات الأنبياء ومن معهم من المؤمنین في حومة الصراع ضد الشرك والطغيان . والصورة نفسها تتضح في قصة هود علیه السلام : « وإلى عاد أخاهم هودا قال : یاقوم اعبدوا الله ما لکم من إله غیره . إن أنتم إلا مفترون . یاقوم لا أسألكم علیه أجراً إن أجرى إلا علی الذي فطرني ، أفلا تعقلون ؟ » (٤) .

فقد أوضح لهم هود علیه السلام أنه رسول من عند الله - يحضهم أطيب النصائح ويدعوهم إلى أسمى المقاصد وهي عبادة الله الواحد . ويمحى علی لسانه هذا السؤال الذي يتضمن معنى الحيرة والتعجب ويوحى بالإنكار الشديد علی ما اتخذوه من موقف مغاير ، وذلك بقوله : « أفلا تعقلون ؟ » . ولكن هؤلاء لم يستجيبوا لنداء الحق ، وضرّبوا بكلامه عرض الحائط واستغرقوا في أهوائهم المضلّة كما حکاه القرآن : « قالوا : یاهود ما جئنا ببینه ، وما نحن بتارکی آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنین . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال إني أشهد الله واشهدوا أني بریء مما تشرکون من دونه ، فکیدونني جميعاً أنم لا تنظرون » (٥) . بهذه الإجابة ، رد کيدهم في نحورهم

(٢) سورة هود : ٢٩

(١) سورة هود : ٢٥ — ٢٧

(٤) سورة هود : ٥٠ — ٥١

(٣) سورة هود : ٣٢

(٥) سورة هود : ٥٣ — ٥٥

وأعرض عنهم .

أما قوم صالح فقد أنكروا عليه توجيههم نحو الإيمان بالتوحيد أيضاً :
« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو
أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروا ثم توبوا إليه . إن ربى قريب
محيب . قالوا : يا صالح ، قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أنتهانا أن نعبد ما يعبد
آباؤنا ، وإننا لفي شك مما ندعوننا إليه مريب » (١) .

« وهذا الإنكار الشديد من جانب قومه يدل عليه الاستفهام في قوله تعالى :
أنتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ » (٢) وألحق به الأسلوب الخبرى الذى
يوحى بعدم إيمانهم وسرعة شكهم : « وإننا لفي شك مما ندعوننا إليه
مريب » .

وكان من أغراض القصة بيان أن الله ينصر أنبياءه فى النهاية ويهلك
المكذبين ، وذلك تثبيتاً للعقيدة فى الأئمة ، وتبعاً لهذا الغرض كانت ترد
قصص الانبياء مجمعة ، مخومة بمصارع من يكذبونهم كما جاء فى سورة
« العنكبوت » :

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فأخذهم
الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة ، وجعلناها آية للعالمين » (٣)
وهذا إيجاز يتضمن بداية القصة بالرسالة وخاتمها بالعقاب والجزاء لقومه
الكفار .

(٢) سورة هود : ٦١ — ٦٢

(١) سورة هود : ٥٧

(٤) سورة العنكبوت : ١٦

(٣) سورة العنكبوت : ١٤ ، ١٥

« وإبراهيم إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون » (١) إلى أن يقول : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه . فأنجاه الله من النار . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٢) .

ويتضح في القصص القرآني أن الله تعالى كان يعجل بالعقوبة الرادعة للأمم الماضية :

« ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين » (٣) إلى أن يقول : « إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » (٤) .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً ، فقال : يا قوم اعبدوا الله وارجئوا اليوم الآخر ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين » (٥) . وهذا من هديع التصوير القرآني للمشاهد الحسية التي يكون لها أثرها في النفوس ويصحبها الزجر الشديد والوعيد والتهديد .

« وعاداً وثمود ، وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين » (٦) . ويعرض القرآن لجزء هذه الأمم ونهاية مصيرها في الحياة الدنيا مجتمعة في نفس السياق بقوله تعالى : « فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ،

(١) سورة العنكبوت : ٢٤

(٢) سورة العنكبوت : ٢٨

(٣) سورة العنكبوت : ٣٤

(٤) سورة العنكبوت : آية ٣٧

(٥) سورة العنكبوت : ٣٨ ، ٣٩

وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (١). وتلك هي النهاية الواحدة للمكذابين ، وفيها أجل عبرة وأعظم عظة للمؤمنين .

ومن أبرز أغراض القصة الأخرى بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفياؤه ، كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى ، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى ، ويكون إبرازها هو الغرض الأول ، وما سواه يأتي في هذا الموضع عرضاً .

هذا إلى جانب تصديق التبشير والتحذير ، وعرض نموذج واقع من هذا التصديق وهو من أبرز أغراض القصة القرآنية ، كالذي جاء في سورة « الحجر » : « نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » (٢) . فتصديقاً لهذا وذلك ، جاءت القصص على النحو التالى :

« ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاماً . قال : إنا منكم وجلون . قالوا : لا توجل . إنا نبشرك بغلام عليم » (٣) . الخ . وفى هذه القصة تبدو الرحمة .

ثم « فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون . قالوا : بل جئناكم بما كانوا فيه يمترون ، وآتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأمر باهلك بقطع من الليل ، وانبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٠

(٢) سورة الحجر : ٤٩ ، ٥٠ (٣) سورة الحجر : ٥١ — ٥٣

وقضينا إليه ذلك الأمر، أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » (١). وفي هذه القصة تبدو « الرحمة » في جانب لوط ويبدو العذاب « الألم » في جانب قومه المهلكين . وتنتقل السورة إلى صورة أخرى من العقاب :

« ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » (٢). وفي هذه القصة يبدو « العذاب الألم » للمكذابين بعد أن كانوا يتنعمون في ديارهم ويأمنون . وهكذا يصدق الإنباء ويبدو صدقه في هذا القصص الواقع بهذا الترتيب .

ونلاحظ أن القصة القرآنية تمحصر في بعض الأحيان على أن تبرز أشخاصاً بأسمائهم أو هيئاتهم أو تبرز الأماكن كذلك بأسمائها أو صفاتها . وفي بعض الأحيان تجمل ذلك أو تجاوزه فلا تذكر شيئاً منه ، فهي ليست رواية تاريخية لا بد لها من السرد الكامل ، والتحديد الواضح للأشخاص والأماكن بالأسماء والصفات ، إنما هي قصة ذات هدف ، تأخذ من حقائق الأحداث الجانب الذي يحقق لها الغاية ويوصل بها إلى الهدف ، فإن كان ذلك يتحقق من خلال التعرف على اسم الشخص ذكر اسمه ، وإن كان يتحقق من خلال التعرف على سجاياء وصفاته عرف بها وترك ما عدا ذلك .

وإذا أردنا أن نؤيد هذا القول بالأمثلة القصصية ، نرى أن قصة أصحاب الكهف لم تتعرض لأسماء أحد من أشخاصها سواء في ذاك أصحاب الكهف وقومهم ، وما ذلك إلا لأن الغاية من القصة لا تحتاج إلى إظهار ذلك قدر احتياجها إلى تبين صفاتهم . قال تعالى : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم

هدى^(١) . أما في قصة (مريم) عليها السلام التي ذكرت في سورة آل عمران فنجد الأمر على العكس ، فالأسماء تذكر ، حتى أسماء من يبشر بولادتهم ، وامرأة عمران تنذر ما في بطنها ، فإذا ولدته كان (مريم) فإذا كفلت (مريم) كان السكافل (زكريا) الذي يستجيب لدعائه فيبشر يحيى ثم تبشر مريم (يعيسى) . وفي قصة ابني آدم ترك تسميتها أى الأشخاص ، ويسمى الطائر كما سمى في قصة سليمان ، فهو في الأولى (غراب) وفي الثانية (هدهد) .

، الفصل الخامس

من صور التركيب الإسنادى فى القصص القرآنى =
، الجملة الخبرية فى القصة القرآنية ،

خصائص الأسلوب الجيد

إن اللغة العربية التي نزل بها القرآن وجاء بها البيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لها وجوه وأحكام ومعان وأقسام ، حتى لم يقف عليها من يريد تفهم معانيها واستنباط ما يدل عليه لفظها ، لم يبلغ مراده ولم يصل إلى بغيته . ففنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم ، ومنها ما هو خاص له دون غيره ، ويجمع ذلك في الأصل « الخبر » و « الطلب » . والأسلوب في أصله هو طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر في نفس القارئ أو السامع ، فالحقائق المجردة كالأحصائيات ونظريات الهندسة وقواعد النحو والصرف — لا أسلوب لها — أى لا تؤثر من ناحية لغتها ونظمها . وهكذا يكون للأسلوب أثر في النفس غير الأثر الذي يحدثه المعنى ويكون الأثر الأقوى إذا عرض الأسلوب في صورة جيدة ، ومن أجل هذا قد يعرض شاعر أو كاتب لمعنى ، ويعرض للمعنى ، نفسه كتاب أو شعراء آخرون ، فتختلف قيمة أقوالهم تبعاً لاختلاف أساليبهم .

ويمكن القول بأن للأسلوب غرضين :

(١) نقل المعانى أو الحقائق إلى ذهن السامع أو القارئ . وللأسلوب أهمية كبيرة في ذلك ، فإذا كانت المعانى جيدة زادها الأسلوب الجيد جودة وقوة . وليس الأسلوب إلا ثوب المعنى ، فقد يكون الثوب جيداً وقد يكون رديئاً ، ولا تنفع كثيراً جودة الثياب إذا كان حشوها رديئاً . ومن أمثلة الأسلوب الجيد للمعنى الجيدة قول « زهير بن أبى سلمى » في معلقته المشهورة :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله	على قومه يستغن عنه ويذمهم
ومن هاب أسباب المنايا ينلته	وإن يرق أسباب السماء بسلم

ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمًا عليه ويندم
ومها تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم (١)

(٢) نقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفس القارئ أو السامع ، فكل كاتب أو شاعر له شخصيته ، وله شعوره نحو الشيء الذي يتحدث عنه ، وهو يصبغ الشيء الذي يكتب فيه بشيء من روحه ، ويلونه لونا من نفسه ، ولذلك يختلف أثر الكتاب والشعراء في نفوس السامعين ولو تناولوا معنى واحداً . ومن أجل هذا وجب في رأي أن يحتفظ كل أديب بشخصيته ولا يقلد غيره ، لأن الأسلوب هو إحساس النفس ، وإنما يرقى بترقية إحساسه هو ، لا بتقليد غيره — نعم إن كان الكاتب أو الشاعر يستفيد كثيراً من أسلوب غيره ، ويتعلم منه كيف ينظم فكره ، وكيف يجود أسلوبه ، ولكن ينبغي أن يستفيد من هذه الأشياء في قوة أسلوبه هو ، محافظاً على شخصيته .

وتختلف أساليب الأدباء باختلاف البيئة ، واختلاف العصور ، فأسلوب البدوي غير أسلوب الحضري ، وأسلوب الكتاب في العصر الأموي وصدر الإسلام يبعد عن أساليب الكتاب في العصر العباسي قليلاً أو كثيراً . وأساليب كتاب العصر الواحد تختلف باختلاف الموضوعات التي يكتب فيها ، فهو حين يعاتب يرق ويعذب ، وحين يفخر يأتي بحزب القول ، ونغم العبارة ، وحين يصف يعيل إلى جودة الخيال وحسن التشبيه ، وجيد الاستعارة ، وهكذا نرى الكاتب يلبس معانيه ثياباً من الألفاظ مختلفة الألوان ، ويجعل لكل معنى ما يناسبه من القول وكذلك الحال بالنسبة للشاعر والخطيب والروائي .

(١) الزوني : شرح المعلقة السبع ، ص ٩٠ ، مكتبة القاهرة ، ١٣٨٧ هـ

الجملة الخبرية في القصة القرآنية :

معنى الخبر :

الخبر كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده ، كقولك : قام زيد ، فقد أفدت العلم بقيامه ، ومن الخبر ما يبتدىء الخبر به ، فيخص باسم « الخبر » ومنه ما يأتي به بعد سؤال فيسمى « جواباً » كقولك في جواب من سألك : ما رأيك في كذا ؟ فيقول رأيي كذا وهذا يجوز أن يكون ابتداء منك فيكون خيراً ، فإذا أتى بعد سؤال كان جواباً (١) .

والخبر كلام يحتمل الصدق والكذب ، نحو قولك : هو كالأسد بأساً والبحر جوداً ، والسيف مضاء . فقد تكون النسبة الكلامية المنهومة من هذه الجملة مطابقة لما في الخارج ، فيكون الخبر صدقاً ، والخبر به صدقاً أو غير مطابقة له ، فيكون الخبر كاذباً والخبر به كاذباً (٢) . والخبر منه جزم ، ومنه مستثنى ومنه ذو شرط ، فالجزم مثل : زيد قائم وقد جازمت في خبرك على قيامه ، والمستثنى : قام القوم إلا زيداً ، فقد استثنيت زيداً مما قام ، وذو الشرط إذا قام زيد صرت إليك ، فإنما يجب مصيره إليه إذا قام زيد ، فهو معلق بشرط وكل واحد من هذه المعاني إما أن يكون مثبتاً وإما أن يكون منقياً ، فالمثبت كقولك : قام زيد ، والمنقى ما قام زيد . والمستثنى من المثبت منقى ، والمنقى إذا استثنى منه مثبت . وليس يخلو الخبر المثبت أو المنقى من أن يكون واجباً أو ممتنعاً أو ممكناً . فالواجب مثل حر النار ، لأنه واجب في طبعها ، والممتنع مثل حرارة الثلج لأن ذلك ممتنع في طبعه والممكن مثل قام زيد لأنه قادر عليه

(١) قدامة بن جعفر : نقد النثر ، ص ٤٤ ، مطبعة مصر ، ١٩٣٨ م .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٤

وجائز أن يقع وألا يقع (١).

ثم لا يخلو الخبر بعد هذا كله من أن يكون عما مضى مثل قام زيد ، أو عما يستقبل مثل يقوم زيد ، أو عما أنت فيه مثل قائم زيد ، ولا يخلو بعد ذلك من أن يكون عاما كلياً ، أو خاصاً جزئياً أو مهملًا . فكل ماظهر فيه حرف العموم فهو عام مثل :

كل القوم جاءنا وجميع المال أنفق ومنه قول الله عز وجل : (كل شيء هالك إلا وجهه) (٢) . فهذا لا يجوز أن يراد به الخصوص لظهور حرف العموم فيه ، وكل ماظهر فيه حرف الخصوص فهو خاص مثل قولك : بعض المال قبضت ، ومن القوم من جاءنا ، ومثل قوله عز وجل : (ومن الأعراب من يتخذ ما ينتق مغرماً) (٣) فهذا لا يجوز أن يراد به العموم لظهور حرف الخصوص فيه ، وما لم يظهر فيه حرف العموم ولا حرف الخصوص فهو مهمل ، وقد يكون عاما وقد يكون خاصاً ، واعتباره أن ننظر ، فإن كان في الأشياء الواجبة أو المنتفعة فهو عام ، وإن كان لفظه واحداً كقول الله عز وجل (بل الإنسان على نفسه بصيرة) (٤) لأنه من الواجب أن يكون كل أحد على نفسه بصيرة . وإن كان من الممكن فهو خاص كقول الله عز وجل : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) . فهذا خاص ، وهذا لفظه على الجماعة لأن القول بمن قال والجمع من الأشياء الممكنة ، وجائز أن يقع منهم وألا يقع . فهذا أصل مذكور عن الخبر ويعمل به في الخاص والعام والمهمل .

(١) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٤ (٢) سورة القصص : آية ٨٨

(٣) سورة التوبة : آية ٩٨ (٤) سورة القيامة : آية ١٤

(٥) سورة آل عمران : آية ١٧٣

وصور الخبر تختلف في أساليب اللغة باختلاف أحوال المخاطب ، فنراه حيناً مجرداً من أدوات التوكيد ، ونجد حيناً مؤكداً بمؤكد واحد ، وحيناً مؤكداً بأكثر من مؤكداً ، فيقال : الفراغ مفسدة ، إن الفراغ مفسدة ، إن الفراغ لمفسدة . وهذه الأحوال الثلاثة تسمى أضرب الخبر وأنواعه وهذا ما أردت بيانه كما يأتي :

(١) يتمجرد الخبر من التوكيد حين يكون المخاطب خالي الذهن من مدلول الخبر ، نحو : الحق أحق أن يتبع و (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) (١) والحياة زينة الإنسان . فالجمل الاسمية الثلاثة مثبتة مجردة من التوكيد .

(٢) ويؤكد بمؤكد واحد حين يكون المخاطب شاكاً في مدلول الخبر ، طالبا للتثبت من صنيعه ، نحو : إن الصدق فضيلة .

(٣) ويؤكد بمؤكد أو أكثر ، حين يكون المخاطب منكراً نحو قوله تعالى : (إن النفس لأماراة بالسوء) (٢) . ويقع التوكيد إن كما في المثال السالف ، وبأن نحو قوله تعالى : (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) (٣) و بلام الابتداء ، نحو قوله تعالى : (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) (٤) وبأحرف التنبيه ، نحو قوله تعالى : (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) (٥) ، وبالقسم مثل : (نالله لا يذهب العرف بين الناس) ، وبنون التوكيد ، نحو قوله تعالى : (لتبعثن ثم لتنبئون) (٦) وقوله تعالى في قصه يوسف : (ليسجنن وليكونا من الصاغرين) (٧)

-
- | | |
|-----------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الكهف : آية ٤٦ | (٢) سورة يوسف : آية ٥٣ |
| (٣) سورة الطلاق : آية ٦٥ | (٤) سورة يوسف : آية ٧٥ |
| (٥) سورة آل عمران : آية ١١٩ | (٦) سورة التغابن : آية ٦٤ |
| (٧) سورة يوسف : آية ٣٢ . | |

وبالحروف الزائدة ، نحو قوله تعالى : (لست عليهم بمسيطر)^(١) ، وقوله تعالى : (ما جاءنا من بشير ولا نذير) وبالتكرير ، كقوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون) وبأما الشرطية التفصيلية ، كقوله تعالى : (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) . وكما يكون التوكيد في الإثبات يكون في النفي ، نحو : ما المقتصد بمفتقر ، ونحو : والله ما المستشير بنادم . وسوف أعرض لأمثلة أخرى تتصل بالتركيب الإسنادي في القصة القرآنية بعد أن ألقيت الضوء على بعض صور الخبر باعتباره يتضمن الجملتين الاسمية والفعلية كما سبق ، والآن أرد أن أحصر أغراض الخبر مجملة في غرضين رئيسيين هما :

(١) إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ، نحو : كان عمر بن عبد العزيز أعدل خلفاء بني أمية ، هذا يقال لمن لا يعرف ذلك ، ويسمى هذا الغرض (فائدة الخبر) .

(٢) إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم : كأن توجه الكلام إلى شخص فنقول : (أنت ألقيت قصيدة جيدة في المذيع أمس) ندله على علمنا بهذا الأمر ويسمى هذا الغرض (لازم الفائدة) .

من صور التركيب الإسنادي في القصة القرآنية :

الإسناد معناه : ضم كلمة أو ما يجري مجراها إلى أخرى^(٢) أو ما يجري

(١) سورة الفاشية : آية ٢٢

(٢) أحمد الحملاوي : زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع ص ١٥ ،

سجراها على وجه يفيد الحكم بإحداها على الأخرى ثبوتاً أو نفيًا . والأصل في الكلام الخبري أن يلحق إلى المخاطب لإفادة الحكم الذي تضمنته الجملة نحو : الإسلام حق ، لمن لا يعلم حقيقة الإسلام ، ويسمى ذلك الحكم فائدة الخبر ، أو لإفادة كون المتكلم عالماً بالحكم نحو قولك لحافظ القرآن : أنت حفظت القرآن . ويسمى لازم الفائدة .

وبعد عرضي للخبر وصوره وأغراضه أود أن أصل من هذه الوسيلة إلى غاية تقوم عليها وتتصل بأحداث القصص القرآني الذي أردت هنا أن أعرض له من حيث التركيب الإسنادي باعتباره يشتمل على الجملة الخبرية كما سيتبين لنا إن شاء الله .

ونرى في الكلام العربي أخباراً كثيرة لا يقصد بها إفادة المخاطب الحكم . ولا أن المتكلم عالم به ، فتكون قد خرجت عن معناها الأصلي الذي يتضمنه الخبر كما بينت إلى أغراض أخرى عديدة .

وسوف أستشهد في هذا الصدد ببعض قصص الأنبياء المذكورة في سورة « الأعراف » وأقوم بتحليل هذه القصص لغوياً مشيراً إلى صور التركيب فيها وبيان وجهات نظر المفسرين واستعراض آرائهم وما للنحاة القدامى من آراء في التوجيهات الإعرابية التي تتضمنها الجمل القرآنية . ولنبدأ بقوله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « وكذلك نرى إبراهيم منكسوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » (١) .

قد زيدت التاء والواو للمبالغة في الصفة ، ومثله الرغبة والرهبوت مبالغة في الرغبة والرهبه قيل أراد بملكوت السماوات والأرض ما فيها من الخلق ،

وقيل كشف الله له عن ذلك حق رأى إلى العرش وإلى أسفل الأرضين .
وأتبع القرآن ذلك بالجملة الشرطية (المراكبة) وقال حكاية من إبراهيم أيضا :
(فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين .
فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربي لأكونن من
القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال
يا قوم إني برىء مما تشركون) (١) .

توالت الجمل الشرطية (المراكبة) في الآيات الكريمة السابقة ، وقد جن عليه
الليل أى ستره بظلمته ، ومنه الجنة والمجن كله من الستر ، والنساء للعطف على
قال إبراهيم : أى واذكر إذ قال وإذ جن عليه الليل فهو قصة أخرى غير قصة
عرض الملكوت له .

وجواب لما (رأى كوكبا) وقد قيل أنه رآه عن شق الصخرة الموضوعة
على رأس السرب^(٢) الذى كان فيه ، وقيل رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان
وقت غيوبة الشمس .

وجملة (هذا ربي) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل فإذا قيل عند
رؤية الكوكب ؟ ويتضح التوكيد بالنون في صيغة القسم (لأكونن من القوم
الضالين) .

وهناك جملة مثبتة مؤكدة على لسان إبراهيم (إني وجهت وجهى للذى
فطر السماوات والأرض خنيقا وما أنا من المشركين) (٣) وهذا الخبر يدل على

(١) سورة الأنعام : ٧٦ — ٧٧

(٢) السرب : بفتحين بيت في الأرض لا منفذ له

(٣) سورة الأنعام : ٧٩

أنه قصد بعبادته وتوحيده الله عز وجل وأخلص له العبودية ، وذكر الوجه لأنه العضو الذي يعرف به الشخص أو لأنه يطلق على الشخص كله .

وفي قصة نوح عليه السلام يبدو أسلوب السخرية والاستهزاء من جانب المشركين : (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) (١) .

نلاحظ في قوله تعالى : « قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين » أنه لم يقل هنا الذين كفروا من قومه كما قال في قوم هود ، لأن الملأ من قوم هود كان فيهم من آمن ومن كفر بخلاف الملأ من قوم نوح فكلهم أجمعوا على هذا الجواب فلم يكن أحد منهم مؤمناً (٢) .

وكان هناك سؤالاً مقدرًا تديره : ماذا قال لهم ؟ فذكرت الجملة الفعلية في قوله تعالى : (قال الملأ من قومه ...) على سبيل الاستئناف فهي جملة استئنافية ، وأفاد النفي في قوله تعالى : (ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين) تعليل الحكمة من إرساله وإبطال مزاعمهم التي يزعمونها .

وهذه الجمل القرآنية مرتبطة ببعضها وتكشف عن مجرى الأحداث الماضية كما يبدو من خلال السياق ، ويأتي الأسلوب الخبري بعد ذلك ليقرر عاقبة هؤلاء المكذابين متحدثاً بصيغة الزمن الماضي : (فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك

(١) سورة الأعراف : ٦٠ : ٦٢

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح الجلالين للدقائق الخفية للجمال ، ج ٢ ،

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين (١) .

وفي قصة هود من نفس السورة يكشف القرآن عن موقف الكفار الذي كان عليه قوم نوح من قبل : (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) (٢) والغرض من الخبر في هذه الجمل السخرية والاستهزاء أيضاً والسفاهة الخفة والحمق .

وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المكافحة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم أدب حسن وخلق وعظيم وإخبار الله تعالى ذلك تعام لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف بغضون عنهم ويسبلون أذيالهم عما يكون منهم (٣) .

وأكدت الجملتان على لسان الكفار بأكثر من مؤكد (إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) يان واللام .

ويجري على لسان هود مثلما جرى على لسان نوح من علامات الصفح والعفو كما أوضحه القرآن بقوله : (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) والخبر هنا يتضمن تقديم الجار والمجرور الذي يفيد إحضاره النصيحة لإياعم وعدم تقصيره في دعوتهم وتوجيههم ، وتأتي نهايتهم :

(وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) ، الجملة الفعلية

(١) سورة الأعراف : آية ٦٣ (٢) سورة الأعراف : آية ٦٦

(٣) تفسير النسفي ، ج ١ ، ص ٤٥ ، مطبعة محمد علي صبيح — الأزهر

(٤) سورة الأعراف : ٧٢

الماضوية قررت هنا إبراز المصير المؤلم الحتمي لهؤلاء المكذبين ونفت عنهم الإيمان تعليلاً للجزاء الرادع الذي لم يبق لهم أصلاً ولم يترك لهم أثراً .

وعرضت سورة الأعراف بعد ذلك لموقف قوم صالح : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) حذف العامل وتقديره وأرسلنا إلى ثمود أخاهم ، و ثمود قبيلة سموا باسم أبيهم وصالح عطف بيان ، وامتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسماً لقبيلة (*) . وقال أبو حاتم : اسم ينصرف لأنه أعجمي . قال النحاس : وهو غلط لأنه من الثمد وهو الماء القيل (١) .

وعبر القرآن عن تكذيبهم لصالح عليه السلام في صورة الأسلوب الخبري بقوله على لسانهم : (قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون) (٢) وهي جملة مستأنفة لأنها جواب عن سؤال مقدر كما سبق أن أوضحته . ويعدد القرآن النعم الجزيلة في نفس السياق بقوله على لسان صالح : (واذكروا إذ جعلناكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً) (٣) عدد نعمة عليهم وجعل لهم مباءة في الأرض وهي

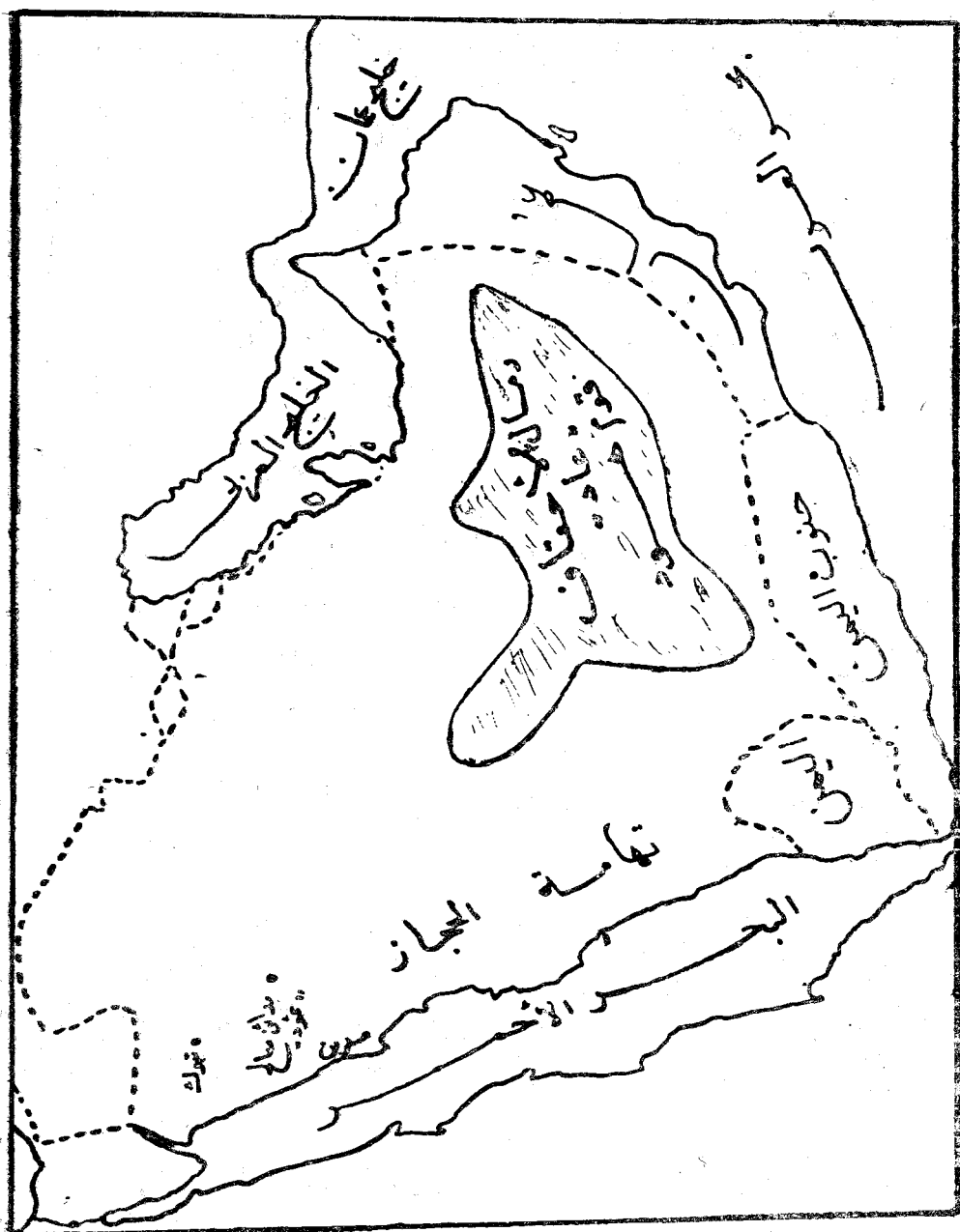
(*) كانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى . وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك ، كما كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله فيهم رجلاً منهم ، هو عبد الله ورسوله صالح عليه السلام .

(البداية والنهاية ص ١٣٠ ، ١٣١ : ابن كثير ، مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ)

انظر الخريطة الموضحة لبيان مواقع الأحداث

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ٢٠٩

(٢) سورة الأعراف : آية ٧٣ (٣) سورة الأعراف : آية ٧٤



المنازل الذي يسكنونه وجملة (تتخذون من سهولها قصوراً) أى تتخذون من سهولة الأرض قصوراً وهي جملة مدينة لجملة (وبوأكم فى الأرض) وكرأنها تفسيرية أو توضيحية لها . ومعناها تتخذون فى الجبال التى هى صخور بيوتاً تسكنون فيها وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفاً يسكنون فيها لأن الأبنية والسقوف كانت تنفى قبل فناء أعمارهم وانتصاب بيوتاً على أنها حال مقدرة أو على أنها مفعول ثانٍ لتنحتون فى تضمينه معنى تتخذون .

ويشير القرآن الكريم إلى إثمهم الذى ارتكبهوه فى نفس السياق بقوله : (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم) (١) والخبر فى الجملتين الفعليتين للتوبيخ من عظيم جرمهم ولذلك أظهر القرآن عاقبة هذا الصنيع من جانبهم بقوله : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) (٢) .

وقد توالى الجمل الفعلية الماضوية فى السياق السابق وتكرر حرف العطف الفاء الذى يفيد التعقيب والتوالى لجرى الأحداث وحين بوجه صالح عليه السلام النداء إليهم يظهر لهم إخلاصه وأنه قد أدى الأمانة التى كلف بها ونفى القرآن عنهم قبول النصيحة فى نهاية الآية بقوله : (ولكن لا تحبون الناصحين) فالجملة المضارعية منفية ومسبوقة بحرف الاستدراك لكن ، وقد أشار هنا إلى ما وقع عليهم من جزاء ، ومعنى جاثمين لا صقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يحجم الطائر ، وأصل الجثوم للأرنب وشبهها (٣) ، وقيل للناس والطير .

(١) سورة الأعراف : آية ٧٧ (٢) سورة الأعراف : ٧٨ : ٧٩

(٣) القاموس المحيط واللسان مادة (جثم)

ومحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية كما وقع من النبي صلى الله عليه وسلم من التكليم لأهل قليب بدر بعد موتهم أو قال لهم عند نزول العذاب بهم ، وكأنه كان مشاهدا لذلك فتحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب ، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهداً في إبلاغهم الرسالة ومحض النصيح . وهذا ما نتبينه في تلك الجمل الخبرية المتوالية ، لـكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه وفي قصة لوط من نفس السورة يقرر القرآن ما وقع فيه قوم لوط من أظهر الفواحش وارتكابهم لأعظم الجرائم ويؤكد ذلك بإن واللام في قوله : (إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) وهذا التوكيد للجمل يقرر وقوع هذا العمل من جانبهم والخبر في الجملة للاستنكار الشديد واللوم الكثير وفي قوله : (بل أتم قوم مسرفون) أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد (١) .

وقد عبر في الآية بضمير المخاطب للجمع ووصفهم بكونهم مسرفين إشارة إلى مبالغتهم الشديدة في الفسق والخروج عن حدود الشرع واستحلالهم لما حرم الله تعالى .

والسياق القرآني يحدد النتيجة اللازمة والمصير الذي يناله كل من الفريقين : (فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) . وقبل أن يصل القرآن إلى

هذه النتيجة يذكر ما ذكره قوم لوط الفاسقون في جملة خبرية مؤكدة (إنهم أناس يتطهرون) وهذا تعليل لما أمروا به من الإخراج ، ووصفهم بالتطهر يمكن أن يكون على حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة — يقصدون المؤمنين — فلا يساكنوننا في قريتنا ، وبمحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء وهو كثير في قصص القرآن . واستثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن به في قوله تعالى : (إلا امرأته كانت من الغابرين) أي من الغائبين عن النجاة .

وكشف القرآن في الضيغ الخبرية عن مصيرهم المحتوم بقوله : (وأمطرنا عليهم مطراً) وقد قيل في هذه الجملة الفعلية : أمطر بمعنى إرسال المطر ، وقال أبو عبيدة : مطر في الرحمة وأمطر في العذاب ، والمعنى هنا أن الله أمطر عليهم مطراً غير ما يعتادونه وهو رميهم بالحجارة .

وننتقل سورة الأعراف بعد ذلك إلى الحديث عن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ويحذف العامل في قوله تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيباً) وهي جملة معطوفة على ما تقدم أي وأرسلنا (*) .

(وقد جاءكم بينة من ربكم) جملة ماضوية دخلت قد عليها فأفادت التحقيق

(*) مدين : اسم أعجمي ، وهو اسم قبيلة سموها باسم أبيهم مدين ابن إبراهيم الخليل وشعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل ، فهو أخوهم في النسب وليس من أنبياء بني إسرائيل . ومدين اسم لقريّة شعيب أيضاً فهو مشترك بينها وبين القبيلة وبين أبيها . (الجمل : التوحّات الإلهية ج ٢ ، ص ٦٣) .

والبيئة هي البرهان الساطع والحجة القوية . ونقول إن الأنبياء عليهم السلام قد استخدموا وسائل مطابقة في دعوتهم تقوم على إظهار الحجة ودحض الشبهة بقصد الإقناع .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) (١) . والمراد بالملأ في هذه الآية الأشراف المستكبرون ، وهم لم يكتفوا بذلك عن ترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه ، بل جاوزوه بغيا وبطراً إلى توعدهم ونبههم ومن آمن به بالإخراج من قريتهم أو عوده هو ومن معه في ملتهم الكفرية (٢) . وجاءت صيغة القسم المتضمنة للفعلين المؤكدين بالنون : لنخرجنك ، لتعودن إظهاراً لتصميمهم على أحد أمرين : الإخراج أو العودة إلى ملتهم . ويأتي الخبر ليقرر أغراض الكفار وما يتخذونه من وسائل رادعة ضد أنبياء الله في قوله تعالى : (قال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون) والسلام في قوله : (لئن اتبعتم شعيباً) مواطئة لجواب قسم محذوف : أى دخلتم في دينه وتركتم دينكم ، وجواب القسم الجملة الاسمية المؤكدة (إنكم إذا لخاسرون) وبعد توالي الأخبار التي أثرت إليه يقع العذاب على قوم شعيب ويبرز الخبر ليحقق أغراضاً أخرى « الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين » (٣) ، هذه الجملة مستأنفة مبنية لما حل بهم من

(١) سورة الأعراف: آية ٨٨ (٢) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم،

ج ٣ ، ص ٤٤٤ ، مطابع الشعب

(٣) سورة الأعراف : آية ٩٠

النعمة ، والموصول مبتدأ ، وكأن لم يغنوا خبره ، يقال : غنيت بالمكان إذا أقمت به ، وغنى القوم في دارهم أى طال مقامهم فيها ، والمعنى المنزل ، والجمع المغاني (١) . قال حاتم الطائي :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى وكلا سقانا بكاسيها الدهر
فما زادنا بغياً على ذى قرابة غنانا ولا أدرى بإحساننا الفقر

ومعنى الآية :

الذين كذبوا شعبياً كأن لم يقيموا في دارهم ، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب والموصول في الذين كذبوا شعبياً مبتدأ خبره (كانوا هم الخاسرين) .

لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وهم المذكورون سابقاً أجمل حال سائر الأمم المرسل إليها فقال سبحانه في صيغة الاستثناء المفرغ : (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) أى وما أرسلنا في قرية من النرى من نبي من الأنبياء ، وفي الكلام محذوف : أى فكذب أهلها إلا أخذناهم (٢) والاستثناء مفرغ كما ذكرت أى ما أرسلنا في حال من الأحوال إلا في حال أخذنا أهلها ، فجعل أخذنا النصب . والبأساء البؤس والفقر (٣) ، والضراء : الضر .

(١) لسان العرب والصحاح مادة (غنى) . والتصعلك المراد الفقر .
(٢) الجمل : الفتوحات الالهية ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، مطبعة عيسى البابى .

الحلبى .

(٣) تفسير الطبرى : ١٢ / ٥٨٠

التركيب الاسنادى فى قصة اصحاب الكهف :

أود أن أشير إلى بعض صور التركيب الاسنادى فى هذه القصة باعتبارها من القصص الشهيرة التى تتضمن أعظم العبر وأجل العظات . وإنما أقصد بالتركيب الاسنادى هنا ما يدخر فى إطار الأسلوب الخبرى الذى سبق أن أشرت إليه واستشهدت ببعض قصص الأنبياء آتفاً ، وبهنا أن نركز فى هذا التركيب على الجملتين الاسمية والفعلية وما يشتملان عليه من بيان وتفسير .

(إذ أرى التنية إلى الكهف) (١) جملة فعلية ماضوية مبدوءة بإذ وهو ظرف للفعل مقدر تقديره اذكر أى صاروا إليه وجعلوه مأواهم ، والفتية هم أصحاب الكهف ، والكهف هو الغار الواسع فى الجبل . وقد لاحظت أن الزمن الماضى الأفعال هو الغالب على قصة أصحاب الكهف ولعله يشير إلى الأحداث الغابرة . فهذه القصة ترجع إلى أزمان بعيدة موهلة فى القدم ومن هنا يتكرر للفعل الماضى بصورة ملحوظة فى السياق القرآنى .

(فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) (٢) أى سددنا آذانهم بالنوم الغالب من سماع الأصوات وهذا فى رأى أبلى ما ذكر وعبر فيه عن النوم العميق بطريق الكناية . والمفعول محذوف أى ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيهاً للإنامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، وفى الكهف خرف لضربنا وانتصاب سنين على الظرفية وعدداً صفة لسنين أى ذوات عدد على أنه مصدر أو بمعنى معدودة على أنه لمعنى المفعول ، قيل : عدداً وقيل

غاية (١) فإن الأمد الغاية .

والمراد بالعلم الذى جعل علة للبعث هو الاختبار مجازا فيكون المعنى بعثناهم
لنعاملهم معاملة من يختمهم ، والمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين والكافرين
من أصحاب الكهف المختلفين في مدة لبثهم ومعنى أحصى أضبط (٢) .

والتركيب الإسنادى يتضمن الأسلوب الخبرى المتعدد في هذه القصة وترتبط
بالجمل القرآنية ببعضها عارضة لمجمل الأحداث في غابر الزمان عرضا دقيقا
ووصفا بديعا ، وإنما سررت هذه القصة على أسماع المؤمنين تثبيتا لأقدامهم
[وتحقيقا لإيمانهم بالله . (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) (٣)] الخبر هنا يتضمن
ضمير الجمع الظاهر المذكور في أول الجملة لغرض التعظيم والثناء ، وهذا شروع
في تفصيل ما أجمل في قوله تعالى : (إذ أوى الفتية) أى نحن نخبرك بخبرهم
بالحق أى قصصنا عليك بالحق . وجملة (آمنوا برهم) فعلية صفة لفعية
وعطف عليها جملة فعلية أخرى وهي (وزدناهم هدى) وجملة ثانية (وربطنا
على قلوبهم) أى زدناهم هدى بالتثنية والتوفيق ، وفيه التفات من الغيبة إلى
الخطاب وقويما قلوبهم بالصبر على هجر الأهل والأوطان وفراق الخلان
والإخوان ، والجمل الفعلية السابقة توحى بالنصر المبين من الله لهؤلاء الفتية
(نقص ، زدناهم هدى ، ربطنا . . . الخ) .

(١) تفسير الطبرى : ١٥ / ١٣٧

(٢) الشوكانى : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ .

(٣) سورة الكهف : آية ١٣ .

أشارت القصة في أسلوب خبري إلى قوة إيمانهم ورسوخ عقيدتهم كما يدل عليه قوله تعالى : (إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض) الظرف منصوب بربطنا . واختلف أهل التفسير في هذا القيام على أقوال وأخص هذه الأقوال ما أردت أن أشير إليه . وهو أنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم إنى لأجد في نفسى شيئا ، إن ربى رب السماوات والأرض فقالوا ونحن أيضا كذلك نجد فى أنفسنا فقاموا جميعا (فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا) (١) . وقال أكثر المفسرين : إنه كان لهم ملك جبار يقال له دقيانوس وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء النبية وعصمهم حتى قاموا بين يديه فقالوا ربنا رب السماوات والأرض . وقال عطاء ومقاتل : إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم (٢) . وقد نقوا عن أنفسهم التعلق بمعبود آخر كما فعل المشركون بقولهم : (ان ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا) أى لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا . واللام في قوله (لقد قلنا . . .) هي الموطئة للقسم ، والشطاط الغلو ومجاوزة الحد . والخبر في الجملة الفعلية الثانية للتمويل والمبالغة (٣) .

وحين عرض القرآن لموقف هؤلاء من أقوالهم أتى بالأسلوب الخبري ليدل على إنكارهم الشديد لهم : (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) وقومنا عطف بيان

(١) سورة الكهف : آية ١٤ .

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ .

(٣) سورة الكهف : آية ١٦ .

لهؤلاء ، وفي هذا الإخبار كما ذكرت معنى الإنكار وفي الإشارة إليهم هؤلاء
تحقيق لهم .

(وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم
من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) (١) أى إذا اعتزلتموهم اعتزالا
اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، وإذا أرتم اعتزلهم فافعلوا ذلك بالالتجاء
إلى الكهف . فالجمله متضمنة للشرط واقترن الجواب بالفاء في قوله : (فأروا
إلى الكهف) لأنها جملة فعلية فعلها طابى يفيد الأمر المراد منه النصيح والإرشاد
كما ستبينه في موضعه إن شاء الله .

وقوله : (وما يعبدون إلا الله) معطوف على الضمير المنصوب في قوله
(اعتزلتموهم) وما موصولة أو مصدرية . أى وإذا اعتزلتموهم واعتزلتم
معبودهم أو الذى يعبدونه وقوله إلا الله : استثناء منقطع على تقدير أنهم لم
يعبدوا إلا الأصنام أو متصل على تقدير أنهم شركوها في العبادة مع الله تعالى .
ويجوز في رأيي أن يكون كلاما معترضا إخبارا من الله سبحانه عن الفتية أنهم
لم يعبدوا غير الله فتكون ما على هذا نافية والأسلوب للقصر . والمرفق بفتح
الميم وكسرها لغتان قرئ بهما ، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع ، وقيل فتح
الميم أقيس ، وكسرها أكثر . قال الفراء : وأكثر العرب على كسر الميم من
الأمر ومن مرفق الإنسان ، وقد تفتح العرب الميم فيها لغتان ، وكان
الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر والمرفق من الإنسان (٢)

(١) الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ج ١ ، ص ٥٦٣

مطبعة محمد مصطفى ، ١٣٠٨ هـ .

(٢) الفراء : معاني القرآن ، ج ٢ ص ١٣٦ . ط . الدار المصرية للتأليف

والترجمة ، ١٩٦٦ .

وقال الكسائي : الكسر في مرفق اليد ، وقيل المرفق بالكسر ما ارتفعت
فيه ، والمرفق بالفتح الأمر الرافق ، والمراد هنا ما يرتفعون به ويلتفعون
بمحصوله والتقديم في الموضعين يفيد الاختصاص (١) .

وشرع القرآن في وصف حالهم بعد ما أووا إلى الكهف من ذلك قوله
تعالى : (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم
باسط ذراعيه بالوصيد) (٢) ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم
بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى ، فإذا كانت ظاهرة للهواء كان
أبقى لها وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً ، ثم يفتح هذه
ويطبق هذه وهو راقد (٣) .

قيل وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت منتحة وهم نيام . وقال الزجاج
لكثرة قلبهم أى تقلبهم فى رقدتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم .
وقد تقرر فى علم النحو أن يعمل اسم الفاعل إذا كان بمعنى المضى وهذا ما
نتبينه فى قوله تعالى : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) . والوصيد هو فناء
الباب وقيل العتبة ، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد .

قال الطبرى فى تفسيره : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من
قال : الوصيد : الباب أو فناء الباب حيث يعلق الباب وذلك أن الباب يوصد ،
وإيصاده : إطباقه وإغلاقه من قول الله عز وجل : (إنها عليهم مؤصدة) وفيه
لغتان : الأصيد : وهي لغة أهل نجد ، « الوصيد » وهي لغة تهامة (٤) .

(١) المرجع السابق (٢) سورة الكهف : آية ١٨

(٣) الحافظ بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٥ ، ص ١٤٩

(٤) تفسير الطبرى : ١٥ / ١٤٢ .

ويشير القرآن إلى بعثهم بعد هجوعهم الطويل بقوله : (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم) الإشارة إلى المذكور قبله أى وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم ^(١) ، والخبر في هذه الجملة فيه تذكير لندرتة تعالى على الإمامة والبعث جميعاً ، ثم ذكر الأمر الذى لأجله بعثهم كما دلت عليه لام التعليل الداخلة على الفعل المضارع فقال ليتساءلوا بينهم أى ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في هذه اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة والاقتضار على علة التساؤل لا ينفي غيرها ، وإنما أفردته لاستنباه لساائر الآثار . وجملة : (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) أى الله أعلم بأمركم وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم ، فالله أعلم ، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب ^(٢) . وقد ذكر أنهم دخلوا الكهف غدوة ، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار ، فلذلك قالوا يوماً ، فلما رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم وكان قد بقيت بقية من النهار . فقالوا ربكم أعلم بما لبثتم على طريق الاستدلال أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه الذى يعلم مدة لبثهم أما هم فلا يعلمونها .

ويكشف القرآن في سياق الأسلوب الخبرى عن الحكمة من إطلاع الناس عليهم ورؤيتهم لهم بعد موتهم وهذا جدير بالذكر كما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى : (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم . . .) ^(٣) أى وكما أنمناهم وبعثناهم

(١) الزمخشري : الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل

ج ١ ، ص ٥٦٥

(٢) تفسير ابن كثير ، ج ٥ ، ص ١٤١ ، مطابع الشعب

(٣) سورة الكهف : آية ٢١

أعثرنا عليهم أى أطاعنا الناس عليهم وصحى الإعلام إعثاراً لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه ، فكان الإعثار سبباً لحصول العلم .
ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق ، قيل وكان ملك ذلك العصر مما ينكر البعث فأراه الله هذه الآية (١) .

والظرف فى قوله : (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) متعلق بأعثرنا : أى أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله فى أمر البعث (٢) .
وقيل فى أمر أصحاب الكهف فى قدر مكثهم وفى عددهم وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم (٣) .

وهكذا يحتمل الأسلوب الخبرى بتركيبه الإسنادى مكاناً كبيراً فى قصة أصحاب الكهف وإنما يذكر الخبر لأغراض مخصوصة سبق الإشارة إليها إذ ليس كل تركيب يمكن أن يستنبط منه غرض مخصوص وهذا مادعانى إلى أن أعرض لبعض صور التركيب الإسنادى فى هذه القصة وأركز فيه على الجمل الخبرية رغبة فى التعمق فى أمرارها اللغوية ، وكما اتضح لنا أن هذه الجمل الخبرية تتمثل فى الجمل الاسمية والفعلية التى تكون لها خصائص معينة تقوم على إظهار الحقائق المجردة وإن صاحبها بعض الأغراض المخصوصة والمذكورة آنفاً . فمن شأن هذه الجمل أنها تهتم بنقل الحقائق الشائعة التى قد يصحبها التوكيد والنفي وغيرها ، وما يتبعهما من وصف وتعليل وهو ما أردت بيانه فى هذه القصة كنموذج لنظام القصة القصيرة فى القرآن وما تقوم عليه من ركائز ومقومات .

(١) الشوكانى : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ج ٥ ، ص ١٤٣ (٣) السابق نفسه .

ومن بديع الأسلوب الخبرى ما جاء في نهاية النصة من تفويض العلم الصحيح لله وحده، كما حكاه القرآن على ألسنة مؤمنى هذا الزمان : (ولبشوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبشوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً) (١) قرأ الجمهور بتنوين مائة ونصب سنين فيكون سنين على هذه القراءة بدلاً أو عطف بيان . وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائى فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : سنين ثلثمائة ورجح الأول أبو على الفارسى . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين ، وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزاً على موضع الجمع موضع الواحد (٢) فى التمييز كقوله تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً) (٣) . قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة وقال أبو على الفارسى : هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل . وثوب قد تضاف إلى المجموع وحكى ابن جرير فى القائلين ذلك (لتتخذن عليهم مسجداً) قولين : أحدها : أنهم المسلمون منهم والثانى : أهل الشرك (٤) منهم فالله أعلم .

وقد كان هؤلاء القوم مازالوا متنازعين فيما بينهم قرناً بعد قرن منذ أروا إلى الكهف إلى وقت الإعتار ، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوباً على باب

(١) سورة الكهف : آية ٢٦

(٢) الزمخشري : الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل

ج ١ ، ص ٥٦٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥ / ١٤٣

(٣) سورة الكهف : آية ١٠٤

الفار ، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم على
على قول جمهور المفسرين .

ونرى الخبر الجازم يؤكد بأنه سبحانه مختص بعلم ما لبثوا كما تدل عليه
الجملة الاسمية في قوله : (له غيب السماوات والأرض) أى ما خفى فيهم —
وغاب من أحوالهم . ليس لغيره من ذلك شيء ولذلك قال : (ما لهم من دونه
من ولي) ما النافية التى تعمل عمل ليس وتدخل على الجمل الاسمية أى أنه تعالى
هو الذى له الخلق والأمر ، الذى لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير
تعالى وتقدس (١) .

(ولا يشرك فى حكمه أحداً) جملة فعلية منفية بلا . قرأ الجمهور برفع الكاف
على الخبر عن الله سبحانه . وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة بالتاء التوقية
وإسكان الكاف على أنه نهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لله شريكا فى
حكمه ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر . وقرأ مجاهد بالتجنية والجزم .
والمراد بحكم الله : ما يقتضيه أو علم الغيب ويدخل علم الغيب فى ذلك دخولا
أولياً ، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه (٢) .

التركيب الاسنادى فى قصة (يوسف) : (الجملة الخبرية)

سبق أن أشرت إلى بعض قصص الأنبياء وقصة أصحاب الكهف —
واستخلصت من التركيب الاسنادى تعدد صور الخبر المتضمن للجملة الفعلية
والاسمية ، ويأتى الحديث عن قصة يوسف — عليه السلام — وقد تناولت من

(١) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٢) فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

قبل الأسباب التي جعلت هذه القصة مستقلة بنفسها في سورة باسمها والسر في عدم تكرارها ، تناولت ذلك في العرض لقضية التكرار وأثره في لغة القصة القرآنية وذلك في الفصل الرابع . ويجدر بنا أن نشير في هذا الصدد إلى بعض الجوانب اللغوية التي تتصل بالتركيب الإسنادي المتعدد في الأسلوب الخبري موضوع هذا الفصل .

قال تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) (١) .

القصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاختصاص ، يقال قص الحديث يقصه قصاً وقصصاً إذا ساقه كما يقال أرسله برسله إرسالاً (٢) . ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا قدرة الله أي مقدوره وهذا الكتاب علم فلان أي معلومه وهذا رجاؤنا أي مرجونا (٣) وإن حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك أحسن الاختصاص وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان لا إلى القصة والمراد بالحسن كما يعبر عنه الخبر في الجملة كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها (٤) .

(١) سورة يوسف : آية ٣

(٢) لسان العرب والقاموس . مادة (قصص) .

(٣) نحر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، ج ١٦ ، ص ١٠١ ، المطبعة

الخيرية ١٣٠٨ هـ

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١٠١

(لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) (١) دخلت قد التي تفيـد التحقيق على الجملة الفعلية . أي علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات الاعتبارية بها . ويتوالى الخبر في صورة الجمل الفعلية المقرونة بالزمن الماضي وهو غالب على هذه القصة أيضا من بدايتها :

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) (٢) تقدير الآية : اذ كر إذ قال يوسف والصحيح أنه اسم عبرانى لأنه لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف وقرأ بعضهم يوسف بكسر السين ويوسف بفتحها . قرأ ابن عامر يا أبت بفتح التاء في جميع القرآن والباقون بكسر التاء أما الفتح فوجهه أنه كان في الأصل يا أبتاه على سبيل الندبة فحذفت الألف والهاء وأما الكسر فأصله يا أبى فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال يا أبت ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فأدخلوا عليه الإضافة وهذا قول ثعلب وابن الأنبارى (٣) . وقد أجاد لفظ الرؤيا مرة ثانية وقال في الجملة الفعلية الماضية (رأيتهم لى ساجدين) لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر ساجدة له . وقال بعضهم إنه لما قال : إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له كيف رأيت فقال رأيتهم لى ساجدين أو يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا . وقد أخرج الشمس والقمر لفضلهما على الكواكب لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله (وملائكته وكتبه ورسله وجبريل وميكال) .

(١) سورة يوسف : آية ٧ . (٢) سورة يوسف : آية ٤ .

(٣) خنر الدين الرازى : مفاتيح الغيب ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

وقد وحد الخبر مع تعدد المبتدأ في قوله تعالى : (ليوسف وأخوه أحب إلى أيينا منا) لأن أفعل من كذا لا يفرق فيه بين الواحد وما فرقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم إذا عرف وجب الفرق وإذا أضيف جاز الأمران وفائدة لام الابتداء في (ليوسف) تحقيق مضمون الجملة وتأكيده (١) . وأنبح هذه الآية بالجملة الحالية في قوله (ونحن عصابة) أى والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالحب ، والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم . وأتى بالجملة الاسمية المؤكدة بعد ذلك (إن أبانا لفي ضلال مبين) (٢) . والخبر هنا لإظهار نواياهم الخبيثة وما جبلوا عليه من حقد وكرهية لمحبة إياها أكثر منهم .

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) (٣) . يعنى وكما اجتباك بمنزل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شأن كذلك يجتبيك لأمر عظام أى يشارك ويصطفيك . قال الزجاج : الاجتباء مشتق من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك ومنه جبيت الماء فى الحوض . واختلفوا فى المراد بهذا الاجتباء فقليل يجتبيك ربك بالنبوة وقال آخرون المراد منه إعلاء الدرجة وتعظيم الرتبة ، فأما تعيين النبوة فلا دلالة فى اللفظ عليه (٤) . ويأتى الخبر ليؤكد فى جملتين متواليتين ادعاء إخوته بالمحافضة عليه (وإنا له لناصرحون) ، (وإنا له لحافظون) . كلتاها جملتان خبريتان مؤكدتان بأن واللام وذكرت له زيادة فى التوكيد للمضمون .

(١) تفسير أبى السعود ، ص ١٠٠ ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٨ هـ - القاهرة

(٢) سورة يوسف : آية ٨ . (٣) سورة يوسف : آية ٦ .

(٤) نخب - الدين الرازى : مفاتيح الغيب ، ج ٥ ، ص ١٠٣ .

ويسرد القرآن الخبر الذي يوحى بالحذر على اسان يعقوب : (إني ليعزتي أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) (١) والسلام في (ليعزتي) لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال وقد دخلت على المضارع كما في قوله تعالى : (إن ربك ليحكم بينهم) . أخبرهم أنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه وقرىء الذئب بالهمز على الأصل وبالتخفيف وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح (٢) إذا أتت من كل جهة . ولذلك كان ردمه السريع عليه : (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) (٣) . فائدة اللام في قوله : (لئن أكله الذئب) أن كلمة إن تفيد كون الشرط مستلزما للجزاء أى إن وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون فهذه اللام كما أرى دخلت لتأكيد هذا الاستلزام . ويحتمل أن تكون اللام دالة على إضمار القسم تقديره : والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين . أما الواو في قوله (ونحن عصبة) فهي واو الحال ، حلقوا لئن حصل ما خافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال إنهم إذا أقوم خاسرون . وهذا ما تبينه من سياق الآيات ووضهونها وما تشتمل عليه من أخبار متتابعة .

وتأتى الجملة الشرطية (المركبة) في قوله تعالى : (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب) (٤) وقد حذف جواب لما الشرطية وتقديره فجعلوه . فيها وحذف الجواب في القرآن كثير وهذا ما سنتبينه في موضعه إن شاء الله والشرط في ذلك الحذف أن يكون المذكور دليلا عليه .

(١) سورة يوسف : آية ١٣ .

(٢) العكبرى : إملاء ما من به الرحمن ص ١٣٢ .

(٣) سورة يوسف : آية ١٤ (٤) سورة يوسف ١٥ .

(وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) (١) أكد الفعل المضارع بالنون في هذه الجملة لدخول اللام الموطئة لجواب القسم عليه (لتنبئهم) وكأن الجملة المضارعية المؤكدة تبين توضيح لمрад الوحي وقيل النبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين . وقيل المراد بالوحي الإلهام كما في قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) (٢) وقوله : (وأوحى ربك إلى النحل) (٣) والأرجح الذي أراه الرأى الأول لمأفيه من تشریف وتعظيم له بأمره بتبليغ الرسالة ، ويكون فائدة تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه . وقرئ لتنبئهم بالنون دلي أنه خير يتضمن الوعيد لهم ويبدو الوعيد أيضاً في قوله : (وهم لا يشعرون) وهي جملة اسمية في موضع نصب على الحال متعلقة بأوحينا لا غير . وتتوالى الأحداث الماضية في الجمل القرآنية التي تعدد صور الخبر في طياتها وهو ما أعالجه في هذا الفصل : (وجاءوا أباهم عشاء يبكون) (٤) أى متباكين على غير الحقيقة ويكون في موضع نصب على الحال من الضمير المتصل في الفعل الماضي وإنما اصطنعوا هذا البكاء والخبر في الآية للاستعطاف والاسترحام كما أوضحه قوله تعالى حاكياً عنهم : (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) (٥) تكرر الفعل الماضي في الآية الكريمة تدليلاً على قص ما حدث ونقله إلى الاستماع مباشرة على الحكاية والفاء في (فأكله) للتعقيب أى أكله بعد ذلك . وكانهم بذلك يبررون موقفهم ويدعون أنهم لم يقصروا في محافظته

(٢) سورة القصص : آية ٧

(٤) سورة يوسف . آية ١٦

(١) سورة يوسف : آية ١٥

(٣) سورة النحل : آية ١

(٥) سورة يوسف : آية ١٧

ولم يغفلوا عن مراقبته (١) وما فارقه إلا ساعة يسيرة ، ولذلك خافوا على أنفسهم من أن يتسرب إليه شك في هذا الكلام فقالوا : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) (٢) دخلت ما النافية على الجملة الاسمية ، وهي التي تعمل عمل ليس والباء حرف جر زائد والإيمان في أصل اللغة التصديق أى وما أنت بمصدق لنا ، وإنما جاءوا بهذا القميص المملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالته . قيل ذبحوا جدياً ولطبخوا ذلك القميص بدمه

ولعل الغرض من نزعهم قميصه عند إلقاءه في الجب أن يفعلوا هذا توكيداً لصدقهم لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يتمن بها الخذلان فلما شاهد يعقوب القميص صحيحاً علم كذبهم وقد فسوا أن يحرقوه (٣) . وهذا ما يوضحه القرآن بقوله : (وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سوات لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) (٤) أى جاءوا فوق قميصه بدم ، ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو المعروف في وصف اسم العين باسم المعنى وعلى قميصه في محل نصب على الظرفية (٥) .

ويقص القرآن ما حدث ليوسف بعد ذلك في صورة أخبار متولية يغلب عليها الزمن الماضى : (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) (٦)

(١) الزمخشري : الكشف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ، ص ٤٦٣

(٢) سورة يوسف آية : ١٧ (٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ ، ص ٣٠٣

(٤) سورة يوسف : آية ١٨

(٥) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ٩

(٦) سورة يوسف : آية ٢٠

و (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) (١) أى
أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهروه لهم ، وقيل أنهم لم
يخفوه بل أخفوا وجدانه لهم فى الحب وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه
لهم بمصر ، وقيل ضمير الفاعل فى أسروه لإخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف
وذلك أنه كان يأتیه أخوه يهوذا كل يوم بطعام فأتاه يوم خروجه من البشر
فأخبر إخوته فأتوا الرفقة (٢) وانتصاب بضاعة على الحال أى أخفوه حاله
كونه بضاعة أى متاعاً للتجارة ، والبضاعة ما يبضع من المال أى يقطع منه ،
لأنها قطعة من المال الذى يدخل فى التجارة. ويأتى الوعيد فى سياق الأسلوب الخبرى
الذى تتضمنه الجملة الاسمية فى قوله بعد ذلك القدر من جانبهم (والله عليم بما
يعملون) وهو وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن
وما صار فيه من الابتذال يجرى البيع والشراء فيه .

وتتوالى الجمل الخبرية فى سياق الآيات لتذكرنا بتأييد الله ليوسف الصديق
والتمكين له فى الأرض : (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل
الأحاديث) (٣) الكاف فى محل نصب على أنه نعت مصدر محذوف ، والإشارة
فى الجملة الفعلية إلى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الحب وعطفه
قلب العزيز عليه ، أى مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف حتى صار
متمكناً من الأمر والنهى .

والجملة فى قوله : (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) معالة لمعلل محذوف كأنه

(١) سورة يوسف : آية ٢٠

(٢) الشوكانى : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ١١

(٣) سورة يوسف : آية ٢١

قيل فعلنا به ذلك تمكين لتعلمه من تأويل الأحاديث أو كان ذلك الإنجاء
لهذه العلة ، أو معطوف على مقدر وهو أن يقال مكنا ليوسف ليترتب على
ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولتعلمه من تأويل الأحاديث
أي فهم أسرار الكتب الإلهية (١)

وقد سرد القرآن ما جرى بين يوسف وامرأة العزيز في صيغة الزمن
الماضي بقوله : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت
هيئت لك) (٢) المرادة الإرادة والطلب برفق ولين وهي مأخوذة من الرود
أي الرفق والثاني ، يقال أرودني : أمهني ، وقيل المرادة مأخوذة من راد
يرود إذا جاء وذهب كأن المعنى أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع ومنه
الرائد لمن يطالب الماء والكلاء ، وقد ينحصر بمحاولة الوقوع فيقال : راود
فلان جاربه عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد منها الوطء
والجماع (٣) . وهي مفاعله وأصلها أن تكون من الجانبين فجعل السبب هنا في
أحد الجانبين ، قائماً مقام المسبب

والمراد زليخا ، ولم يصرح القرآن بذكر اسمها قصداً إلى زيادة التقرير
مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها . (وقالت هيئت
لك) قال الفراء : عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أقرأني رسول الله صلى
الله عليه وسلم (هيئت) ويقال أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ١٤

(٢) سورة يوسف : آية ٢٣

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (رود) والصحيح للجوهري

بها (١) . وأهل المدينة يقرءون هيت لك بكسر الهاء ولا يهمزون . وذكر عن علي بن أبي طالب وابن عباس أنها قرءا (هئت لك) يراد بها : تهيات لك وقد قال الشاعر :

إن العراق وأهله سلم عليك فهيت هيتا (٢) أى هلم .

والأرجح أنها بالقبطية ومعناها : أنا ملك لك ، وهذا مدلوله أن القصة قد جرت أحداثها بمصر الفرعونية فجرت هذه اللفظة على لسان امرأة العزيز باعتبارها مصرية . (وغلقت الأبواب) قيل في هذه الصيغة ما يدل على التكثير فيقال غلق الأبواب ، ولا يقال غلق الباب ، بل يقال أغلق الباب وقد يقال أغلق الأبواب ومنه قول للفرزدق في أبي عمرو بن العلاء :

ما زالت أغلق أبواباً وأفتحها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

قال النحويون : حيث جاء بالحر كات الثلاث في لفظة (هيت) فالفتح للخفة والكسر لالتقاء الساكنين والضم تشبيهاً بحيث ، وإذا بين اللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كآف له : أى لك أقول هذا وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل وأما خبر أى تهيات ، وإما أمر أى أقبل . وقال في الصحاح يقال : هوت به وهيت به إذا صاح به ودماه ومنه قول الشاعر : يحمدوها كل فتي هيات (٣) .

وتتنوع الأغراض التي سبقت من أجلها الجمل الخبرية في قصة يوسف عليه

(١) الفراء : معاني القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٠

(٢) المرجع السابق نفسه

(٣) الشراكبي : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ١٥

السلام من ذلك قوله تعالى : (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حياً) (١) أى قد وصل الحب إلى شغاف قلبها وهو غلافه . والجملة في محل رفع على أنها خبر ثان المبتدأ أو محل نصب على الحال والمراد غلبها حبه وقيل دخل حبه في شغافها .

قال النابغة الذبياني :

ولكن هادون ذلك والسج مكان الشغاف تبتغيه الأصابع (٢)
ويقرؤه قوم قد شغفها وهو من المشعوف . ويجرى الخبر الذى يفيد التعجب والدهشة على لسان النسوة اللاتي في المدينة : (وقلن حاشا لله ما هذا بشراً) قرأ أبو عمر بن العلاء بإثبات الألف في حاشا . وقرأ الباقر بخذفها . وقرأ الحسن حاش لله بإسكان الشين .

قال الزجاج : وأصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية ، تقول كنت في حاشية فلان أي في ناحيته فقولك حاشا لزيد من هذا أي تباعد منه . وقال أبو علي : هو من المحاشاة ، وقيل أن حاش حرف ، وحاشا فعل ومعناها هنا التنزيه بمعنى حاشا لله : براءة لله وتنزيها له وأعظمته أن يكون بشراً وقلن : هذا ملك (٣) . وقد دخلت ما على الجملة الاسمية في (ما هذا بشراً) ونصبت بشراً لأن الباء قد استعملت فيه فلا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء ، فلمّا حذفوها أحبوا أن يكون لها أثر فيما خرجت منه فنصبوا على ذلك (٤) .

(١) سورة يوسف : آية ٣٠

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ص ١٥

(٣) الفراء : معاني القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٢

(٤) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حصص) .

ويجري الخبر على لسان امرأة العزيز بعد أن تكتشف الحقائق وتثبت براءته : (الآن حصحص الحق) أى تبين وظهر ، وأصله حصص ، فقليل حصص كما قيل فى كبوا كبكبوا . قاله الزجاج وأصل الحصص : استئصال الشيء يقال حصص شعره (١) إذا استأصله .

والمعنى أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره ويـبـانـه ولذلك قالت : (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وهذا خير بيان لتبرئة يوسف عن التهمة التى كانت قد نسبتها إليه .

(ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) قال ذلك يوسف لما رجع إليه الساقى فأخبره ببراءة النسوة إياه وهو متصل بقول امرأة العزيز (الآن حصحص الحق) وربما وصل الكلام بالكلام حتى كأنه قول واحد وهو كلام اثنين ، فهذا من ذلك .

ومثله فى القرآن : (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون) (٢) اتصل قول فرعون بقول الملائكة وكذلك قوله : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) (٣) إلى قوله (وكذلك يفعلون) فى قصة سليمان مع بلقيس حيث انقطع كلامها عند قوله (أذلة) ثم قال عز وجل : (وكذلك يفعلون) ويقال إنه من قول سليمان عليه السلام . وهذا شبيهه فى قصة يوسف أيضا : (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) (٤) فيحتمل أن يكون هذا الكلام من قول رب العزة كما يدل عليه السياق فى قوله تعالى : (ومـا أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) وهو استثناء منقطع

(٢) سورة الشعراء : آية ٣٥

(٤) سورة يوسف : آية ٥٣

(١) المرجع السابق نفسه

(٣) سورة النمل : آية ٣٤

عما قبله وما في موضع نصب ومثله في نفس القصة : (إلا حاجة في نفس يعقوب قضاهما) (١) . ومثله في سورة يس حكاية عن الكفار : فلا صربخ لهم ولا هم ينقدون إلا رحمة منا) (٢) وأن تضارع ما إذا كانتا في معنى المصدر . وقد استثنى البعض من قوله تعالى : (إلا مارحم ربى) أى الذى رحمه ربى بالعصمة كالملائكة ويجوز أن يكون ما رحم فى معنى الزمان أى إلا وقت رحمة ربى يعنى أنها أمانة بالسوء فى كل وقت وأوان إلا وقت العصمة وقيل هو من كلام امرأة العزيز (٣) .

وبصف القرآن موقف يعقوب وحزنه على يوسف وصفاً بدبعاً تسوقه لنا الجمل الخيرية : (وتولى عنهم وقال بأسنى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) (٤) أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه والألف بدل من ياء الاضافة والتجانس بين لفظتى الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً على غير مستعمل فيدع ويملح ونحوه فى القرآن : اناقلتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا) و (وهم ينهون عنه وينأون عنه) و (ويحسبون أنهم يحسنون صنعا) وقوله فى سورة النمل : (من سبأ نبأ) . قال أبو عبيدة : وهذا القول خرج مخرج الندبة ، وإذا وقعت عندها قلت : يا أسفاه ، فإذا اتصلت ذهبت الياء كما قالوا : ياراكباً إما عرضت فبلغن . والأسف أشد الحزن والتندم ويقال يوسف مضموم فى مكانين ويوسف تضم أوله وتكسر السين بغير همز ومنهم من بهمزه يجعله يفعل من آسفته (٥) .

(١) سورة يوسف : آية ٦٨ (٢) سورة يس : ٤٣ ، ٤٤

(٣) الزمخشري : الكشاف ، ج ١ ، ص ٤٧٥

(٤) سورة يوسف : آية ٨٤

(٥) أبو عبيدة : مجاز القرآن ، ص ٣١٦ ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٤ م —

وقوله تعالى : (فهو كظيم) جملة اسمية والفاء للاستئناف أى مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسؤمهم ، فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله وهو مكظوم من كظم السماء إذا شده على ملئه والكظم بفتح الظاء مخرج النفس يقال أخذ شيئاً كظامه . (قالوا لله تفتؤ تذكرو يوسف) أى لا تزال تذكره والخبر يتضمن للتعجب الشديد من حاله ، وأراد بقوله (تفتؤ) لا تفتؤ فحذف حرف النفي لأنه لا يلبس إلا بالاثبات لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بدل اللام والنون ونحوه ومنه : يمين الله أبرح قاعداً .

قال خدّاش بن زهير :

وأبرح ما أدام الله قومي بحمد الله منتطقاً مجيداً (١)

معنى هذا لا أبرح لا أزال .

(حتى تكون حرضاً) الحرض ٢ ، الذى أذا به الحزن أو العشق وهو فى موضع محرض وقال العرجى :

إني امرؤ لـج بى حب فأحرضنى حتى بكيت وحتى شفى السقم (٢)

أى أذابنى فتبى محرضاً . ويجرى الخبر الذى يرمز إلى صدق يعقوب عليه السلام وراسخ إيمانه كما هى صفات الأنبياء بقوله : (إنما أشكو بثى

(١) ديوانه رقم ١٧ وشواهد الكشف ١٦٨ والمعنى : لا أزال أحمّد الله على دعوام المجد لقومي .

(٢) الصبحاح واللسان والتاج (حرض) .

(٣) البيت فى القرطبي ٩ / ٢٥٠ . والعرجى هو عبد الله بن عمرو بن عثمان ولد بالعرج من مكة (الأغاني : أبو الفرج الاصفهاني ١ / ٣٨٣) ومعنى البيت : قد استحوذ على الحب فأحزنى إلى درجة بالغة حتى شفيت من علة الهوى .

وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعملون) أى إنى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربى داعياً له وملجئاً إليه فخلونى وشكائى ، وهذا معنى توليه عنهم فتولى عنهم إلى الله تعالى والشكاية إليه (١) . وأرجو من الله كل خير . والبث اشد الحزن ويقال حزن : متحرك الحروف بالفتحة أى فى اكتئاب والحزن أشد الهم ، وهذا القول فيه إجماع بقوة إيمانه وعظيم صبره وكونه قدوة صالحة وأسوة حسنة لغيره .

الأسلوب الخبرى فى قصة (إبراهيم) عليه السلام :

نلاحظ فى قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه عبدة الأوثان أن الزمن الماضى هو الذى يتحكم فى سياق الآيات الكريمة وبالتالي تتكرر الجملة الفعلية الماضوية كما يدل عليه سياق الأحداث ، من ذلك قوله تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكننا به ظالمين) (٢) دخلت قد على الجملة الفعلية الماضوية زيادة فى التحقيق والتوكيد ، ومعنى علمه به أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة وصفات قد رضىها وأحدها حتى أهله لمخالته ومخالصته ، فالخبر فى الجملة يوحى بالمدح لإبراهيم الخليل والثناء عليه لاحتوائه على محاسن الأوصاف .

ونصف القصة غضب إبراهيم على قومه وتصميمه على تحطيم أصنامهم كما يدل عليه الفعل المضارع المؤكد بالنون والمسبوق بالقسم فى قوله : (ونالته

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٣٣٠

(٢) سورة الأنبياء : آية ٥١

لَا كَيْدَنَ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْبِرِينَ (١) كَانُوا أَرَادُوا الْخُرُوجَ إِلَى عِيدِ
لَهُمْ ، فَأَعْتَلَ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ ، فَتَخَلَّفَ وَقَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ ، فَلَمَّا مَضُوا كَسَرَ آلَهُتَهُمْ
إِلَّا أَكْبَرَهَا ، فَلَمَّا رَجَعُوا قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : أَنَا سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ يَقُولُ : وَتَاللَّهِ
لَا كَيْدَنَ أَصْنَامَكُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ : (سَمِعْنَا فِي بَيْتِ كَرَمٍ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) (٢) .

وَقَرِئَ تُولُوا بِمَعْنَى تَنَلُّوْا وَيَقْوِيْهَا قَوْلُهُ : فَتَنَلُّوْا عَنْهُ مَدْبِرِينَ . قَالَ
الزَّمْخَشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ :

الْفَرْقُ هُنَا بَيْنَ الْبَاءِ وَالْتَاءِ أَنَّ الْبَاءَ هِيَ الْأَصْلُ وَالْتَاءٌ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ الْمُبْدَلَةِ
مِنْهَا وَأَنَّ الْتَاءَ فِيهَا زِيَادَةٌ مَعْنَى وَهُوَ التَّعَجُّبُ كَأَنَّهُ تَعْجِبُ مِنْ تَسْهِيلِ السَّكِيدِ
عَلَيْهِ وَتَأْنِيهِ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ أَمْرًا مَقْنُوطًا مِنْهُ لَصُعُوبَتِهِ وَتَعَذُّرِهِ وَلَعَمْرِي أَنَّهُ
مِثْلُهُ صَعِبٌ مَتَعَذِّرٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ خَصْرٌ صَاحِبٌ فِي زَمَنِ نَمْرُودَ مَعَ عَتُوهِ رَاسِطٌ كَبِيرُهُ
وَقُوَّةُ سُلْطَانِهِ وَتَهَالُكُهُ عَلَى نَصْرَةِ دِينِهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ أَمْرًا بِسِيرًا عَلَى
يَدِ نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ (٣) .

(فَجَعَلَهُمْ جُنُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ) (٤) قَرِئَ جُنُودًا
جَمْعُ جُنُودٍ وَجُنُودًا جَمْعُ جُنْدَةٍ أَيْ قِطَاعًا مِنَ الْجُنْدِ وَهُوَ الْفِطْعُ . فَمَنْ قَرَأَ جُنُودًا
بِالضَّمِّ فَهُوَ وَاحِدٌ مِثْلُ الْخَطَامِ وَالرَّفَاتِ . وَمَنْ قَالَ جُنُودًا بِالْكَسْرِ فَهُوَ جَمْعٌ كَأَنَّهُ
جُنُودٌ وَجُنُودًا مِثْلُ خَنِيْفٍ وَخَفِيْفٍ (٥) . وَاسْتَشْنَى كَبِيرَهُمْ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ

(١) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : آيَةُ ٥٧ (٢) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : آيَةُ ٦٠

(٣) الزَّمْخَشَرِيُّ : الْكَشَافُ ، ج ١ ، ٤٨

(٤) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : آيَةُ ٦٢ (٥) لِسَانُ الْعَرَبِ : مَادَّةُ (جُنْدٌ)

مجموع الأصنام لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لأهنتهم فيمكنهم بما أجاب به من قوله : (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم) (١) . ذكر إبراهيم ذلك بناء على ظنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آهنتهم وتعظيمهم لها أو قاله على سبيل السخرية والاستهزاء مع علمه أنهم لا يرجعون إليه .

وذكر في قوله : (بل فعله كبيرهم هذا) قراءة أخرى : فعله كبيرهم مشددة يريد : فعله كبيرهم ، وقال بعض الناس : بل فعله كبيرهم أن كانوا ينطقون . فجعل فعل الكبير مسنداً إليه إن كانوا ينطقون وهم لا ينطقون . قال الفراء : والمذهب الذى العوام عليه : بل فعله ، كما قال يوسف : (أيتها العير إنكم لسارقون) (٢) ولم يسرقوا . وقد أيد الله أنبياءه بأكثر من هذا (٣) .

قال الزمخشري : والقول في هذا أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريفي يباغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكييتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك لقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أنت كتبت هذا وصاحبك أمي لا يحسن الخط فقلت له بل كتبتة أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا تفيه عنك وإثباته للآثم

(١) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٣ ، ص ١٣٤ ، ط . عيسى البابي الحلبي .

(٢) سورة يوسف : آية ٧٠ .

(٣) الفراء : معاني القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ ، ط . الهيئة العامة للكتاب .

وقد أسند الفعل إليه لأنه هو الذى تسبب لاستهانتها بها وحطه لها والفعل كما يستند إليه مباشرة بسند إلى الحامل عليه (١) .

وتتوالى الجمل الفعلية الخبرية لتصف الحالة التى بدا عليها قروم إبراهيم بعد هذا التبكيت الشديد : (ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) نكسته قلبته فجعلت أسفله أعلاه (٢) وانتكس انقلاب أى استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا فى المجادله بالباطل والمكابرة . وقد رجعوا عندما عرفوا من حجة إبراهيم فقالوا : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) والعلم والظن بمنزلة اليقين أو اليمين فلذلك لقيت العلم بما فقال : (علمت ما هؤلاء) كقول القائل والله ما أنت بأخينا وكذلك قوله تعالى : (وظنوا ما لهم من محيص) (٣) .

ولو أدخلت العرب (أن) قبل (ما) فقليل علمت أن ما فيك خير وظننت أن ما فيك خير كان صوابا . ولكنهم إذا اتى شيئا من هذه الحروف أداة مثل (أن) التى معها اللام أو استفهام كقولهم : أعلم لى أقام عبد الله أم زيد أو لئن ، ولو اكتفوا بتلك الأداة فلم يدخلوا عليها (أن) مثل قوله : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه) فى سورة يوسف لو قيل : أن ليسجننه كان صوابا (٤) .

ويوضح الأسلوب الخبرى ما كان عليه نبي الله إبراهيم من غضب شديد

(١) الزمخشري : الكشاف ، ج ١ ، ص ٤٩

(٢) تاج العروس : (مادة . نكس) .

(٣) سورة فصلت : آية ٤٨ .

(٤) التراه : معانى القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

من ذلك قوله : (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) وأف صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم ، واللام لبيان المتأفف به (١) . أي لكم ولآلهتكم هذا التأفف وهو تقديم وتأخير . لإبراز التضجر الذي كان عليه إبراهيم والغرض من الخبر في هذا السياق الإنكار والتوبيخ .

تكرير الفعل (آتينا) في قصص الأنبياء :

من الملاحظ في قصص الأنبياء عليهم السلام أن تشتمل هذه القصص القرآنية على مظاهر الإناعام والمن من الله تعالى إلى جانب الثناء الرفيع والتعظيم لهم . وقد أدركت ذلك من خلال استعراض الجمل القرآنية وما فيها من تراكيب لغوية ، من ذلك تكرار الفعل (آتينا) في مواضع عديدة من قصص الأنبياء :

- (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) (٢) .
- (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرآ للمتقين) (٣) .
- (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به طالين) (٤) .
- (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) (٥) .

(١) تفسير البضاوى : ص ١٣٥ .

- (٢) سورة الإسراء : آية ١٠١ (٣) سورة الأنبياء : آية ٤٨
- (٤) سورة الأنبياء : آية ٥١ (٥) سورة الأنبياء ، آية ٧٩

- (١) ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً (١) .
- (٢) ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله (٢) .
- (٣) ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله (٣) .
- (٤) ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبى معه والطير (٤) .
- (٥) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥) .
- (٦) ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه (٦) .
- (٧) ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة (٧) .

تلك الجمل القرآنية التي تدخل في إطار الأسلوب الخبري تشير إلى الزمن الماضي البعيد ، ويتكرر الفعل (آتينا) في كل جملة منها مسبقاً بقد المقرونة باللام الموطئة لجواب القسم والتي تفيد التحقيق ، وهو إيحاء برفيع مكانة هؤلاء الأنبياء والمرسلين رمزاً لهم من قدر عظيم عند ربهم . ومن ذلك ما تفضل به سبحانه على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بمنحه الفاتحة والقرآن العظيم ، وهذا ما عبر عنه بقوله تعالى على سبيل الفضل والإنعام الجزيل : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) . وإنما سميت الفاتحة بالسبع المثاني لأنها تنهى في كل ركعة ولما فيها من كثير الثناء على الله تعالى ، وهذا الثناء تكراره يجعل المؤمن في درجة رفيعة ومنزلة عالية .

(٢) سورة النمل : آية ١٥

(١) سورة الفرقان : آية ٣٥

(٣) سورة لقمان : آية ١٢ .

(٥) سورة غافر : آية ٥٣

(٤) سورة سبأ : آية ١٠

(٧) سورة الجاثية : آية ١٦

(٦) سورة فصلت : آية ٤٥

وقد اقترن الفعل بضمير الغائب في مواضع كثيرة من القرآن الكريم من الأنبياء والمرسلين ، وهذا ما قمت بإحصائه على الوجه الآتي :

(وآتيناہ الانجیل فیہ ہدی ونور ومصدقاً لما بین یدیه) (١) .

وذلك عن سيدنا عيسى عليه السلام الذي أعطى الإنجيل هدى ونوراً .

(ولما بلغ أشده آتيناہ حکماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) (٢) .

حكاية عن يوسف عليه السلام ، والأشد هو وقت استكمال القوة ، ثم يكون بعده التقصان ، قيل هو ثلاث وثلاثون سنة ، وقيل بلوغ الحلم ، وقيل ثمانى عشرة سنة . والحكم هو العلم بالحكم الذى كان يحكمه ، وقيل العقل والفهم والنبوة ، والعلم هو العلم بالدين على ما حكاه الإمام الشوكاني (٣) ويجوز أن يكون علم الرؤيا ، وقد جعل طائفة الخير من جملة ما يجزى به ، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولا أوليا .

وقال سبحانه عن إبراهيم (وآتيناہ فی الدنيا حسنة وإنه فی الآخرة لمن الصالحين) (٤) والمراد خصلة حسنة أو حالة حسنة ، قيل هى الولد الصالح أو الثناء الحسن ، ويجوز أن تكون النبوة أو الصلاة مناعاً عليه فى التشهد ، ولا مانع من أن يكون المن شاملاً لذلك كله من خصال الخير . وقد أجاب الله دعوة إبراهيم عليه السلام فقال فى نفس الآية : (وإنه فی الآخرة لمن الصالحين) فقد كانت دعوة إبراهيم من قبل : (رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين) .

(١) سورة المائدة : آية ٤٦ (٢) سورة يوسف : آية ٢٢

(٣) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ١٣ .

(٤) سورة النحل : آية ١٢٢

وقال سبحانه في حق الخضر عليه السلام الذى آتاه منه رحمة وعلمه علما :
(فوجدا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) (١) .
وقد سبق أن تناولت تلك القصة بشيء من التحليل اللغوى والتفسير البيانى فى موضعه . وورد فى نفس السورة ذكر ذى القرنين وقد أنعم الله عليه بالتمكين فى الأرض وسوق الأسباب بين يديه : (إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً) (٢) .

واختلفوا فى ذى القرنين اختلافاً كثيراً ف قيل هو الإسكندر بن فيلقوس الذى ملك الدنيا بأسرها اليونانى باني الإسكندرية وقال ابن اسحق هو رجل من أهل مصر : اسمه مرزبان بن مرزبة اليونانى : من ولد يونان بن يافث بن نوح ، وقيل هو ملك اسمه هرمس وقيل شاب من الروم ، وقيل كان نبيا وقيل كان عبداً صالحاً ، يقال : إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشرق والمغرب ، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب (٣) والسبب فى الآية هو الطريق الذى يقوصلها إلى ما يريد (٤) . قال الزجاج : فأتبع سبباً من الأسباب التى أوتى ، وذلك أنه أوتى من كل شيء سبباً فأتبع من تلك الأسباب التى أوتى سبباً فى المسير إلى المغرب ، وقيل أتبع من كل شيء علماً يتسبب به إلى

(١) سورة الكهف : ٦٥ (٢) سورة الكهف : آية ٨٤

(٣) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٢١٧/١ ، باريس .

١٨٦١ م .

(٤) هناك رأى يقول بأنه الإسكندر الأكبر ولقب ذو القرنين لأنه حينما ذهب إلى بيت للعبادة فى سيوه وضع الرهبان على رأسه وأكتافه جلد جدى وكانت قروونه على جانبي رأس الاسكندر .

ما يريد (١) .

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً) (٢) .

في الآية حذف تقديره : وقال الله للمولود يا يحيى أو فولد لذكرا عليه السلام مولود فيبلغ المبلغ الذي يجوز أن يخاطب فيه ، فقلنا له يا يحيى . وقال الزجاج : المعنى : فوهبنا له وقلنا له يا يحيى ، والمراد بالكتاب التوراة لأنه المعهود حينئذ ، والأخذ هنا على المعنى وهو القيام بما فيه كما ينبغي والإحجام عن المنهى عنه . قال عبد الله بن المبارك . قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . قال : ما للعب خلقت . فلماذا أنزل الله : (وآتيناه الحكم صبياً) (٣) . وعلى هذا يكون الحكم معناه الفهم والجد والعلم والحزم ، وكلها من نعم الله العظمى عليه .

(ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) (٤) .

لوطا منصوب بفعل مقدر يفسره الظاهر بعده تقديره وآتيناه لوطا آتيناه فهو من باب الاشتغال . والحكم النبوة كما سبق توضيحه والعلم بمعرفة أمور الدين . وقد يطلق على الفهم والفصل بين المصنوع . أما القرية المذكورة فهي قرية سدوم وكان أهلها يعملون الخبائث من اللواط والضرط وحذف الحصى وقد وصفت القرية بوصف أهلها مجازا .

ونلاحظ أن العطاء الجزيل من الله لأنبيائه يتمثل في الحكم والعلم وقد ذكرت تأويلهما ، هذا إلى جانب العديد من مظاهر الفضل الإلهي والكرم

(١) الطبري : ١٦ / ١ ، مطبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ .

(٢) سورة صريم : آية ١٢ . (٣) سورة صريم : آية ١٢ .

(٤) تفسير الطبري : ١٦ / ٤٢ ، ٤٣ .

الرباني ، وقد ذكرت منه الله على موسى عليه السلام بقوله (ولما باغ أشده واستوى آتيناها حكما وعالما) (١) . وقريب من هذا ما ذكر عن يوسف وقد سبق أن أشرت إليه .

ويقول سبحانه في حق نبيه أيوب عليه السلام : (فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم) (٢) وذلك بعد أن نادى ربه متضرعا وتذكره بغاية الرحمة بقوله : (أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) فأخبر الله سبحانه باستجابة دعائه وشفاء مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه . قال النحاس : وقد كان مات أهله جميعا إلا امرأته ، فأحياهم الله في أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم (٣) . وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أمانهم الله ، فيكون معنى الآية هـذا : آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم .

ومن مظاهر إنعامه الأخرى على إبراهيم عليه السلام ما جاء في سورة العنكبوت : (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) (٤) . قال ابن كثير : هذه خلعة سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلا ، وجعله للناس إماما ، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام — إلا وهـو ومن سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم

(١) سورة القصص : آية ١٤ . (٢) سورة الأنبياء : آية ٨٤ .

(٣) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٤) سورة العنكبوت : آية ٢٧ .

حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام في ملثهم مبشرا بالنبى العربى
القرشى الهاشمى ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم فى الدنيا
والآخرة (١) .

والأجر الذى أعطاه الله لإبراهيم الثناء الحسن فى كل الأديان .

ويقول سبحانه عن نبيه داود عليه السلام :

(وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) (٢) . قيل أنه كان بيت
حول محراب داود عليه السلام أربعون ألفا مشتملون بالسلاح ، وقد جعل
الله ملكا كاملا من جميع ما يحتاج اليه الملوك (٣) . والحكمة التى أوتىها الزبور
وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق فهو حكمة ، وهذا أرجح فى رأى
من غره . قال مجاهد : يعنى الفهم والعقل والفطنة . وقال السدى : الحكمة
الصواب (٤) . أما النص فهو التمييز بين الأشياء ، وقيل للكلام البين فصل
أى مفصول ، والمراد الشهود والإيمان أو الخطاب الذى يفصل بين الصحيح
والفاسد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ (٥) .

ويقول سبحانه عن عيسى عليه السلام : (وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى
قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) (٦) . قرأ الحسن
الإنجيل بفتح الهمزة ، وقرأه رآفة على فعالة أى وفقناهم للتراحم والتعاطف

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٦ ، ص ٢٨٥ .

(٢) سورة ص : آية ٢٠ (٣) تفسير الطبرى : ٢٣ / ٨٩ .

(٤) الزمخشري : الكشاف ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٥) المرجع السابق نفسه . (٦) سورة الحديد : آية ٥٧ .

بينهم ونحوه في صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماء بينهم .
والرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم
للعباداة ، وقوى رهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب
كراكب وركبان ، وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره
وابتدعوا رهبانية (١) .

(١) العكبري : إملاء ما من به الرحمن على هامش الفجوات الآلية ،

الفصل السادس

الجملة الطلية في القصيدة القرآنية

الجملة الطلبية في القصة القرآنية

كان من مستلزمات هذا البحث أن أعرض للأسلوب الإنشائي في قصص القرآن الكريم وأخص بالذات الجملة الطلبية باعتبارها تتضمن الأمر والنهي والاستفهام وهي من أسس التركيب اللغوي التي تركز عليها في موضوعه .

وقد أردت من خلال العرض لصيغ الجملة الطلبية في قصص القرآن أن أتبين الدور الفعال الذي تلعبه هذه الصيغ في الأسلوب القرآني وأستكشف ما يتبعها من أغراض ، وقيمة هذه الأغراض المذكورة على ألسنة المرسلين نحو قومهم تارة والمذكورة على ألسنة قومهم تارة أخرى ، هذا بالإضافة إلى أظهار الأثر اللغوي والبياني لما تشتمل عليه تلك الصيغ من ألفاظ جزلة ومعان عميقة .

الاسلوب الإنشائي :

الإنشاء هو الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب نحو : جد في عملك ، ونحو : ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ١١ فالتثال الأول يطلب فيه من المخاطب الاجتهاد ، وفي الثاني تعجب من حسن الدين والدنيا مجتمعين ، وبالتالي ليس الطلب والتعجب مما يحتمل صدقا ولا كذبا . يقول قدامة بن جعفر : (والطلب كل ما طلبته من غيرك ، ومنه الاستفهام ، والدعاء ، والتمني لأن ذلك كله طاب . فإنك إنما تطلب من الله بدائك ومسألتك ، وتطلب من المنادي الإقبال عليك أو إليك ، وتطلب من المستفهم منه بذل الفائدة لك) (١) وتستطيع القول بأن الإنشاء نوعان : طلبي وغير طلبي :

(١) قدامة بن جعفر : نقد النثر ، ص ٤٥

(١) فالطلبي ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، ويكون بالأمر ، والنهي والاستفهام وهذا ما أردت بيانه في هذا الفصل عن القصص القرآنية كما سنرى . ويدخل معه التمني والنداء .

(٢) . غير الطلبي ما لا يستدعي مطلوباً ، وله عدة أساليب ، منها التعجب والقسم .

ولنبداً في استخلاص تراكيب الجملة الطلبية بأسلوب الأمر باعتباره يدخل في إطار الأسلوب الإنشائي ، والطريقة التي ستتبع في ذلك تقوم على حصر الجمل القرآنية التي تدخل في إطار الصيغة الطلبية — كما سنرى في صيغة الأمر ، يليها الاستفهام ثم الفردى — هذا مع التحايل اللغوي الجيد لمضمون هذه الصيغ وما يتبعه من أسرار لغوية وبيانها ..

أسلوب الأمر هو ما يطلب به حصول شيء لم يكن حاصلًا عند النطق به مع الاستعلاء والإلزام ، وإذا نظرنا إلى طالب الشيء والمطلوب منه ، وجدنا أن الطالب أعلى من المطلوب منه منزلة وأرفع رتبة وأنه يحتم على من طلب منه القيام بما يطلبه . ومثاله في القرآن قوله تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) والأداة التي دخلت على الفعل فجزمته هي لام الأمر في (لينفق) ، وقوله تعالى : (وبالوالدين إحساناً) . وقال معاوية لابنه يزيد : (عليك بالحلم والاحتمال حتى تتمكنك الفرصة ، فإذا أمكنتك فعليك بالصنح ، فإنه يدفع مفضلات الأمور ، ويقيك مصارع المخذور) فعليك هنا اسم فعل أمر دل ، على صيغة الأمر من الأعلى إلى الأدنى ، وكل أسلوب من هذا النوع يسمى أسلوب أمر حقيقي وصيغ هذا الأسلوب أربعة وهي : فعل الأمر ، والمضارع المقرون بلام الأمر ، واسم

فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعله كما في قوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا) .

الجملة الدعائية في قصص القرآن :

ولنبداً صيغة الأمر في قصص القرآن بالجملة الدعائية التي احتلت مكاناً كبيراً في القصة القرآنية وجرت كثيراً على ألسنة الأنبياء والمرسلين ، وقد عمدت إلى حصر هذه الجمل الدعائية وإدراجها في هذه الصيغة لما تتميز به من تحقيق صفات الإخبات والقنوت والإخلاص لله وحده من جانب أنبياء الله ورسله ، وما لها من أثر جليل في توطيد دعائم الصلة الروحية وتوثيقها بالله عز وجل .

وقد لاحظت بعد طول بحث واستقصاء أن الجمل الدعائية التي جرت على ألسنة الأنبياء والرسل كثيراً ما تكون مسبوقة بالنداء الذي يصعبه حذف الأداة وهذا إشعار بالقرب الأكثر من الله ، وهذا ما نتبينه على الوجه الآتي:

(وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام) (١) فالأصل فيه يارب ، وإنما حذفت الأداة لما فيه من الثقة بالله عز وجل والشعور بأنه أقرب إليه من كل شيء وليس بعيداً عنه . وذكر الدعاء في نفس السورة على لسان سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام:

(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مساهين لك ومن غريقتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) (٢)

(١) سورة إبراهيم : آية ٣٥ . (٢) سورة البقرة : آية ١٢٧ .

أى يقولان ربنا ، وقيل أن هذا الدعاء ذكر على لسان إبراهيم وابنه إسماعيل عندما كانا بينيان الكعبة المشرفة ، وكان إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة . ومعنى مسلمين لك مخلصين أوجهنا من قوله : أسلم وجهه لله أو مستسلمين يقال أسلم له وسلم واستسلم إذا خضع وأذعن^(١) .

والمعنى زدنا إخلاصاً أو إذعانا لك ، وقرئ مسلمين على الجمع كأنهم أرادوا أنفسهم وهاجر أو أجرياً التثنية على حكم الجمع لأنها منة^(٢) . وأرنا منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرف ولذلك لم يتجاوز مفعولين أى وبصرنا متعبداتنا في الحج أو عرفناها ، وقرئ وأرنا بسكون الراء . وبستمرا في الدعاء بأن يبعث الله في الأمة المسلمة رسولا مباركا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)^(٣) أى ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس . وأجري الدعاء على لسان إبراهيم بأن يطمئن قلبه بمشاهدة قدرة الله في إحياء الموتي ، جاء ذلك في قوله تعالى :

(وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى)^(٤) .

وهكذا يذكر فعل الدعاء في سورة البقرة على لسان إبراهيم ومعه إسماعيل نارة وعلى لسان إبراهيم نارة أخرى ، وإذا كان هذا الفعل قد

(١) ابن منظور : لسان العرب : مادة (سلم) .

(٢) الزمخشري : الكشاف ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٦٠ . (٤) سورة البقرة : آية ٢٦٠ .

تكرر في سورة البقرة أكثر من خمس مرات فهذا دليل على الصلاة الروحية الوثيقة من جانب إبراهيم وابنه إسماعيل بالله سبحانه :

وفي سورة إبراهيم ذكر فعل الدعاء على لسانه :
(رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) (١) .

ويجري الدعاء على لسان امرأة عمران بن ماثان أم مريم البتول جسد عيسى عليه السلام وهي حنة بنت فاقوذ في قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

وروى أنها كانت عاقرا لم تلد إلى أن عجزت ، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد وتمنت فقالت : اللهم إن لك علي ندرا شكرا إن رزقتني ولدا أن أصدق به علي بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمته ، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل (٣) . ومعنى محررا على هذا معتمدا لخدمة بيت المقدس ولا أستخدمه ولا أشغله بشيء وكان هذا النوع من النذر مشروعا عندهم .

ويجري الدعاء في نفس السورة على لسان زكريا :
(هناك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع

(١) سورة إبراهيم : آية ٤٠ . (٢) سورة آل عمران : آية ٣٥

(٣) الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ، ١٤٢ .

الدعاء) (١) أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المهراب ، أو فى ذلك الوقت فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان . لما رأى حال مريم فى كرامتها على الله ومنزلتها رغب فى أن يكون له ولد من أشاع مثل ولد أختها حنة فى النجابة والكرامة على الله وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك .

جرى على لسان زكريا أيضاً :

(قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) (٢)
والرمز فى اللغة كل ما أشرت به إلى بيان بلفظ ، أو بأى شىء أشرت ، أفهم أم بيد أم بعينين . قال الزجاج : ومعنى الرمز تحريك الشفتين باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين ، وقد قيل أن الرمز هو إشارة بالعينين أو الحاجبين أو الفم (٣) . وأصل الرمز التحرك يقال ارتمز إذا تحرك ومنه قيل للبحر الرموز . وقرأ يحيى بن وثاب إلا رمزا بضميتين جمع رموز كرسول ورسول .

(قال رب أرنى أنظر إليك) (٤) .

جرى هذا الدعاء على لسان سيدنا موسى عليه السلام ، أى أرنى نفسك أنظر إليك ، ولعله قد سأله النظر شوقاً إليه واشتياًقاً إلى رؤيته لما أسمعته كلامه وسؤال موسى الرؤية يدل على أنها جائزة عنده فى الجملة ، ولو كانت مستحيلة

(١) سورة آل عمران : آية ٣٨ (٢) سورة آل عمران : آية ٤١

(٣) الزجاج : معانى القرآن وأعرابه ، ج ١ ص ٤١٣ ، ط . المكتبة

العصرية — صيدا — بيروت .

(٤) سورة الأعراف : آية ٤١ .

عنده لما سأله ، والجواب بقوله : (لن تراني) يفيد بأنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة .

ومن دعاء موسى عليه السلام :

(قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك) (١) .

و (قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يقموا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى اشد به أزرى وأشركه في أمري) (٢) .

قال الزمخشري : لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى لعنه الله عرف أنه كلف أمراً عظيماً وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ويجعله حليماً حمولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بحميل الصبر وحسن الثبات وأن يسهل عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بحميل الصبر وحسن الثبات وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه (٢) . الوزير يجوز أن يكون مشتقاً من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من المؤازرة وهي المعاونة .

(١) سورة الأعراف : آية ١٥١ (٢) سورة طه : آية ٣٢

(٣) الزمخشري : الكشاف ، ج ٢ ، ص ٢٣ ، مطبعة نجد مصطفى ، ١٣٠٨ هـ .

عن الأصمعي قال : وكان القياس أزيروا فقلبت الهمزة إلى واو ، ووجه قلبها أن فعلا جاء في معنى مفاعل () كفولهم عشير وجاليس .
(قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) (١) .

وهذا ما ترتب على إجابة الدعوة من جانب موسى عليه السلام وفيه من عظيم صفاته وإثارة للحق والإنصاف ما لا يخفى . وأشارت سورة القصص إلى تكرير ندائه لربه : (فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) () وهذا إحياء بتواضعه الجم لذلك صطفاه الله على الناس برسالاته وبكلامه ويشير القرآن إلى رفيع مكانته وتدله على الله بقوله : (رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) (٤) ؛ وكان قد اعترف قبل ذلك بجرمه ودما ربه أن يغفر له بقوله : (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) والفاء الأولى الداخلة على فعل الدعاء للاستئناف والثانية للعطف . وقال في آية أخرى : قال رب نجني من القوم الظالمين (٥) فلم يجد عوناً ولا نصيراً إلا رب العزة الذي يتولى الصالحين من عباده . لذلك تكرر فعل الدعاء كما رأينا على لسانه في سورة القصص بالذات لما ارتكبه من قتل الرجل القبطي .

(رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي إنه كان من الضالين ولا تحزني

(١) للسابق نفسه . (٢) سورة القصص : آية ١٧

(٣) سورة القصص : آية ٢٤ (٤) سورة القصص : آية ٣٣

(٥) سورة القصص : آية ٢١ .

يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» (١) تكررت هذه الجملة الدعائية على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام وقد اشتملت على خيري الدنيا والآخرة كما نرى .

قال الرازي : إنه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة ، لأن النبوة كانت حاصلة فلو طلبت النبوة لكانت النبوة المطلوبة إما عن النبوة الحاصلة أو غيرها ، والأول محال لأن نحصيل الحاصل محال ، والثاني محال لأنه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبيا مرتين ، بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية وذلك بإدراك الحق وإنما قدم قوله : (رب هب لي حكما) على قوله : (وألحقني بالصالحين) لما أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات . وأيضا فإنه يمكن أن يعلم الحق وإن لم يعمل بالخير وعكسه غير ممكن (٢) .

أضف إلى ما ذكر أن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ، ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل . وجرى الدعاء على لسان نوح عليه السلام في قوله تعالى :

(رب انصرني بما كذبون) (٣) . وذكر في نفس السورة :

(وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) (٤) . أمر الله نوحا في هذه الآية أن يسأله ما هو أنفع له وأتم فائدة . قرأ الجمهور :

(١) سورة الشعراء : آية ٨٣ .

(٢) فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، ج ٦ ، ص ٢٥٥ .

(٣) سورة المؤمنون : آية ٢٦ (٤) سورة المؤمنون : آية ٢٨

منزلاً بضم الميم وفتح الزاي على أنه مصدر ، وقرأ أبو بكر عن طاصم والمفضل بفتح الميم وكسر الزاي على أنه اسم مكان ، فعلى القراءة الأولى : أنزلنى إنزالاً مباركاً ، وعلى القراءة الثانية : أنزلنى مكاناً مباركاً (١) قال الواجدى : إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك : الحمد لله ، وعند نزوله منها : رب أنزلنى منزلاً مباركاً .

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) (٢) الديار مأخوذة من الدار ، فهو خاص بمن ينزلها ولا يمكن المعنى هنا على العموم ، وقيل أن دياراً مأخوذة من الدوران وهو التحرك وعلى كل من القولين فأصله دوار وهو فيعال من الدور أو من المدار ، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالساكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء (٣) .

وفى نفس القصة يتكرر دعاء نوح بالمغفرة :

(رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات) (٤)

قرأ الحسن بن على رضى الله عنها ويحيى ابن يعمر والنخعى ولولدى تننية ولد ، يعنى ابنه ساماً وحاماً ، وقرأ ابن جبير ولوالدى بكسر الدال يعنى أباه فيجوز أن يكون أراد أباه الأقرب الذى ولده وخصه بالذكر من باب الأدب

(١) الشوكانى . فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ .

(٢) سورة نوح : آية ٢٦ .

(٣) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٤ ، ص ٤١٤ ، ط . عيسى البابى الحلبي

(٤) سورة نوح : آية ٢٨

الجامع (١). وهذا الداء عام لكل مؤمن ومؤمنة في سائر الأمم، ولعل نوحا قد خص في دعوته هذه أولا من يتصل به لأنهم أدلى وأحق بدعائه .

وقد يكون الداء محمولا على سبيل الاسترشاد والتوجيه من الله لأنبيائه كما في توجيه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

(قل رب إما تربني ما يوعدون رب فلا تجعلني مع القوم الظالمين) (٢) وقوله : (وقل رب أعوذ بك من هزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) (٣) وقوله سبحانه :

(وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) (٤) . فهذا هدى حكيم وتوجيه رشيد من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ويتوجه نبي الله سليمان عليه السلام بالداء المصحوب بالحمد الكثير والشكر الجزيل في قوله :

(رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) (٥) أي اجعلني أزرع شكر نعمتك عندي حتى أكون شاكرًا لك أبدا ، وقد عد نعمة الله تعالى عليه وطاب الإطاعة في الشكر وفي العمل الصالح ، وقوله برحمتك يدل على أن دخول

(١) الزمخشري : التوحيات الإلهية ، ج ٤ ، ص ٤١٤ ، ط . عيسى البابي الحلبي بمصر .

(٢) سورة المؤمنون : ٩٣ ، ٩٤ (٣) سورة المؤمنون : آية ٩٨

(٤) سورة المؤمنون : آية ١١٨ (٥) سورة النمل : آية ١٠

الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد . وقد أجاب الله دعوة سليمان
وحياه الملك العظيم ، وكان قد دعا ربه بذلك :

(قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت
الوهاب) (١) وقد قدم الاستغفار على استيهاب الملك جريا على عادة الأنبياء
والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم .

قال الزمخشري : وقد كان سليمان عليه السلام ناشئا في بيت الملك والنبوة
ـ ووارثا لها ، فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب إلفه ملكا زائدا
على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلا على نبوته (٢)
أراد أن يقول ملكا عظيما فقال : (لا ينبغي لأحد من بعدي) ولم يقصد بذلك
إلا عظم الملك وسعته .

ومن ذلك دعاء لوط عليه السلام :

(رب نجني وأهلي مما يعملون) (٣) .

وقد استجاب الله لدعائه ، وأنجاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث وهي
ـ قرية سدوم ، وفي صيغة أخرى :

(قال رب انصرني على القوم المفسدين) (٤) . وإنما وصف لوط قومه
ـ بأنهم مفسدون ولم يقل (المشركين) أو (الكافرين) لما كانوا يمارسونه

(١) سورة ص : آية ٣٥

(٢) الزمخشري : الكشاف ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .

(٣) سورة الشعراء : آية ١٧٩ (٤) سورة العنكبوت : آية ٣٠

من الكبائر وقبائح الأفعال . وما من موطن من مواطن تلك الدعوات إلا
ويكن فيه أسمى الأغراض التي من شأنها تحصيل الفائدة وتحقيق النفع ، لذلك
عجل الله باستجابة دعوات أنبيائه بعد أن ألهمهم ذكرها على ألسنتهم .

وعبر القرآن عن صيغة الدماء الذي جرى على لسان آسية امرأة فرعون
بقوله : (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من
القوم الظالمين) (١) .

فتكرير الدماء فيه إشعار بالخضوع لله والحاجة الملحة إليه ، وقد جمعت
دعوتها في هذه الآية للفوز بسعادة الدارين وقد تحوفت على نفسها من فرعون
وقومه الظالمين ، فتضرعت إلى الله أن يتوفاها على الإيمان ويدخلها الجنة .

وفي سورة المائدة ذكر القرآن توسل عيسى عليه السلام ودعائه أن ينزل
الله عليهم مائدة من السماء لتكون آية باهرة من آياته سبحانه :

(قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا
عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) (٢) .

عن وهب بن منبه عن سليمان الخير أنه قال : لما سأل الحواريون عيسى بن
مريم المائدة : كره ذلك جدا وقال : اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ، ولا
تسألوا المائدة من السماء ، فإن نزلت عليكم كانت آية من ربكم ، وإنما هلك
نعمود حين سألوا نبيهم آية ، فاجتلبوا بها حتى كان بوارهم فيها (٣) . فلما أبوا
إلا أن يأنيهم بها قالوا : (نريد أن نأكل منها ونطمئن قلوبنا) فما زال عيسى

(١) سورة التحريم : آية ١١ (٢) سورة المائدة : آية ١١٤

(٣) تفسير ابن كثير . ج ٣ ، ٢٢٣ ، مطابع الشعب .

يدعوا ربه حتى استقرت بين يديه وأصحابه من الحوارين حوله ، يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط ، وخر عيسى والحواريون لله سجداً وشكراً بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا .

وهكذا تتكرر الجمل الدعائية وتتوالى على ألسنة الأنبياء والمراسين والصالحين كما حكاه القرآن الكريم ، وهذا ما تبينته في بداية عرضي للجملة الطالبية في صيغة الأمر وقد أدرجت تلك الجمل الدعائية في هذه الصيغة لأنها تدل على الطلب المصحوب بالإلحاح في تحقيق الرغبة من الأدنى إلى الأعلى ، ولأحظت من خلال هذا العرض أن الجمل الدعائية في القرآن الكريم كلها قد سبقت على ألسنة الأنبياء والمرسلين في سياق الأحداث القصصية لتلك الأزمان الغابرة الموهلة في القدم .

والآن ننتقل إلى صيغة الأمر في قصص القرآن من الأعلى إلى الأدنى ، ونلقى ضوءاً من التحليل اللغوي والبياني لكل من هذه الصيغ واستخراج مواطن العبرة فيها مع الاهتمام الجيد بالمعنى وما يتضمنه من أصول واشتقاقات لغوية ، مستشهداً في ذلك بأصول المراجع في اللغة والنحو ، ورواد التفسير القرآني وتعليل وجهات نظرهم في معالجة المضامين والوصول إلى الأهداف . والطريقة التي سأتبعها في ذلك تقوم على حصر الجمل في الصيغة الطالبية وتجميعها عن كل قصة من قصص الأنبياء بحيث يكون هناك إلمام بما ذكر في هذه القصص في مواطن منفردة من القرآن الكريم ، وهذا الإلمام والتنسيق للجمال يعني التجميع والتنظيم كما سنرى ، ولنبدأ بالتركيب الندائية التي يعقبها فعل الأمر والتي وقعت كثيراً في قصص القرآن :

تركيب ندائية في صيغة الأمر :

جاء في سورة مريم :

(يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) (١) .

أمرت مريم بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونها من هيات الصلاة وأركانها ، والمراد اعبديه بالقول والعمل ، ثم قيل لها : (واركعي مع الراكعين) بمعنى ولتكن صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة أو انظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم (٢) .

وقد أثنى الله تعالى على مريم وابنها عيسى عليهما السلام كما ذكرته سورة المائدة بقوله :

(وإذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) (٣) أمره أن يتذكر عظيم فضله عليها بعد هذا النداء الذى يوحى بقربه منه ، وإنما يتمثل هذا الفضل كما أرى فيما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات وخلقه إياه من أم بلا ذكر وتأيدته بروح القدس جبريل عليه السلام إلى غير ذلك من مظاهر النعمة والفضل وما لها من مزايا رفيعة . وكان عيسى عليه السلام قد دعا بنى إسرائيل إلى عبادة الله الواحد كما ذكر فى نفس السورة :

(وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) (٤) وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير فى

(١) سورة آل عمران : آية ٤٣ .

(٢) الزمخشري : الكشف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ، ص ١٤٤ . مطبعة

عهد مصطفي القاهرة — ١٣٠٨ هـ .

(٤) سورة المائدة : ٧٢

(٣) سورة المائدة : آية ١١٠

المهد أن قال : (إني عبد الله آتاني الكتاب ٠٠٠) ولم يقل أنا الله ، ولا ابن الله ومن ثم دعا إلى الإخلاص في عبادة الله الواحد فقال :
(وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) (١) وهذا ما كان عليه أنبياء الله ورسله أجمعون.

وقد جاء في نفس السورة حكاية عن عيسى عليه السلام صورة النداء في معنى القول : (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) (٢) أي هذا الذي ناديتهم به وذكرته لهم ودعوتهم إليه ، وأن هي المفسرة في قوله : (أن اعبدوا) لأنها توضح معنى القول والأمر في الآية الكريمة . ونظير وقوع أن المفسرة في صورة صيغة الأمر كثير في قصص القرآن ، فقد يعبر عن النداء بالوحي الذي يعلوه فعل الأمر المسبوق بأن المفسرة ، من ذلك قوله تعالى :

(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون) (٣) .
فإن هنا مفسرة وسابقة لفعل الأمر لأن فيه بيان للوحي المشار إليه . وما في قوله (ما يأفكون) موصولة أو مصدرية يعني ما يأفكونه أي يقبلونه عن الحق إلى الباطل ويزورونه ، أو إفكهم تسميته المأفوك بالإفك . وقوله تعالى :

(فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فسكان كل فرق كالطود العظيم) (٤) وكانت عصاه فيها معجزات باهرات وقوله تعالى :

(١) سورة مريم : آية ٣٦ (٢) سورة المائدة : آية ١١٧
(٣) سورة الأعراف : آية ١١٧ (٤) سورة الشعراء : آية ٦٣

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) ^(١) وذكر النداء في صورة الماضي كما في قوله تعالى :

(وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين) ^(٢) وأن السابقة لفعل الأمر هي أن المفسرة لأنها تبين معنى النداء ومقصوده .

وجاء في القرآن حكاية عن زكريا عليه السلام في قوله تعالى :

(خارج على قومه من الخراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة
وعشيا) ^(٣) . أى أنه أشار عليهم بذلك .
وقوله تعالى عن نوح عليه السلام :

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب
الليم) . ^(٤) أى بأن أنذر قومك على أنها مصدرية ويجوز أن تكون هي المفسرة
لأن في الإرسال تضمن معنى القول وقرأ ابن مسعود أنذر بدون أن ، وذلك
على تقدير القول أى فقلنا له أنذر.

ووقعت أن المفسرة بعد النداء في قصة نوح في قوله تعالى :

(يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) ^(٥) فإن
هي التفسيرية لنذير ، أو هي المصدرية أى أن اعبدوا الله ولا تشركوا به
غيره واتقوه أى اجتنبوا ما يوقعكم في عذابه وأطيعون فيما أمركم به ، فإنني

(٢) سورة الشعراء : آية ١٠

(١) سورة الشعراء : آية ١٠

(٤) سورة نوح : آية ١

(٣) سورة مريم : آية ١١

(٥) سورة نوح : ٣ ، ٢

رسول الله إليكم من عنده (١) . وأتبع ذلك بجواب الأمر في نفس السياق بقوله : (يغفر لكم من ذنوبكم) ومن في الجواب للتبعيض أى بعض ذنوبكم ، وقيل يغفر لكم ذنوبكم فتكون من على هذا زائدة وقيل هى لبيان الجنس .

نعود إلى حصر التراكيب الندائية التى يليها صيغ الأمر والطلب فى القصة القرآنية ، وقد أردنا من هذا الحصر أن نتبين الأغراض التى يشير إليها الأمر فى قصص القرآن ، فكثيراً ما يخرج الأمر عن معناه ويحقق أغراضاً أخرى أود أن أستوضحها فى هذا الصدد . وسوف يتبين لنا من خلال الأمثلة القصصية المسبوقة بالتراكيب الندائية أن الصيغة الطلبية تتنوع فى قصص القرآن تبعاً للمضمون ويقوم هذا التنوع فى الأمثلة القصصية ، كما فى قوله :
ته الى :

(يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك) (٢) ، قد ذكر النداء فى هذه الآية على إرادة القول أى قالت له الملائكة (أعرض عن هذا) أى أعرض عن الجدال فى قوم لوط وإن كانت الرحمة بذلك فلا فائدة فيه فذلك قضاء قضاء الله والعذاب نازل بهم لا محالة . من ذلك ما جاء فى قصة موسى عليه السلام :

(وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك) (٣) ذكر فعل الأمر فى أعقاب النداء على سبيل الاستهزاء والسخرية من موسى عليه السلام ، وكانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر . أى بما عهد

(١) الشيركالى : فتح التدبير ، ج ٥ ، ص ٢٨٨

(٣) سورة الزخرف : آية ٢٩

(٢) سورة هود : آية ٧٦

عندك من أن دعوتك مستجابة أو بعده عندك وهو النبوة .

ومثله في قصة آدم :

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما) (١) .

أي اتخذ الجنة مسكناً وهو محل السكون ، وأنت في الآية تأكيد للضمير المستكن في الفعل ليصبح العطف عليه كما تقرر في علم النحو أنه لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المستكن إلا بعد تأكيد كيدته بمنفصل . والرغد العيش المنيء (٢) الذي لا عناء فيه وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف .

(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) (٣) . آدم أصله أدم بهزتين إلا أنهم لينوا للثانية وإذا حركت قلبت واوا كما قالوا في الجمع أو ادم . قال الأخفش : واختلف في اشتقاقه ف قيل من أدم الأرض وقيل من الأدمة وهي السمرة (٤) وأجمع النحاة على أنه اسم أعجمي ، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وأشبه ذلك .

وجاء في قصة سليمان على لسان النملة :

(يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) (٥) . جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب ،

(١) سورة البقرة : آية ٣٥ (٢) القاموس المحيط : مادة (رغد)

(٣) سورة البقرة : آية ٣٣

(٤) الزمخشري : الكشف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ، ص

(٥) سورة النمل : آية ١٨

والمساكن هي الأمكنة التي يسكن فيها النمل . قيل أن هذه النملة التي سمعها سليمان أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند إليها ، ورد هذا أبو حيان فقال : لحاق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة بل يصح أن يقال في المذكر قالت ، لأن النملة وإن كانت بالتاء فهي مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه ، بل يتميز بالاخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى (١) . وقرئ : النمل بضم الميم وفتح النون بزنة رجل وسمو وقرئ . بضمين فيها .

وذكر علي لسان بلقيس في نفس القصة :

(قالت يا أيها الملأ أفتونى في أمرى) (٢) . الملأ هنا أشرف القوم ، والمعنى يا أيها الأشرف أشيروا على وبيّنوا الصواب لى في هذا الأمر وأجيبونى بما يقتضيه الحزم ، وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون في ذلك حل لما أشكل من الأمر عليها (٣) . ونلاحظ أن في الآية حذفاً تقديره : فلما قرأت بلةيس الكتاب جمعت أشرف قومها ، وقالت لهم يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب ، يا أيها الملأ أفتونى وكرر قالت لمزيد العناية بما قالته لهم ، ثم زادت في التاديب واستجلاب خواطرم ليحضوها النصيح ويشيروا عليها بالصواب .

وجاء في قصة هود :

(وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (٤) .

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٤ ، ١٢٦

(٢) سورة النمل : آية ٣٢

(٣) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٤ ص ١٢٦

(٤) سورة الأعراف : آية ٦٥

أى وأرسلنا إلى عاد (٥) . قال النسفي : وإنما لم يقل فقال كما في قصة نوح قبلها لأنه على تقدير سؤال سائل قال فما قال لهم هود فقل : قال يا قوم اعبدوا الله (١) . وكانت دعوة الأنبياء في ذلك واحدة كما بينته سورة الأعراف ومثله في قصة صالح :

(وإلى حمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) .
وذكر في نفس القصة :

(وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) فهذا استعجال منهم للثقة وطلب منهم لنزول العذاب وحلول البلية بهم . والأمر في الآية للتعجيز ، والاستكبار من جانبهم ، وكانوا قد عتوا عن أمر ربهم واستكبروا .

وذكر النداء بلفظ (يا قوم) قبل صيغة الأمر على لسان هود عليه السلام بقوله :
(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا) (٢) أى
اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم ، ثم توسلوا إليه بالتوبة ، وجواب الأمر

(*) أرسل الله هودا إلى عاد بعد الطوفان ، وبعد أن مضى زمن نوح عليه السلام . وعن ابن أسحق أن منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله فيهم هود هي الأحقاف ، قال : والأحقاف الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن (انظر الخريطة التوضيحية المذكورة) وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي أتاهم الله فبعث إليهم هودا وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحدوا الله .

(ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ، ج ٨ ، ص ١٥٣) -

(١) تفسير النسفي ، ج ٢ ، ص ٤٧

(٢) سورة هود : آية ٥٢

(يرسل) فعل مضارع مجزوم ذكر على سبيل الترغيب في الإيمان بالخير العاجل ، ومدراراً منصوب على الحال أى كثير الدور . درت السماء تدر فهي مدرار ، وكان قوم هود أهل بسانين وزروع وعمارة وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن (١) .

وجاء في قصة داود عليه السلام :

(يا جبال أوبي *) معه والطير (٢) .

اجتمعت القراء الذين يعرفون على تشديد (أوبي) ومعناه : سبحي . وقرأ بعضهم (أوبي معه) من آب يؤرب أى تصرفي معه و « الطير » منصوبة على جهتين إحداهما أن تنصب بالفعل بقوله : ولقد آتينا داود منا فضلاً . وسخرنا له الطير . قال القراء : فيكون مثل قولك أطعمته طعاماً وماء ، تريد : وسقيته ماء ، فيجوز ذلك (٣) والوجه الآخر : بالنداء ، لأنك إذا قلت : يا عمرو والصلت أقبلاً ، نصبت الصلت لأنه إنما يدعى بياها ، وقديجوز رفع الطير على أن يتبع ما قبله ، ويجوز رفعه على : أوبي أنت والطير أى بالعطف على الضمير المرفوع في قوله : « أوبي » . قال القراء : وأنشدني

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٥ ، ص ٤٨٢

(٢) سورة سبأ : آية ١٠

(*) كلمة (أوبي) في الأصل غير عربية ، وهي تعني التسبيح بإسان الحبشة ، وهو ما ذكره الطبري في تفسيره الجامع للقرآن . (الطبري : ٢٤ / ٥١) .

(٣) العراء : معاني القرآن ، ج ١ ، ص ٣٥٥

بعض العرب في النداء إذا نصب لفقده يأياها :

ألا يا عمرو والضحاك سيراً فقد جاوزتما خمر الطريق (١)

الخمر : ما سترك من الشجر وغيرها ، وقد يجوز نصب الضحاك ورفعها .

ومن ذلك ما جاء في قصة يوسف عليه السلام :

(يا أيها الملا أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون) (٢) .

وهو خطاب الأشراف من قومه ، والمراد أخبروني بتأويل هذه الرؤيا .

وقد حذف حرف النداء في قوله :

(يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات ممان) (٣) .

يحذف حرف النداء ، والمعنى : أيها البليغ في الصدق وإنما قال له ذلك

لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما
أول (٤) .

(قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه) (٥) .

فصل في هذه الآية بين النداء والأمر بالجملة الخبرية : (إن له أبا شيخاً

كبيراً) وذلك لتعليل الأمر في رأيي ، والأمر في الآية للاستعطاف والاسترحام
فقد استعطفوه بإذكارهم إياه حق أيهم يعقوب وأنه شيخ كبير السن أو كبير

(١) المصدر السابق نفسه (٢) سورة يوسف : آية ٤٣

(٣) سورة يوسف : آية ٤٦

(٤) الزمخشري : الكشاف ، ج ١ ، ص ٧٣

(٥) سورة يوسف : آية ٧٨

القدر وأن بنيامين أحب إليه منهم وكانوا قد أخبروه بأن ولدا له قد هلك وهو عليه ثكلان وأنه مستأنس بأخيه . وجاء في نهاية القصة :

(قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) (١) طلبوا منه أن يستغفر لهم واعترفوا بالذنب ، وفي الكلام حذف والتقدير : ولما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول ، فوعدهم بما طلبوه منه .

تراكيب مجردة من النداء في صيغة الأمر :

بالإضافة إلى ما ذكرته من التراكيب الندائية التي أعقبها فعل الأمر ، فإن هناك تراكيب مجردة من النداء في قصص القرآن يذكر فيها فعل الأمر مباشرة وتتنوع فيها أغراض الأمر كما سنرى من خلال العرض لهذه القصص في القرآن الكريم :

من ذلك ما جاء في سورة البقرة على لسان بنى إسرائيل في مجادلته لموسى عليه السلام بشأن البقرة التي أمروا بذبحها :

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) (٢) .

وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة . فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به ، ولو تركوا التعنت والأسئلة المألوفة لأجزأهم ذبح

(١) سورة يوسف : آية ٩٧ .

(٢) سورة البقرة : آية ٦٨ .

البقرة ولكنهم شددوا فشد الله عليهم (١). وقد أمرهم موسى بتنفيذ ما كلفوا به بقوله :

(فافعلوا ما تؤمرون) (٢). وهو تجديد للأمر وتأكيد له ، وزجر لهم عن التعت ، فلم ينفعهم ذلك ولا نجح فيهم ، بل رجعوا إلى طبيعتهم وعادوا إلى مكرهم فقالوا :

(ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها) (٣) .

ومنه قوله تعالى في قصة آدم :

(وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو) خطاب لآدم وحواء ، وقد خوطبا بما يخاطب به الجمع لأن الاثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية . وقيل أنه خطاب لهما ولذريتهما لأنها لما كانا أصل هذا النوع الإنساني جعلنا بمنزلة الجمع ويدل على ذلك قوله تعالى : (بعضكم لبعض عدو) فإن هذه الجملة واقعة حالا مبينة للهيئة الناتجة للمأمرية بالهبوط فهي تفيد ذلك (٤) .

ومنه قوله لموسى عليه السلام :

(فاذهب أنت وربك فقائلا إنا هاهنا قاعدون) (٥) .

قال بنو إسرائيل هذا لموسى جهلا بالله عز وجل وبصفاته وكفرا بما

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ١ ، ص ٨١

(٢) سورة البقرة : آية ٦٨ (٣) سورة البقرة : آية ٦٩

(٤) الشوكاني : فتح القدير ، ج ١ ، ص ٥٥

(٥) سورة المائدة : آية ٢٤

يجب له أو استهانة بالله ورسوله . وأرى أن الذهاب في الآية قد يحمل على الإرادة والقصد ، ويجوز أن يراد بالرب هارون وكان أكبر من موسى وكان موسى بطيعه ، والفاء الأولى للاستئناف والثانية للعطف .

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) إذ متعلق بمحذوف تقديره واذكر إذ قلنا . وقال أبو هبيده إذ زائدة وهو ضعيف ، والسجود معناه في لغة العرب التذلل والخضوع ، وغايته وضع الوجه على الأرض (١) . وفي هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام حيث أسجد الله له ملائكته . والسجود في الآية قد يكون لله وليس لآدم .

(اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى) (٢) وقال في آية أخرى .

(فقولوا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل) (٣) .

الأمر في الآيات لموسى وأخيه هارون للترجي لهما أى اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه .

ومن صيغ الأمر الأخرى في قصة موسى عليه السلام :

(وأدخل يدك في جيبك تخرج يضاء من غير سوء) (٤) ، وفي سورة القصص (اسلك يدك في جيبك) ، وفي سورة الشعراء : (فأرسل إلى

(١) ابن منظور : لسان العرب (مادة سجد)

(٣) سورة طه . آية ٤٧

(٢) سورة طه : آية ٤٢

(٤) سورة النمل : آية ١٢

هارون) (١) أى أرسل إليه جبريل بالوحى ليكون معى رسولا مؤازراً مظاهراً معاوناً ، ولم يذكر المؤازرة هنا لأنها معلومة من غير هذا الموضع كقوله فى طه :

(واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى)

وهى أفعال تدخل فى التراكيب الخاصة بالجملة الدمايية ، ولا نقول أفعال أمر نادباً مع الله تعالى . وأشدد وأشرك مجزومان فى الجواب .

(قال كلا فاذهباً بآياتنا) وفى ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما

طلب من ضم أخيه إليه كما يدل عليه توجيه الخطاب إليها كأنه قال : ارتدع يا موسى عن ذلك واذهب أنت ومن استدعيته ولا تخف من القبط .

(قال فانت به إن كنت من الصادقين) القول من فرعون لموسى على

سبيل التمجيز وإبطال الحجة والمقدرة وذلك فى الحوار الذى دار بينهما وذكر فى نفس القصة :

(قالوا — أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار

عليم) (٢) قرىء أرجئه وأرجه بالهمز والتخفيف ، رها لغتان . يقال أرجأته إذا

آخرته والمعنى آخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة (٣) وقيل أحبسه وذلك

محتمل لأن فى الحبس معنى التأخير عن قضاء الحاجة . ويأتوك مضارع مجزوم

فى جواب الأمر ، والمراد بالسحار العليم الفائق فى علم السحر وصنعتة ولذلك

جاءت اللفظة على صيغة المبالغة .

(١) سورة الشعراء : آية ١٣ (٢) سورة الشعراء : ٣٦ : ٣٧

(٣) نحر الدين الرازى : مفاتيح الغيب ، ج ٦ ، ص ٣٤٧

(قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) (١) لما تواضعوا له تواضع هو أيضاً لهم ، فقد مهمهم على نفسه وقال : ألقوا ما أنتم ملقون (٢) . ولم يكن ذلك ممن موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر ، بل أراد أن يقهرهم بالحجة ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به (٣) وجاء فعل الأمر مسبوقاً بأن المفسرة بعد الوحي في قوله تعالى :

(وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون) قريء أسر بقطع الهمزة ووصلها . أمر الله سبحانه موسى أن يخرج يبنى إسرائيل ليلاً ، وبماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى وبما جاء به . وجملة : (إنكم متبعون) تعليل للأمر المتقدم ، أى يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم .

(وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر ييوءاً واجعلوا ييوئكم قبله وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) (٤) .

يذكر تعالى في هذه الآية سبب إنجائه بنى إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منه ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام وأخاه هارون عليه السلام ، أن يتخذوا لقومها بمصر ييوءاً . وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى :

(١) سورة الشعراء: آية ٤٣

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٤ ، ص ٩٦

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣٠ ، ص ٢٦٩٥ ، مطابع

الشعب .

(٤) سورة يونس : آية ٨٧

(واجعلوا بيوتكم قبلة) فقال سفيان الثوري وغيره ، عن عكرمة عن ابن عباس : أنهم أمروا أن يتخذوها مساجد (١) .

(واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار) (٢) الكلام في الآية موجه إلى ذكر ربه عليه السلام وقد أمره بالذكر والتسبيح لكونها أشرف الغايات ومن أعظم الأعمال ، ولذلك جمع بينها في الآية الكريمة والمراد حثاً على الاجتهاد وملازمة العبادة . قال الزجاج : سبح ، صلى ، ويقال فرغت من سبحتي أي من صلاتي وإنما سميت الصلاة تسبيحاً لأن التسبيح تعظيم الله وتبرئته من السوء ، فالصلاة يوحد الله فيها ويحمد ويوصف التقدير بكل ما يبرئ منه من السوء . فلهذا سميت الصلاة التسبيحة (٣) . والإبكار يقال فيه : أبكر الرجل يبكر إبكراً ، وبكر يبكر تبكيراً ، وبكر يبكر في كل شيء يتقدم فيه (٤) .

وقد تكرر فعل الأمر (اذكر) في مواضع كثيرة من القرآن عن قصص الأنبياء ، وخوطف به النبي صلى الله عليه وسلم ليدكر المؤمنين بأحوالهم :

(واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) (هـ) لما فرغ من ذكر قرون الضلالة وأمم الكفر والتكذيب وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما

(١) ابن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج ١٥ / ١٧٢

المطبعة الأميرية الكبرى — بولاق

(٢) سورة آل عمران : آية ٤١

(٣) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه ، ج ١ ، ص ٤١٣ . صيدا —

بيروت ١٩٧٣

(٤) ابن منظور : لسان العرب (مادة بكر)

(٥) سورة ص : آية ١٧

يسمعه زاد في تسليته وتأسيته بذكر قصة داود وما بعدها . ومعنى : (اذكر عبدنا داود) اذكر قصته فلأنك تجد فيها ما تتسلى به ، والأيد : القوة ومنه رجل أيد أى قوى ، وتأيد الشيء : تقوى ، والمراد ما كان فيه على السلام من القوة على العبادة . قال الزجاج : وكانت قوة داود على العبادة أتم قوة ، ومن قوته ما أخبرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وكان يصلي نصف الليل وكان لا يفر إذا لاقى العدو .

وقال عن أيوب في نفس السورة :

(واذا ذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب)^(١) وهو معطوف على قوله : (واذا ذكر عبدنا داود) فأيوب عطوف بيان وجملته (إذ نادى ربه) بدل اشتمال من عبدنا . وتكرر فعل الأمر (اذكر) في نفس السورة عن أنبياء الله ورسله فقال :

(واذا ذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار)^(٢)

و (واذا ذكر إسماعيل رالسع وذا الكفل وكل من الأخيار)^(٣) . قيل وجه أفراد إسماعيل بالذكر بعد ذكر أبيه وأخيه وابن أخيه الإشعار بأنه عريق في الصبر الذى هو المقصود بالتمجيد هنا . وعبر القرآن عن التذكيرة بفعل الأمر (اتل) في قوله تعالى :

(واتل عليهم نبأ إبراهيم)^(٤) فهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله

(٢) سورة الشعراء : آية ٦٨

(٤) سورة ص : آية ٤٨

(١) سورة ص : آية ٤١

(٣) سورة ص : آية ٤٥

وخليله إبراهيم وإمام الخنفاء ، أمر الله رسوله بهذا صلى الله عليه وسلم أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له والتبصر من الشرك وأهله (١) .

وقوله تعالى :

(وائل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) (٢) في قصة هابيل وقايل .

(وائل عليهم نبأ نوح) (٣) .

(وائل ما أوحى إليك من كتاب ربك) (٤) .

(وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) (٥) .

(وائل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة) (٦) .

نلاحظ من خلال عرض الآيات الكريمة أن فعل الأمر (ائل) قد تضمن معنى التذكير والبيان في القرآن الكريم وأراد الله به تذكير الناس بتوجيه الخطاب إلى نبيه صلى الله عليه وسلم كما ذكرت .

ونلاحظ أن دعوة الأنبياء واحدة في توجيه أقوامهم ، وقد حرصوا على حثهم على الاستغفار وهذا ما يشيع في قصص الأنبياء ، من ذلك قول نوح عليه السلام :

(فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٦ ، ص ١٥٥ مطابع الشعب .

(٢) سورة المائدة : آية ٢٧ (٣) سورة يونس : آية ٧١

(٤) سورة الكهف : آية ٢٧ (٥) سورة الأعراف : آية ١٨٥

(٦) سورة العنكبوت : آية ٤٥ .

يأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً (١) .

وقول هود :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا) (٢) وقبل

ذلك قال :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) (٣)

وقوله تعالى :

(وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (٤) .

و (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٥) .

وهكذا يتكرر فعل الأمر (استغفروا) الوارد بمعية الجمع في قصص القرآن خمس مرات ، منها ثلاث مرات في قصة هود لاشتغالها على قصة نوح وهود وغيرهما ، كما ورد فيها على لسان صالح عليه السلام :

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ) (٦) مقرونا

بالضمير الذي يعود على الذات العلية وهو الهاء .

وقد تعدد جواب الأمر في الآيات السابقة إشارة إلى أن الاستغفار من أعظم الأبواب التي تطرق تقرباً إلى الله تعالى وطمعاً في رحمته ومرضاته . والمراد سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية إنه كان غفاراً أي كثير المغفرة للمذنبين ، ويرسل ماء السماء عليكم ، فقيه إضمار . وقيل المراد

-
- | | |
|--------------------------|-----------------------|
| (١) سورة نوح : ١٠ — ١٢ | (٢) سورة هود : آية ٣ |
| (٣) سورة هود : آية ٢ | (٤) سورة هود : آية ١٠ |
| (٥) سورة المزمل : آية ٢٠ | (٦) سورة هود : آية ٦١ |

بالسما المطر ، كما في قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا (١) .

قال الشوكاني: والمدرار الدرور وهو التحلب بالمطر، وانتصابه إما على الحال من السماء ، ولم يؤث لأن مفعلا لا يؤث ، تقول امرأة مثناء ومذكار ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف : أى إرسالاً مدراراً ، وجزم (يرسل) لكونه جواب الأمر (٢) وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول الرزق لذلك حرص عليه المرسلون في دعوتهم إلى الله .

وجاء في قصة سليمان :

(قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى) (٣) أى اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل للناس لثلا يعرفوه . وقرئ ننظر بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف (٤) .

ومن الأمثلة الأخرى للأمر المجرد من النداء :

(ار كض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) (٥) عن أيوب عليه السلام وهو بتقدير القول ، أى قلنا له : ار كض برجلك . والركض الدفع بالرجل يقال : ركض الدابة برجله إذا ضربها بها (٦) وقال المبرد: الركض التحريك.

(١) البيت في فتح القدير : للشوكاني ، ج٤ ، ص ٢٨٩ ولم يذكر الشاعر

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج٤ ، ص ٢٨٩ .

(٣) سورة النمل : آية ٣١ .

(٤) الزجاج : معاني القرآن وإعراجه ، ج٢ ، ص ٣٥٦ .

(٥) سورة ص : آية ٤٢ .

(٦) الفيروزبادي : القاموس المحيط مادة (ركض) .

(وخذ بيدك ضغنا واضرب به ولا تحنت) (١) أى اضرب بذلك الضغث ولا تحنت فى يمينك ، والحنت الإلثم ، ويطلق على فعل ما حلف على تركه ، وكان أبوب قد حلف فى مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة . وهذه الجملة معطوفة على قوله (اركض) والتقدير قلنا له : (خذ بيدك ضغنا) والضغث هو قبضة من حشيش مختلط رطبها يابسها (٢) قال الواحدى : الضغث : ملء الكف من الشجر والحشيش والشاربخ .

(قال فاخرج منها فإنك رجيم) (٣) الخطاب لإبليس ، وهي جملة مستأنفة أى فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة ، ثم علل أمره بالخروج بقوله : إنك رجيم أى مرجوم بالكواكب مطرود من كل خير ، فعيل هنا بمعنى مفعول .

وذكر فى قصة إبراهيم :

(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) (٤) . ذكروا ذلك لما دحضت حججهم وبأن عجزهم ، وظهر الحق واندفع الباطل . وعدلوا إلى استعمال جاء ملكهم بهذا الخطاب . فجمعوا خطباً كثيراً ، حتى أن كانت المرأة تمرض فتتذر إن عوفيت أن تحمل خطباً لحريق إبراهيم (٥) .

(١) سورة ص : آية ٤٤ .

(٢) كتاب المصباح المنير : (مادة : ضغث) الفيومى : المطبعة الأميرية

بالقاهرة ١٩٣٨ م .

(٣) سورة الحجر : آية ١٥ .

(٤) سورة الشعراء : آية ٦٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ ، مطابع الشعب .

(قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) (١) .

قال سعيد بن جبير — وروى عن ابن عباس أيضاً — قال : لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول : متى أوامر بالمطر فأرسله ؟ قال : فكان أمر الله أسرع من أمره ، قال الله : (يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) ، قال : لم يبق نار في الأرض إلا طفئت (٢) .

وذكر الأمر للتعجيز والتعنت على لسان قوم شعيب عليه السلام في قوله تعالى : (فأسقط علينا كسفاً من السماء) وكان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ، فقالوا له هذا القول نعتنا واستبعاداً وتعجيباً . والكسف : القطع ، قال أبو عبيدة : الكسف جمع كسفة ، مثل سدر وسدرة ، والكسفة القطعة من الشيء ، يقال : أعطني كسفة من ثوبك ، والجمع كسف (٣) .

من صيغ الامر الاخرى في قصة يوسف :

(افتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين) (٤) ذكروا ذلك لما قوى الحسد وبلغ النهاية ففسالوا لا بد من تباعد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين : القتل أو التفرغ إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك (٥) .

(١) سورة الشعراء : آية ٦٩ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : الطبري ٢٢ / ٤٦ .

(٣) السجستاني : غريب القرآن .

(٤) سورة يوسف : آية ٩ .

(٥) فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، ج ١٥ ، ص ١٠٦ .

ثم ذكروا العلة فيه وهي قولهم : (يخل لكم وجه أيبكم) بالجزم جوابه للأمر أي يخلص . والمعنى أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه فإذا فقد . أقبل علينا بالميل والمحبة وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال أبو السعود : وتكونوا بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على إضمار أن أو الواو بمعنى مع مثل قوله : (وتكنموا الحق وأنتم تعلمون) وإثارة الخطاب في لكم وما بعده للمبالغة في حلمهم على القبول فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (١) .

(وألقوه في غيابة الجب) أي في قعره وغوره ، سمي بها لغيبته عن عين الناظر . والجب البئر التي لم تطو بعد لأنها أرض جبت جبا من غير أن يزداد على ذلك . وقرأ نافع في غيابات الجب .

(أرسله مغنا غدا يرتع ويلعب) قرأ ابن كثير بالنون وكسر العين من الارتعاء ، ويلعب بالياء ، والارتعاء افتعال من رعى يقال : رعت الماشية الكلأ ترعها رعيًا إذا أكلته . وقوله يرتع الارتعاء للإبل والمواشي وقد أضافوه إلى أنفسهم لأن المعنى يرتع إبلنا ثم نسبوه إلى أنفسهم لأنهم بالفون كاملون . قال الرازي : قرأ نافع كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضافه الارتعاء إلى يوسف بمعنى أنه يياشر رعى الإبل ليتدرب بذلك فرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان (٢) . وقرأ أبو عمر وابن عامر يرتع بالنون وجرم العين ومثله نلعب ، والرتع في الأصل (٣) الأكل بشره وقيل أنه الخصب .

(١) تفسير أبي السعود : ص ١٠٣ .

(٢) فخر الدين الرازي : مفاتيح العيب ، ج ١٥ ، ص ١٠٧ .

(٣) القاموس المحيط : مادة (رتع) .

(ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) (١) .

قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان ، حدثنا حماد بن سلمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر . (٢) .

(نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) أى أخبرنا بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرائى ، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا ، والضمير فى تأويله موضوع موضع اسم الإشارة ، والتقدير بتأويل ذلك ، وقد يكون الضمير فيه راجعا إلى ما رآه كل واحد منها .

(أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) خاطب الملك بلفظ التعظيم ، أو خاطبه من كان عنده من الملأ ، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك إلى الملك .

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) (٣) أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى ، وأستخلصه مجزوم فى جواب الأمر .

(قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى جفيف عليم) (٤) .

أى ولنى أمر الأرض التى أمرها إليك وهى أرض مصر ، أو اجعلنى على حفظ خزائن الأرض ، وهى الأمكنة التى تخزن فيها الأموال ، والطلب هنا فيه

(١) سورة يوسف : آية ٥٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٢ : ص ٣٤٧ ، ص ٣٨٩ ، مطابع الشعب .

(٣) سورة يوسف : آية ٥٤ (٤) سورة يوسف : آية ٥٥

مدح وثناء من يوسف لنفسه أى أنه يدل على ثقته بنفسه ووجه الخطاب للملك على سبيل النصيح والإرشاد .

قال الشوكاني : طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم ، ويتوصل به إلى دماء أهل مصر إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأوثان . وفيه دليل على أنه يحوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ، ويهدم ما أمكنه من الباطل ، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي قالها ترغيباً فيها فيما يرومه .

(قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم) (١) من قول يوسف بعد أن استقر على العرش ، وهو يعنى أخاه بنيامين ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه ، فوعده بذلك فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذي طلبه . (وقال لفتيته اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها) .

الجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل فما قال يوسف بعد وعدم له بذلك؟ فأجيب بأنه قال لفتيته أى غلامانه . قال الزجاج: الفتية والفتيان في هذا الموضع الماليك (٢) وقال الثعلبي : هما لغتان جيدتان مثل الصبية والصبيان . والمراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام ، فعـل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم ، وقيل فعل ذلك ليرجعوه إليه مرة أخرى لعلهم أنهم لا يقبلون الطعام إلا بشمن ، فأراد أن يظهر لهم بره وكرمه وإحسانه إليهم (٣) .

(١) سورة يوسف : آية ٥٩ .

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

(٣) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ ، مطبعة عيسى الباسي

الحلبي بمصر .

(فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون) (١) ، نكتل مجزوم في جواب الأمر ، وقرىء يكتل بالياء .

(وادخلوا من أبواب متفرقة) (٢) الأمر للنصح والإرشاد ، لأنهم لو دخلوا من باين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهى عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان في الدخول من باين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، قيل وكانت أبواب مصر أربعة .

(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) (٣) .

يقول تعالى في هذه الآية مخبراً عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض ، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين . والتحسس يكون في الخير والتجسس يستعمل في الشر (٤) . والتحسس مأخوذ من الحس ، أو من الإحساس : أي اذهبوا فتعرفوا خير يوسف وأخيه وتطلبوه ، وقرىء بالجيم وهو أيضاً التطلب (٥) .

(فأوف لنا الكيل وتصدق علينا) (٦) . أي أعطنا به — هذا الثمن القليل

ما كنت تعطينا قبل ذلك : وطلبوا منه أن يتصدق عليهم برد أخيم إليهم .

(اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بهيرا واثنوني بأهلكم

(١) سورة يوسف : آية ٦٣ (٢) سورة يوسف : آية ٦٧

(٣) سورة يوسف : آية ٨٧ .

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٣٢٨ .

(٥) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ .

(٦) سورة يوسف : آية ٨٨

أجمعين (١) تكرر فعل الأمر في هذه الآية ثلاث مرات ، وقيل أن القميص المتوارث هو الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة . أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإن فيه ربح الجنة ، لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا عوفى . والفاء عاطفة في قوله : (فألقوه) ويأت مجزوم في جواب الأمر ، والارتداد انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها ، والمعنى : عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره (٢) .

(وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) (٣) ولما دخل مصر وجلس يوسف في مجلسه مستويا على سريريه أكرم أبويه فرفعهما على السرير .

(١) سورة يوسف : ٩٣

(٢) الركنى : الكشف : ج ، ص ٤٨٥

(٣) سورة يوسف : آية ٩٩

الفصل السابع

أسلوب الاستفهام والنهي في قصص القرآن الكريم

الجملة الاستفهامية في القصة القرآنية

نصل من خلال العرض للجملة الطلبية وأغراضها وصورها في قصص القرآن الكريم إلى الحديث عن الأسلوب الاستفهامي وأغراضه في القصة القرآنية باعتبارها من مقومات التركيب اللغوي . ولعل الحوار الذي كان يدور بين المرسلين وأقوامهم تطلب وجود الصيغة الاستفهامية والتي قد اتخذت من جانب أنبياء الله وسيلة لإقامة الحجة والإقناع وامتزجت بالنصيحة في كثير من الأحيان وذلك على عكس ما تلقوه من بجانب أقوامهم وسوف نسردك تنوع تلك الأغراض الاستفهامية من خلال العرض للأمثلة القصصية في هذا الفصل بمشيئة الله .

والاستفهام هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن ، نحو : أنتحرك الأرض ؟ أينمو الجاد ؟ ونحو : أسعيد حضر أم محود ؟ أحضر سعيد أم غاب ؟ أخطأبا نقرأ أم درسا ؟ . والألفاظ الموضوعية للاستفهام هي : الهمزة ، هل من ، ما ، أي ، كيف ، أين ، أنى ، متى ، أيان ، كم . ومن الاستفهام ما يكون سؤالاً عملاً لا عملاً لا تعلمه لتعلمه ، فيخص باسم الاستفهام ، ومنه ما يكون سؤالاً عملاً تعلمه ليقر لك به ، فيسمى « تقريراً » . ومنه ما يكون ظاهره الاستفهام ومعناه التوبيخ كقوله : (ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا) (١) .

ومن السؤال ما هو محذور ، ومنه ما هو مفوض ، فالمحذور ما حظرت فيه على المحيى بأن يحىب إلا بعمض السؤال ، كقولك : ألجا أكلت أم خبزاً ؟

فقد حظرت عليه أن يجيبك إلا بأحدهما ، والمفوض كقولك : ما أكلت ؟ فله أن يقول ما شاء من المأكولات ، لأنك فوضت الجواب إليه (١) .

والهمزة تكون لطلب التصور ، أى إدراك المفرد ، نحو : أزيد عندك أم عمرو ؟ ولطلب التصديق ، أى إدراك النسبة نحو : أعندك زيد ؟ والجواب في الأول بالتعين ، وفي الثانى بنعم أو بلا ، وعلى كل فيجب أن يليها المسئول عنه كالفعل فى نحو : أفهمت المسألة ؟ وكالفاعل نحو : أأنت تأدبت ؟ إذا علم التأدب وجهل فاعله ، وكالمفعول فى نحو : أعلم الصرف تعلمت ؟ إذا علم تعلم المخاطب علماً من العلوم وجهل عينه ، وكالحال فى نحو : أراك باجئت ؟ والزمن فى نحو : أليلة الخميس قدمت ؟ (٢) .

والمستفهم عنه فى التصوير يلى الهمزة مباشرة ، ويذكر له معادل بعد أم نحو : أحاضر مجد أم غائب ؟ أراك باجئت أم ماشيا ؟ ، أيوم الخميس تسافر أم يوم الجمعة ؟ وقد يستغنى عن ذكر المعادل ، كقوله تعالى : « أأنت فعلت هذا يآلهتنا يا إبراهيم » (٣) .

و « هل » تكون للتصديق فقط ، نحو : هل حافظ المصريون على مجد آبائهم ؟ هل يعقل الحيوان ؟ ويمتنع معها ذكر المعادل ، ويجاب فى التصديق

(١) قدامة بن جعفر : نقد النثر ، ص ٤٥ ، مطبعة مصر ، القاهرة ،

١٩٣٨ م .

(٢) الشيخ أحمد الحلاوى : زهر الريع فى المعانى والبيان والبديع ، ص

٦٦ ، ٦٧ مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر .

(٣) سورة الأنبياء : آية ٦٢

هنعم ، أو لا وبقية أدوات الاستفهام للتصوير . فمن لطلب تعيين ذى العلم نحو :
 من هذا ؟ وما لطلب شرح الاسم أي إيضاحه نحو : ما البر ؟ ولطلب ماهية
 المسمى أي حقيقته التي لا يتحقق إلا بها نحو : ما الشمس ؟ فيجاب بأنه كوكب
 نهاري . وأي لطلب تعيين واحد من المضاف إليه ، نحو : أي الرجال عندك ؟
 و (أيهم يكفل مريم) (١) و (أي الحزبين أحصى) (٢) و كم : لطلب بيان
 العدد نحو : (كم ليتم) (٣) وكيف للسؤال عن الحال ، نحو : كيف أنت ؟
 ومتى الزمان مطلقا نحو : متى نصر الله ؟ . وأيان للمستقبل خاصة نحو : « أيان
 مرساها ؟ » (٤) ونستعمل في الأمور العظام نحو : « أيان يوم الدين ؟ » وأين
 للمكان نحو : أين بيتك ؟ وأنى : تكون تارة بمعنى كيف نحو : أنى أقبلت ؟
 ويجب أن يليها الفعل كما هنا ، وتارة بمعنى من أين نحو : « أنى لك هذا ؟ » (٥)
 والجواب في الجميع بالتعيين .

وقد تخرج تلك الأدوات إلى غير الاستفهام كالاستبطاء نحو : كم دعوتك ؟ ،
 والتقرير نحو : « ألم نشرح لك صدرك ؟ » (٦) والتعجب نحو : « مالي لأرى
 الهدهد ؟ » (٧) ، ولجورد الإنكار نحو : « أإله مع الله ؟ » أو له مع التوخيخ
 على الفعل بمعنى ما كان ينبغي وقوعه نحو : « أتأتون الذكران من العالمين ؟ » (٨)
 أو له مع التكذيب بمعنى لم يكن أو لا يكون نحو : « أفأصفاكم ربكم بالبنين

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة آل عمران : آية ٤٤ | (٢) سورة الكهف : آية ١٢ |
| (٣) سورة الكهف : آية ١٩ | (٤) سورة النازعات : آية ٤٢ |
| (٥) سورة آل عمران : آية ٢٧ | (٦) سورة الشرح : آية ١ |
| (٧) سورة النمل : آية ٢٠ | (٨) سورة الشعراء : آية ١٦٥ |

واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ » (١) أى لم يكن ، وللفي مع التوييح نحو : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله ؟ » وللتحقير نحو : من هذا ؟ استخفافاً له ، والتنبية على الضلالة ، نحو : « فأين تذهبون ؟ » وللتهمك نحو : « أصلانك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » (٢) وللاستبعاد نحو : « أنى لهم الذكرى ؟ » (٣) ، إلى غير ذلك مما سنعالجه الآن في حديثنا عن التركيب الاستفهامي في قصص القرآن .

استعمالات « أنى ، الاستفهامية في قصص القرآن

ذكرت في قصة مريم على لسان زكريا عليها السلام في قوله تعالى : « قال يا مريم أنى لك هذا ؟ » (٤) وذلك من آيات مريم ، فن آياتها أنها أول امرأة قبلت في نذر في المتعبد ، ومنها أن الله أنشأ فيها عيسى من كلمة ألقاها إليها ومنها أن الله — عز وجل — غذاها برزق من عنده لم يجره على يد عبد من عبيده ، وقد قيل أنها لم تلقم ثدياً قط . (٥) أى من أين يجيء لك هذا الرزق الذى لا يشبه أرزاق الدنيا ، فالاستفهام للتعجب . وذكر الاستفهام بأننى في نفس القصة بقوله تعالى :

« قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » (٦) .

(١) سورة الاسراء : آية ٤٠ (٢) سورة هود : آية ٢٨

(٣) سورة هود : آية ٨٧ (٤) سورة الدخان : آية ٤٤

(٥) سورة آل عمران : آية ٣٧

(٦) الزجاج : معانى القرآن وإعرابه ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ، ط . منشورات

المكتبة المصرية بيروت

(٧) سورة آل عمران : آية ٤٧

ومثله ما ذكر على لسان زكريا :

(قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر) (١) . وقال عنه فى سورة مريم :

(قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً) (٢)

فهذا تعجب من زكريا — عاوه السلام — حين أجيب إلى ما سأل ، وبشر بالولد فقرح فرحاً شديداً وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذى يأتيه منه الولد مع أن امرأته عاقرة ، لا تلد من أول عمرها مع كبرها ومع أنه قد كبر وعتا ولذلك قال :

(وقد بلغنى الكبر عتياً) .

تقول العرب للعود إذا يبس : عتا عتياً وعتوا ، وعسا يعسو عسوا وعسيا وقال مجاهد : (عتياً) بمعنى تحول العظم ، وقال ابن عباس وغيره (عتياً) يعنى الكبر (٣) والظاهر أنه أخص من الكبر .

وجاء فى آية أخرى على لسان مريم بعد قصة زكريا :

(قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً) (٤) أى : فتهجبت مريم من هذا ، وذكرت هذه الجملة الاستفهامية على لسانها وقالت : كيف يكون

(١) سورة آل عمران : آية ٤٠

(٢) سورة مريم : آية ٨

(٣) الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، ١٦ / ٣٩

(٤) سورة مريم : آية ٢٠

لى غلام ؟ وعلى أى صفة يوجد هذا الغلام منى ، ولست بذات زوج ، ولا بتصور منى الفجور ولهذا قالت على سبيل التعليل للتعجب الاستفهامى : (ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا)

وفى « قصة عزيز » الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه حين قال :

(أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟) (١) والاستفهام هنا فيه عجز واعتراف بهذا العجز عن معرفة طريق الإحياء واستعظام لقدرة المحيى . وهكذا ذكر الاستفهام بكلمة (أنى) فى سورة مريم مرتين ، وفى سورة آل عمران ثلاث مرات ، وفى سورة البقرة ذكر مرة فى قصة عزيز كما سبق ، ومرة أخرى فى قصة طالوت فى قوله تعالى : (أنى يكون له الملك علينا ؟) (٢)

وأنى الاستفهامية تعنى التعجب والتهويل فى كثير من الأحيان ، وهذا ما تبينته من خلال الأمثلة القصصية المذكورة آنفا ، وقد أدركت أن التعجب الذى تشير إليه « أنى » يعنى الاستبعاد والاستحالة لعظم الأمر وارتفاعه فوق المستوى البشرى والقانون الإنسانى الذى لا يدرك كنه الأمور الغيبية ويتعسر عليه فهمها واستجلاؤها ما دامت فى علم الله .

وذكرت « هل » الاستفهامية فى قصة نزول المائدة فى قوله تعالى :

(إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) (٣) قد قرئ : « هل نستطيع ربك » و « هل يستطيع ربك » فن قرأ : « هل يستطيع ربك » . فالعنى هل تستدعى إجابته وطاعته

(٢) سورة البقرة : آية ٢٤٧

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٩

(٣) سورة المائدة : آية ١١٢

على أن ينزل علينا مائدة ؟ ، ومن قرأها : هل يستطيع ربك كان معناها هل يقدر ربك ؟ قال أبو إسحق الزجاج : فليس المعنى عندى — والله أعلم — أنهم جهلوا أن الله يقدر على أن ينزل مائدة ، ولكن وجه السؤال : هل نرينا أنت أن ربك يرينا ما سألنا من أجلك من آياتك التى تدل على نبوتك (١) .

قال أبو عبيدة : المائدة فى المعنى مفعولة ولفظها فاعلة ، وهى مثل عيشة راضية ، وقال : إن المائدة من العطاء ، والممتد المقتل المطلوب منه العطاء ، وماد زيد عمرا إذا أعطاه ، والأصل فيها أنها فاعلة من ماد يمد إذا تحرك فكانها تميد بما عليها (٢) .

وذكر فى نفس السورة الاستفهام فى صورة التوبيخ للنصارى فى قوله تعالى :

(أأنت قلت للناس اتخذونى وأبى إلهين من دون الله ؟) (٣) .

فالمسألة هنا على وجه التوبيخ للذين ادعوا عاياه لأنهم مجمعون أنه صادق الخير ، وأنه لا يكذبهم وهو الصادق عندهم ، فذلك أبلغ فى توبيخهم وأؤكد فى الحجة عليهم والتوبيخ ضرب من العقوبة .

نتبين من خلال الأمثلة القصصية المذكورة عن التراكيب الاستفهامية فى إطار الأسلوب الإنشائى أن أغراض الإستفهام تباينت بينها تبعاً لمضمون

(١) الزجاج : معانى القرآن وإعرابه ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٢) أبو عبيدة : مجاز القرآن ، ج ١ ، ص ١٥٩ .

(٤) سورة المائدة : آية ١١٦ .

الجملة وانصافها بمجرى الأحداث ، والغالب على تلك الأمثلة — كما رأينا — أنها تخرج إلى غرض آخر غير الاستفهام كالتمعجب والإنكار والتوبيخ والتحقيق إلى غير ذلك مما لوحظ عند العرض للحوار القصصى بين رسل الله عليهم الصلاة والسلام وأقوامهم .

مواقع « همزة الاستفهام » وغيرها فى قصص القرآن :

وقعت فى قصة ابنى آدم على لسان قابيل بعد قتله لأخيه هابيل فى قوله تعالى :
(قال ياويلنى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى) (١) .

والاستفهام فى الآية للتعجب والتندم ، وقوله : (فأوارى) ذكر بالنصب على جواب الاستفهام وقرئ بالسكون على تقدير : فأنا أوارى أو على التسكين فى موضع النصب للتخفيف . وكلمة ياويلنى التى سبقت همزة الاستفهام كلمة تحسر وتمحزن ، والألف بدل من ياء المتكلم ، كأنه دعا ويلته بأن تحضر فى ذلك الوقت ، والويلة الهلكة (٢) . وأقول إن الكلام خارج مخرج التعجب من عدم اهتدائه لمواراة أخيه كما اهتدى الغراب إلى ذلك ، وإنما ندم على فقدته ولم يكن ندم توبة .

وفى قصة السجود لآدم :

(قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ، أستكبرت أم كنت من العالين) (٣) الاستفهام فى الجملتين للتوبيخ والإنكار وأم متصلة هنا ،

(١) سورة المائدة : آية ٣١ .

(٢) الزمخشري : الكشف عن غوامض التنزيل ، ج ١ ص ٢٥٣ .

(٣) سورة الصافات : آية ٧٥ .

والمعنى أتركت السجود لاستكبارك الحادث أم لاستكبارك القديم ؟ لكن جواب إبليس بقوله : (أنا خير منه ... الخ) لا يطابقه لأنه أجاب بأنه إنما ترك السجود لكونه خيراً منه وعالياً بالنسبة إليه .

وفي سورة الأعراف قال : (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) (١) دل بقوله : « إذ أمرتك » أن إبليس أمر بالسجود مع الملائكة ، ومعنى : « ما منعك ألا تسجد » ما منعك أن تسجد ، فلا زائدة وهي مؤكدة (٢) . والمسألة في الآية تويخ له وليظهر أنه معاند مكابر ، وأنه ركب المعصية خلافاً لله الذي قد علم ما منعه . وفي موضع آخر بهل الاستفهامية :

(هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (٣) .

في قصة إبراهيم عليه السلام :

(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة ؟) (٤) الاستفهام في الآية للإنكار ، أي أتجعلها آلهة لك تعبدها ؟ وحل إذ قال النصب على تقدير واذكر ، إذ قال إبراهيم . وآزر اسم أعجمي ، وهو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاوناه فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام (٥) .

([وواجه قومه قال أنه أجوني في الله وقد هدان] (٦) أي خاصموه فأنكر

(١) سورة الأعراف : آية ١٢ .

(٢) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه ، ج ١ ، ص ٣٥٥ .

(٣) سورة طه : آية ١٢٠ (٤) سورة الأنعام : آية ٧٤ .

(٥) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ص ٣٠ .

(٦) سورة الأنعام : آية ٨٠ .

عليهم ذلك ، والاستفهام للتوبيخ والتفريع . والمراد : أخصمونى وتجادلونى
فى أمر الله وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصرنى وهدانى إلى الحق وأنا على بينة
منه ؟ فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة (١) . وقد زجرهم نبي
الله إبراهيم فى نفس الآية بقوله :

(وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون) (٢) ثم قال :

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم
سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) (٣) .

والمراد : كيف أخاف ما لا يضر ، ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق ، والحال
أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله ؟ أورد عليهم هذا الكلام الإلزامى
الذى لا يجدون عنه مخلصاً ولا متحـولاً ، والاستفهام أيضاً للإنكار عليهم
والتفريع لهم . والمراد بالفريقين فريق المؤمنين وفريق المشركين .

وذكر عن إبراهيم فى سورة الشعراء :

(إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟) (٤) أنكر إبراهيم فى هذا الاستفهام على
قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل وكأنه يقول : ما هذه التائيل التى أنتم
لها عاكفون ؟ (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟) (٥) .
قال فيخر الرازى فى تفسير هذه الآيات : كان من عظيم المحنة على إبراهيم

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ٢٨٧ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٨٠ (٣) سورة الأنعام : آية ٨١

(٤) سورة الشعراء : آية ٧٠ (٥) سورة الشعراء : آية ٧٢

عليه السلام أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بقدر الهداء والتنبيه فقال لهم : ما تعبدون ؟ وكان يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليرىهم أن ما يعبدونه ليس ممن يستحق العبادة في شيء فأجابوا إبراهيم عليه السلام بقولهم : « نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين » (١) .

والعكوف في اللغة الإقامة على الشيء (٢) ، وإنما قالوا نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وكان يكفيهم في الجواب أن يقولوا : نعبد أصناماً ولكنهم أتوا بهذه الزيادة إظهاراً لما في نفوسهم من الابتهاج والاحتفاء والافتخار بعبادة الأصنام ، فاستخدم إبراهيم الحجة العقلية في دحض مزاعمهم وإبطال كفرهم .

ووردت صيغة الاستفهام للتعجيز في نفس السياق بقوله :

(أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) (٣) لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم راقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم فإن التقدم والأولية لا يكون برهانا على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقا بالقدم وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ، وإن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فلتخلص إلى بالمساءة فلأنى عدو لها لا أبا ليها ولا أفكر فيها (٤) . وذكر الاستفهام الذي يفيد تبرؤه من آلهتهم بقوله :

(١) تفسير فخر الدين الرازي ، ج ٥ ، ص ٣٥٢ .

(٢) لسان العرب والقاموس : مادة (عكف) .

(٣) سورة الشعراء : آية ٧٧ (٤) تفسير ابن كثير ، ج ٦ ، ص ١٥٦

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً ؟) (١) .

وورد في سورة الصافات :

(إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ أنفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟) (٢) . أنكر إبراهيم عليه السلام عبادة الأصنام والأنداد في ثلاثة تراكيب استفهامية متوالية ، ولهذا قال : أنفكا آلهة دون الله تريدون ... ؟ وقد انتصب إفكا على أنه مفعول لأجله وانتصاب آلهة على أنه مفعول تريدون ، والتقدير : أنريدون آلهة من دون الله لإفك ودون ظرف لتريدون (٣) . ويجوز انتصاب إفكا على أنه مفعول به لتريدون وآلهة بدلا منه وهذا ما أراه راجحا ، على أن يكون قد جعلها نفس الإفك مبالغة في التشفيح بها ، وقد ينتصب على الحال من فاعل تريدون أي : أنريدون آلهة آفكين أو ذوى إفك . وإفك أسوأ الكذب ، وهو الذي لا يثبت ويضطرب ، ومنه انتفكت بهم الأرض (٤) . أما الاستفهام في قوله :

(فما ظنكم برب العالمين ؟) فهو للتحذير أي ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ترونه يصنع بكم ؟ وهذا ما يشبه قوله تعالى : (ما غرك بربك الكريم ؟) .

(١) سورة الأنعام : آية ٨١ (٢) سورة الصافات : آية ٨٦

(٣) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٣ ، ص ٥٤٢

(٤) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٤ ، ص ٣٨٩

(فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون) و (ما لكم لا تنطقون) (١)

يقال : راغ يروغ روغا وروغانا ، إذا مال (٢) ، ومنه طريق رائع أى ما ثل ، ومنه قول الشاعر :

فيريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

والاستفهام فى الآيتين الكريمتين للسخرية والاستهزاء ، وخاطب الأصنام

كما يخاطب من يعقل لأنهم أنزلوها تلك المنزلة ، وأتى بالاستفهام على سبيل التهم فى قوله : (ما لكم لا تنطقون) لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق . قيل أنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها وليأكلوه إذا رجعوا إليها من عيدهم ، وقيل تركوه للسدنة ، وقيل أن إبراهيم هو الذى قرب إليها الطعام مستهزئاً بها . وقال لهم :

(أتعبدون ما تحتون ؟) (٣) لما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام ،

ذكر لهم الدليل الدال على فساد عبادتها فقال مبكتا لهم ، ومنكراً عليهم :

(أتعبدون ما تحتون ؟) « أى تعبدون أصناماً أتم تحتونها . النحت فى اللغة النجر والبرى ، نحته ينحته بالكسر نحتاً أى براه ، والنحاته البراية » (٤) .

وذكر الاستفهام التعجيبى على لسان سارة زوجة إبراهيم فى قوله تعالى :

(١) سورة الصافات : آية ٩١ ، ٩٢

(٢) لسان العرب والقاموس : مادة (روغ)

(٣) سورة الصافات : آية ٩٥

(٤) ابن منظور : لسان العرب (مادة نحت)

(قالت ياويلنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ؟) (١) ياويلنا مبدلة من ياء الإضافة وكذلك في يالفها وياعجبا . وقرأ الحسن ياويلتى بالياء على الأصل وشيخاً نصب بمادل عليه اسم الإشارة . وجاء رد الملائكة في نفس الآية الكريمة :

(قالوا أتعجبين من أمر الله ؟) (٢) أي قالت لها الملائكة لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً ، فإن الله على ما يشاء قدير (٣) .
وذكر عن إبراهيم عليه السلام في سورة الحجر :

(قال أبشروني على أن مسني الكبير فبم تبشرون) (٤)

استفهام تعجب ، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذي جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ إليه . والمعنى فبأي شيء تبشرون فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح (٥) .

و (قال فما خطبكم أيها المرسلون) (٦) يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري : أنه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) (٧) يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم

(٢) سورة هود : آية ٧٣

(١) سورة هود : آية ٧٣

(٣) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٢٦٦

(٤) سورة الحجر : آية ٥٤

(٥) فتح القدير : ج ٣ ، ص ١٢٩

(٦) سورة الحجر : آية ٥٧

سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين ولهذا قالوا : (إلا امرأته قدرنا أنها من الغابرين) (١) أى الباقين المهلكين .

(قالوا أو لم ننهك عن العالمين ؟) (٢) الاستفهام فى الآية للتقريب ، والمراد : أو ما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدكم إلى نساءهم ، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة .

فى قصة نوح عليه السلام :

جرى الاستفهام على لسانه فى قوله تعالى :

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) (٣) فتحت الواو فى (أو عجبتم) لكونها عاطفة ودخلت عليها همزة الاستفهام الإنكار عليهم ، والمعطوف عليه مقدر كأنه قيل أستبعدتم وعجبتم أو كذبتهم وعجبتم أو أنكروهم وعجبتم . وقد أراد نوح عليه السلام بهذا الاستفهام أن ينههم عن تعجبهم بأن يوحى الله إلى رجل منهم رحمة بهم ولطفاً وإحساناً إليهم ليتقوا نعمة الله ولا يشركوا به شيئاً .

وذكر فى سورة هود عن نوح :

(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأنانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأتم لها كارهون ؟) (٤) .

قال فخر الدين الرازى : ذكر نوح الطريق الدال على إمكان النبوة والرسالة

(٢) سورة الحجر : آية ٧٠

(١) سورة الحجر : آية ٦٠

(٤) سورة هود : آية ٢٨

(٣) سورة الأعراف : آية ٦٣

يقال : أرايتم إن كنت على بينة من ربى من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب
وما يمتنع وما يجوز عليه ، ثم إنه تعالى أتانى رحمة من عنده والمراد بتلك الرحمة
إما النبوة وإما المعجزة الدالة على النبوة (١) . ومعنى عميت عليكم صارت فطنة
مشتبهة ملتبسة فى عقولكم ، فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى
معرفتها شئتم أم أيتم ، والمراد أنى لا أقدر على ذلك البتة .

أما قوله : (أنلزمكموها) ففيه ثلاث مضمرات ضمير المتكلم وضمير
الغائب وضمير المخاطب . وقد أجاز الفراء إسكان الميم الأولى وروى ذلك عن
أبى عمرو قال : وذلك أن الحركات توالى فسكنت الميم وهي أيضا مرفوعة
وقبلها كسرة والحركة التى بعدها ضمة ثقيلة (٢) .

وقال : (وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون) (٣) .
قال الزمخشري : والمعنى أن العقل والشرع تطابقا على أنه لا بد من
تعظيم المؤمن البر التقي ، ومن إهانة الفاجر الكافر ، فلو قلبت القصة وعكست
القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم وطردت المؤمن التقي على سبيل
الإهانة كنت على ضد أمر الله تعالى وعلى عكس حكمه من إيصال الثواب
إلى المحققين والعقاب إلى المبطلين (٤) . فمن الذى ينصره من الله إن أراد به
العقاب نتيجة لذلك ؟

(١) تفسير نحر الدين الرازى ، ج ٥ ، ص ٥١ .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣٠ ، ص ٢٦٨٤ . مطابع الشعب

١٩٦٩ م ١٣٨٩ هـ .

(٣) سورة هود : آية ٣٠ .

(٤) الزمخشري : الكشاف ، ج ١ ، ص ٤٣٨ .

وذكر عنه في سورة الشعراء :

(إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين) (١).

الاستفهام للإنكار عليهم بعد تقواهم ، وقد قص الله على نبيه صلى الله عليه وسلم نبأ نوح لأن نبأه أعظم من نبأ غيره لأنه كان يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما ومع ذلك كذب قومه فقال : (كذبت قوم نوح المرسلين) (٢) . وإنما قال كذبت لأن القوم مؤثث وتصغيرها قويمة . وأما قوله : (أخوهم) فلأنه كان منهم من قول العرب : يا أخا بني تميم ، يريدون واحدا منهم (٣) .

(قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) (٤) الاستفهام للإنكار أيضا ، أي كيف نتبعك وتؤمن لك وال الحال أن قد اتبعك الأرذلون . قال صاحب الكشاف : وقرئ . وأتباعك الأرذلون جمع تابع كشاهد وأشهد ، أو جمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحققا أن يضممر بعدها قد في واتبعك ، وقد جمع أرذال على الصيغة وعلى التكسير في قولهم : الذين هم أراذل لنا (٥) . والردالة الخسة وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا .

وأرى أن هذه الشبهة في نهاية الرككة لأن نوحا عليه السلام بعث إلى هؤلاء رسولا فلا يختلف الحال في ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها فأجابهم نوح عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله : (وما علمى بما كانوا يعملون ؟) (٦) . كان زائدة ، والمعنى وما علمى بعملهم أى لم أكف

(١) سورة الشعراء : ١٠٦ ، ١٠٧ . (٢) سورة الشعراء : آية ١٠٥ .

(٣) نحر الدين الرازى : مفاتيح الغيب ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ .

(٤) سورة الشعراء : آية ١١١ .

(٥) الزمخشري : الكشاف ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

(٦) سورة الشعراء : آية ١١٢ .

للعلم بعملهم ، إنما كلفت أن أدعوم إلى الإيمان والاعتبار به . لا بالحرف من
للصنائع والفقر والغنى ، وكأنهم أشاروا بقولهم : واتبعك الأرذلون إلى أن
إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح فأجابهم بهذا (١) .

التركيب الاستفهامي في قصة (هود) عليه السلام :

ورد الاستفهام الإنكارى التعجبى على لسان هود في أعقاب قصة نوح
عليه السلام في قوله تعالى :

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ (٢) .
والرسل الذين يتصفون بالبلاغة والنصح والأمانة ينبغي أن يكونوا كذلك
مع أقوامهم ، نراهم يستندون إلى الحجج العقلية والبراهين المنطقية من أجل أن
تثمر جهودهم في دعوتهم إلى الله . وقد رد عليه قومه في صيغة الاستفهام على
سبيل السخرية والاستهزاء كما حكاه القرآن في قوله :

(قالوا أجبثنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) (٣) وهذا
دليل واضح على تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ،
وإنما كان هذا مستنكرا عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف مادعاهم إليه .
وقد لا مهم هود بقوله :

(أنجاد لوتى في أسماء سميتوها أتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) (٤) .
ينكر على قومه عبادتهم للأصنام التى جعلوا لها مسميات وهى آلهة باطلة ،
فكانها معدومة لم توجد ، بل الموجود أسمائها فقط . والسلطان هنا الحججة

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٤ ، ص ١٠٥ .

(٢) سورة هود : آية ٦٩ . (٣) سورة الأعراف : آية ٧٠ .

(٤) سورة الأعراف : آية ٧١ .

التي يحتاجون بها على ما يدعونه لها من الدعاوى الباطلة .
وذكرت سورة الشعراء تكذيب قوم هود لدعوته على عادة المشركين في
قوله تعالى : (كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) (١) .
فهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود — عليه السلام — أنه
دعا قومه عاداً ، وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريباً
من بلاد حضرموت متاخمة لبلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال في
سورة الأعراف :

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) (٢) .
وذلك أنهم كانوا في غاية من القوة والبطش الشديد والطول المديد
والأموال والجنات والعيون والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله
معه ، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولا وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى عبادة
الله وحده (٣) .

وقال لهم هود موبخاً :
(أتبنون بكل ربيع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟) (٤)
فهو استفهام تقرير وتوبيخ ، ومحل التوبيخ هو الجملة الحالية أي تعبثون ،
وقوله : وتتخذون معطوف على تبنون . (٥) والربيع المكان المرتفع من الأرض
جمع ربيعة ، يقال : كم ربيع أرضك ؟ أي كم ارتفاعها . قال أبو عبيدة : الربيع

(١) سورة الشعراء : ١٢٣ ، ١٢٤ . (٢) سورة الأعراف : آية ٦١ .

(٣) جامع البيان : تفسير الطبري ، ١٩/٥٩ (٤) سورة الشعراء آية ١٣٨

(٥) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .

الارتفاع جمع ربعة وقيل : الريع : الطريق ، وإطلاق الريع على ما ارتفع
من الأرض معروف عند أهل اللغة (١) .

وقيل : الريع الجبل واحده ربعة ، والجمع أرباع . وقال مجاهد : هو الفج
بين الجبلين (٢) .

ومعنى الآية : إنكم تبنون بكل مكان مرتفع علما تعبثون بينيانه وتلعبون
بالمارة وتسخرون منهم ، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق
فتؤذون المارة وتسخرون منهم .

وجاء عنهم في سورة هود :

(ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) (٣) . نكرار ألا
للإنكار على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم وبعث على الاعتبار بهم والحذر
من مثل حالهم ، والدعاء يبعدا بعد هلاكهم وهو دعاء بالهلاك للدلالة على أنهم
كانوا مستأهلين له (٤) .

في قصة صالح عليه السلام :

جاء على لسان الكفار من قوم صالح عليه السلام :

(أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) (٥) .

(١) الشوكاني فتح القدير ، ج ٤ ، ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) سورة هود : آية ٦٠ .

(٤) تفسير النسفي : ج ٢ ، ص ١٤٩ ، مطبعة محمد علي صبيح .

(٥) سورة الأعراف : آية ٧٥ .

قالوا هذا عن طريق الاستهزاء والسخرية . قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر : (لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم) (١)

(قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا ، قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) (٢)

الاستفهام على سبيل الإنكار من جانب المشركين كادلت عليه همزة الاستفهام وكان صالحاً قد سقط من نظرهم حين دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وكان صاحب جاه عندهم قبل هذا .

وقد أجابهم صالح عليه السلام بقوله :

(يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تحسير) (٣) .

قال نضر الدين الرازي : اعلم أن قوله إن كنت على بينة من ربي ورد بحرف الشك ، وكان على يقين تام في أمره إلا أن خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب إلى القبول ، فكأنه قل : قدروا أنى على بينة من ربي وأنى نبى على الحقيقة وانظروا أنى إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره ، فسن يمنع من عذاب الله فما تزيدونني على هذا التقدير غير تحسير (٤) . وقيل الرحمة هنا

(١) مسند الإمام أحمد : ١١٧ / ٢ (٢) سورة هود : آية ٦٢

(٣) سورة هود : آية ٦٣

(٤) تفسير نضر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، ج ٥ ، ص ٧٠

النبوة والرسالة أو الهداية إلى الله بالبراهين (١) .

وقد أنكر عليهم صالح جحدهم لنعم الله الواسعة عليهم في صيغة الاستفهام بقوله : (أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ؟) (٢)

فلاستفهام الإنكار : أى أتتركون في هذه النعم التى أعطاكم الله آمنين من الموت والعذاب باقين في الدنيا . وقد فسر النعم بقوله : (في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم) . والهضيم التضيق الرخيص اللين اللطيف ، والطلع ما يطلع من الثمر ، وذكر النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار وكثيراً ما يذكر الشئ الواحد بلفظ يعمه وغيره كما يذكرون النعم ولا يقصدون إلا الإبل ، وهكذا يذكرون الجنة ولا يريدون إلا النخل (٣)

ذكر صالح ذلك واعظا لهم وعذراً إليهم نقمة الله أن تحمل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة وجعلهم في أمن من المحذورات وأنبت لهم الجنات .

وتحدث القرآن عن نهاية قوم صالح وذكر كيف الاستفهامية في قوله تعالى :

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣٦ ، ص ٣٢٥٣ ، مطابع

الشعب .

(٢) سورة الشعراء : ١٤٦ — ١٤٨

(٣) تفسير الطبرى : جامع البيان ، ١٩ / ٦١

(١) فانظر كيف كان عاقبة أمرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (١)

أى انظر ما انتهى إليه أمرهم الذى بنوه على المكر وما أصابهم بسببه .
وقد قرأ الجمهور بكسر همزة أنا ، وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وطاصم
بفتحها ، فمن كسر جعله استئنافا .

قال الفراء والزجاج : من كسر استأنف ، وهو يفسر به ما كان قبله ،
كأنه جعله تابعا للعاقبة ، كأنه قال : العاقبة أنا دمرناهم ، وعلى قراءة الفتح
يكون التقدير ، بأننا دمرناهم أو لأننا دمرناهم (٢) .

وكان يجوز أن تكون تامة وعاقبة فاعل لها ، ويجوز أن تكون كان ناقصة
وكيف خبرها ، ويجوز أن يكون خبرها أنا دمرنا . والتأكيد بأجمعين معناه
أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم .

وكان صالح عليه السلام قد استنكر دعوتهم الباطلة حين قال ذلك :

(يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم
تمرحون) (٣) . فالاستفهام للاستنكار ، والمعنى لم تؤخرون الإيمان الذى
يجلب لكم الثواب وتقدمون للكفر الذى يجلب إليكم العقوبة ، وقد كانوا
لفرط كفرهم يقولون : ائتنا يا صالح بالعذاب (٤) ولولا تستغفرون الله تتضمن
معنى الاستفهام أى هلا تتوبون إلى الله من الشرك ؟ .

(١) سورة النمل : آية ٥١

(٢) الزجاج : معانى القرآن وإعرابه : ج ٣ ، ص ٧٥

(٣) سورة النمل : آية ٤٦

(٤) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٣

في قصة لوط عليه السلام :

ذكر القرآن الكريم بعض التراكيب الاستفهامية في قصة لوط عليه السلام في مواضع متفرقة أردت حصرها أسوة بما ذكرت من قبل ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) (١) .

هذه الجملة مستأنفة وقد أنكر عليهم أولا بقوله أتأتون الفاحشة بدخوله همزة الاستفهام على الفعل المضارع ثم وبخهم عليها فقال : أتم أول من عملها قال الزجاج : وقد يحمل على أنه جواب سؤال مقدر كأنهم قالوا لم لا نأتيها فقال ما سبقكم بها أحد فلا تفعلوا ما لم تسبقوا إليه (٢)

قال الزمخشري : والباء في بها للتعدية من أولك سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : سبقك بها عكاشة (٣) ، ومن في قوله : (من أحد من العالمين) الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستفراق والثانية للتبويض .

وقال في سورة الشعراء :

(أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بله أتم قوم عادون) (٤) .

(١) سورة الأعراف : آية ٨٠

(٢) الزجاج : معاني القرآن واعرابة ج ٢ ، ص ٣٨٩

(٣) الزمخشري : الكشاف ، ج ١ ، ص ٣٣٤

(٤) سورة الشعراء : آية ١٦٦

الاستفهام في الآية الإنكار أيضا ، وقد أراد بالعالمين الناس أي تأتون
من بين أولاد آدم عليه السلام على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة
إنانهم على ذكورهم في الكثرة ذكر انهم كأن الإناث قد أعوزتكم (١) . يعني
أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة .

ونلاحظ أن الاستفهام الانكاري المبدوء بالهمزة يتضمن في الآية الكريمة
معنى النهي ، فإن لوطا عليه السلام قد نهاهم عن معصية الله وارتكاب ما كانوا
قد ابتدعوه في العالم ، مما لم يسبقهم الخلاق إليه من إتيان الذكران دون
الإناث .

وقال في سورة العنكبوت :

(أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في واديكم المنكر) (٢)

اشتملت هذه الآية على عدد من قبائح الأفعال التي كانوا يفعلونها بالإضافة
إلى الفاحشة المذكورة آنفا ، فقد أنكر لوط على قومه سوء صنيعهم وما كانوا
يفعلونه من إتيان الذكور وقطع السبيل على المساراة بالسلب والسرقة والمجون
والعبث وغير ذلك . قالت السيدة عائشة : كانوا يتضارطون ويتضاحكون
ويناطحون بين الكباش (٣)

وقال في سورة النمل :

(ولوطا إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة وأتم تبصرون ؟ أنكم لتأتون

(١) الزمخشري : الكشف ، ج ١ ، ص ٣٣٤

(٢) سورة العنكبوت : آية ٣٠

(٣) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ٢٠ / ٩٤

الرجال شهوة من دون النساء بل أتم قوم تجهلون (١) .

انتصاب لوط في الآية الأولى بفعل مضمر معطوف على أرسلنا : أى وأرسلنا لوطا . و (إذ قال) ظرف للفعل المقدر ويجوز أن يقدر اذكر والاستفهام في الآيتين الإنكار والتوبيخ ، والفاحشة هي الفعللة المتناهية في القبح والشناعة ، وهم أهل سدوم .

أما جملة (وأتم تبصرون) فهي في محل نصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار ، أى وأتم تعلمون أنها فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم . ويجوز أن يكون (يبصرون) بمعنى العلم أو النظر لأنهم كانوا لا يسترون حال فعل الفاحشة عنوا وتمرداً ، وقد وصفهم بأنهم لا يعرفون شيئاً لاطبعاً ولا شرعاً (٢) .

أما الجملة الاستفهامية الثانية في قوله :

(أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) فهي تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هي للواط ، وانتصاب شهوة على العلة أى للشهوة وعلى أنه صفة لمصدر محذوف أى إتيانا شهوة ويجوز أن يكون بمعنى الحال أى مشتبهين لهم ، وقد دخلت همزة الاستفهام في الآية على إن المؤكدة وأكد الفعل باللام في قوله : (لتأتون) .

وقد جرى الاستفهام على لسان شعيب عليه السلام بقوله في سورة الأعراف : (فكيف آسى على قوم كافرين) (٣) أى فتولى عنم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم من العذاب والنقمه والنكال ، وقال مقرعاً لهم وموبخاً : (يا قوم

(١) سورة النمل : ٥٤ ، ٥٥ (٢) تفسير ابن كثير ، ج ٦ ، ص ٢٠٩

(٣) سورة الأعراف : آية ٩٣

لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) أى قد أدبت إليكم ما أرسلت به فلا أسفه عليكم وقد كفرتم بما جئتم به ، ولهذا قال : (فكيف آسى على قوم كافرين ؟) فالاستفهام هنا يفيد أنه برىء مما بشر كون وقد أدب ما عليه نحوهم وحملهم نتائج إعراضهم عن الحق ومخالفتهم له .

قال الزمخشري : المراد فكيف يشتد حزنى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم . وقرأ يحيى بن وثاب فكيف إيسى بكسر الهمزة .

ودخلت همزة الاستفهام على الاسم بعد النداء فى قوله تعالى عن قصة شعيب : (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنك الحليم الرشيد) (١) .

الاستفهام فى قوله : (أصلاتك تأمرك للسخرية والاستهزاء ، وساقوا الكلام مساق الاستهزاء وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته ، وأرادوا أن هذا الذى تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته . وقرئ أو أن تفعل فى أموالنا ما تشاء بناء الخطاب فيها وهو ما كان يأمرهم به من ترك التططيف والبخس والاقتناع بالحلل القليل من الحرام الكثير (٢) . وقد نسبوه إلى السفه فى الخطاب بقولهم (إنك لأنك الحليم الرشيد) يعنون أن ما تأمرنا به لا يطابق حالك وما شهرت به

وقد أجابهم شعيب بقوله فى صيغة استفهام بمعنى : (أخبرونى) فى قوله تعالى : (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقنى منه رزقا حسناً) (٣)

(١) سورة هود : آية ٨٧

(٢) الشوكانى : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ٤٩٥

(٣) سورة هود : آية ٨٨

أى أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من عند ربى فيما أمرنكم به به ونهيتمكم عنه ، وكنت نبيا على الحقيقة أبيض لى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى ، والأنبياء لا يعيشون إلا لذلك .

قال شعيب فى نفس السورة مستغفها :

(يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا) (١) وإنما قال أعز عليكم من الله ولم يقل أعز عليكم منى لأن نفى العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه السياق استهانة به ، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل ، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليهم من الله فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منهم وألزمهم ، لا لخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام (٢) ونرى فى هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر مالا يخفى ، ولهذا سمى شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء ، ومعنى ظهريا منبوذا وراء الظهر لا تبالون به .

فى قصة موسى مع فرعون :

ذكر فى سورة يونس :

(قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح

الساحرون) (٣)

(١) سورة هود : آية ٩٢

(٢) الشوكانى : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٤٩٦

(٣) سورة يونس : آية ٧٧

قيل في الكلام حذف والتقدير : أتقولون للحق سحر فلا تقولوا ذلك ،
ثم استأنف إنكاراً آخر عن جهة نفسه في صيغة استفهام فقال : (أسحر
هذا ؟) فحذف قولهم الأول اكتفاء بالثاني ، والملجى إلى هذا أنهم لم يستفهموا
عن السحر حتى يحكموا ما ظنوه بقوله : (أسحر هذا ؟) من قولهم .

قال الشوكاني : قيل معنى (أتقولون) أنعيون الحق ونطعنون فيه
فيه وكان عليكم أن تدعنوا له ، ثم قال : أسحر هذا منكراً لما ظنوه ، وقيل
أن مفعول (أتقولون) محذوف وهو ما دل عليه بقولهم : (إن هذا لسحر)
والتقدير أتقولون ما تقولون (١) .

وعلى هذا السياق تكون جملة (أسحر هذا ؟) مستأنفة من جهة موسى
عليه السلام ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة
جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ماذا قال لهم موسى لما قالوا إن هذا لسحر
مبين ؟ فقيل : قال أتقولون للحق لما جاءكم على طريق الاستفهام الإنكارى .

وورد في نفس السورة عن قصة موسى أيضاً :

(قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) (٢) .

وهي جملة استفهامية مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالوا
بعد أن قال لهم موسى ما قال . وفي هذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل
وعجزوا عن إبراز الحجة ، ولم يجدوا ما ينجيهم به عما أورد عليهم بل لجئوا
إلى ما يلجأ اليه أهل الجهل والبلادة ، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٢) سورة يونس : آية ٧٨ .

الكفر وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم (١) .

يقال لفته لفتنا إذا أصرفه عن الشيء ولواه عنه (٢) .

(قال أغير الله أبغىكم إلها وهو فضلكم عن العالمين) (٣) .

معنى الهمة الإنكار والتعجب من طلبهم مع كونهم مغمورين في نعمة الله ويعبدون غير الله ، فوسى ينكر على قومه جرم دعوتهم باتخاذ إله من دون الله رب العالمين . ويدكر بنعمة الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه (٤) .

وذكر في قصة سليمان عليه السلام في سورة النمل كما حكاه القرآن في

قوله تعالى :

(قال أتمدون بمال فما آتاني الله خيرا مما آتاكم بل أنتم بهديتكم

تفرون) (٥) .

جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر والاستفهام المبدوء بالهمزة للاستنكار :

أى قال سليمان منكرا لإمدادهم له بالمال مع علو سلطانه وكثرة ماله .

وقرأ حمزة بإدغام نون الإعراب في نون الوقاية ، والباقون بنونين من

غير إدغام ، وأما الياء فإن نافعا وأبا عمرو وحمزة يثبتونها وصلا ويحذفونها

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .

(٢) لسان العرب والقاموس : مادة (لفت)

(٣) سورة الأعراف : آية ١٤٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٦٥ . (٥) سورة النمل : آية ٣٦ .

وقفاً ، وابن كثير يثبتها في الحالين ، والباقون يحذفونها في الحالين ، ويروى
عن نافع أنه يقرأ بنون واحدة (١) . والهدية اسم المهدى كما أن العطية اسم
المعطى فتضاف إلى المهدى والمهدى إليه تقول : هذه هدية فلان تريد هي التي
أهداها أو أهديت إليه والمضاف إليه ها هنا هو المهدى إليه (٢) .

(قال يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) (٣)

أي قبل أن تأتيني هي مسلمة مع قومها ، قيل إنما أراد سليمان أخذ عرشها
قبل أن يصلوا إليه ويسلموا ، لأنها إذا أسلمت وأسلم أهلها لم يحل أخذ أموالهم
بغير رضاهم .

(فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليولني أشكر أم
أكفر ؟) (٤)

قال الأخفش : المعنى لينظر أشكر أم أكفر ؟ وقال غيره : ليولني أي
ليختبرني أشكره بذلك وأعترف أنه من فضله من غير حول مني ولا قوة
أم أكفر بترك الشكر ؟

وقرىء : أ أشكر بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ألفاً وتسهيلها وإدخال
ألف بين المسهلة والأخرى (٥) .

وقال سبجانه :

(١) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٤ ، ص ١٣٣

(٢) المرجع السابق نفسه (٣) سورة النمل : آية ٣٨

(٤) سورة النمل : آية ٤٠

(٥) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٣ ، ص ٣٩٥ .

(فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو) (١).

الأصل في قوله (أهكذا) أنها ثلاث كلمات حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة ، والهمزة الاستفهام . ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فلا يتم الاختبار لفعلها فقالت كأنه هو ولم تقل هو هو وذلك من راحة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل (٢) . وقيل أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له . وذكر عن إلياس عليه السلام :
(إذ قال لقومه ألا تتقون ؟ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) (٣)
الجملة الأولى متعلق بمحذوف أى اذكر يا محمد إذ قال ، والمعنى المعبر عنه بهمزة الاستفهام ألا تتقون عذاب الله ، ثم أنكر عليهم في صيغة استفهام أخرى بقوله : (أتدعون بعلا ؟) أى تعبدون صنماً وتطلبون منه الخير ؟ .

وقد قيل أن بعلا صنم كانوا يعظمونه ويعبدونه ، وقيل أنه رب بلغة اليمن ، وقالت طائفة أخرى البعل هنا الملك (٤) .

وفي رواية عن قتادة : هي لغة أزد شنوءة ، وهو اسم صنم كان يعبداه أهل مدينة يقال لها : « بعلبك (٥) » ، غربي دمشق .

أسلوب النهى في قصص القرآن

نصل إلى أسلوب النهى من خلال ذكر الجملة الطلبية في القصة القرآنية بعد

(١) سورة النمل : آية ٤٢ (٢) الزمخشري : الكشاف ، ج ٢ ، ص ١٤٦

(٣) سورة الصافات : ١٢٤ ، ١٢٥

(٤) الفراء : معاني القرآن ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

(٥) أبو حيان التوحيدي : البحر المحيط : ٧ / ٣٧٣ — ٣٧٤ .

أن عرضت لكل من الأمر والاستفهام وأغراض كل، وما يشتملان عليه من جوانب اغوية وتفسيرية وتوجيهات إعرابية ونحوية سبق أن أشرت إليها.

وأسلوب النهي هو كل أسلوب يطلب به الكف عن شيء على طريق الاستعلاء والإلزام، وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية. قال ابن هشام: من أوجه «لا» أن تكون موضوعة لطلب الترك، وتختص بالدخول على المضارع، وتقتضى جزمه واستقباله، سواء كان المطلوب منه مخاطباً نحو: (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) (١) أو غائباً نحو: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) (٢) أو متكلاً نحو: (لا أرىك ههنا) (٣) وهذا النوع مما أقيم فيه السبب مقام السبب، والاصل لا تكن ههنا فأراك، ومثله في الأمر: (ليجدوا فيكم غلظة) أي وأغلظوا عليهم ليجدوا ذلك، وإنما هدل إلى الأمر بالوجدان تنبيها على أنه المقصود بالذات، وأما الإغلاظ فلم يقصد لذاته، بل ليجدوه، وعكسه: (لا يفتنكم الشيطان) أي لا تفتنوا بفتنة الشيطان (٤).

ولا فرق في اقتضاء «لا» الطلبية للجزم بين كونها مفيدة للنهي سواء كان للتحريم أو للتنزيه نحو: (ولا تنسوا الفضل بينكم) وكونها للدعاء كقوله تعالى: (ربنا لا تؤاخذنا).

-
- (١) سورة الممتحنة: آية ٦٠ (٢) سورة آل عمران: آية ٢٨
(٣) ابن هشام الأنصاري: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، ج ١، ص ٢٤٦ مطبعة السعادة بمصر.

(٤) المصدر السابق نفسه.

النهى في قصص القرآن :

جاء في قصة آدم :

(ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) (١) .

قال الشوكاني : النهى عن القرب فيه سد للذريعة وقطع للوسيلة ، ولهذا جاء به عوضا عن الأكل ، ولا يخفى أن النهى عن القرب لا يستلزم النهى عن الأكل لأنه قد يأكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا يحمل إليه ، فالأولى أن يقال المنع من الأكل مستفاد من المقام (٢) . والشجر ما كان له ساق من نبات الأرض وواحدة شجرة ، وقرىء بكسر الشين وبالياء المثناة من تحت مكان الجيم (٣) ، وقوله (فتكونا) إما مجزوم بالعطف على تقربا أو منصوب في جواب النهى وهو الأرجح في رأيي .

قال الزجاج : نصب لأن جواب النهى بالفاء نصب ، ونصبه عند سيبويه والخليل بإظهار أن والمعنى : لا يكن منكما قرب لهذه الشجرة فككون من الظالمين (٤) .

وجاء في نفس السورة حكاية عن بنى إسرائيل :

(وآمنوا لما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا

بأياق ثمننا قليلا وإياي فانقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم

(١) سورة البقرة : آية ٣٥

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ١ ، ص ٥٤ .

(٣) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(٤) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه ، ج ١ ، ص ٨٣ .

تعملون (١).

هذه الآية وإن كانت خطاباً لبني إسرائيل ونهياً لهم فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب ، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به أو إثبات باطل نهى الله عنه أو امتنع من تعليم ما علمه الله وكنتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً . وإنما جاء بالإفراد في قوله — أول كافر به — ولم يقل كافرين حتى يطابق ما قبله لأنه وصف لوصوف محدوف مفرد اللفظ ، متعدد المعنى نحو فريق أو فوج (٤) .

وقال الأخفش والفراء : إنه محمول على معنى الفعل ، لأن المعنى أول من كفر به (٢) . والاشتراء في الآية مستعار للاستبدال أى لا تستبدلوا بآياتي ثمناً قليلاً ، وهو كثير في كلام العرب ، واللبس الخلط يقال لبست عليه الأمر (٣) ألبسه إذا خلطت حته بباطله وواضحه بمشككه قال تعالى : (وللبسنا عليهم ما يلبسون) .

قال الزجاج : في قوله تعالى : (ولا تلبسوا) الجزم بالنهى ، وعلامة الجزم سقوط النون ، أما إذا نصبت فعلى معنى الجواب بالوار ، ومذهب الخليل وسيبويه والأخفش وجماعة من البصريين أن جميع ما انتصب في هذا الباب فيأضمار أن ، كأنك قلت : لا يكن منكم إلباس الحق وكنتمانه ، كأنه قال : وأن نكنتموه (٥) .

(١) سورة البقرة : ٤١ ، ٤٢ .

(٢) الشوكاني : فتح القدير ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٣) السابق نفسه (٤) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لبس) .

(٥) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه ، ج ١ ، ص ٩٤ ، الهيئة العامة

لشئون المطابع الأميرية — القاهرة .

وذكر في قصة نوح عليه السلام :

(فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) (١) .

نهأ الله تعالى عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن في استكانة
والبتأس المستكين .

ثم أمر الله نوحا عليه السلام أن يصنع السفينة بحراسته وعنايته الإلهية وقال
له ناهيا : (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى لا تطلب إصالحهم ،
فقد حان وقت الانتقام منهم ، وجملة إنهم مغرقون للتعليل : أى لا تطلب مناصحتهم
إصالحهم فإنه محكوم عليهم منا بالغرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى
دفعه وتأخير .

وقال في سورة هود :

(يا بني أركب معنا ولا تكن مع الكافرين) (٢)

يا بني أصله بثلاث يا آت الأولى ياء التصغير والثانية لام الكلمة والثالثة ياء
المتكلم فحذفت ياء المتكلم تخفيفاً وهي بحالها أو بعد قلبها ألفاً وأدغمت ياء التصغير
في لام الكلمة فيقرأ بكسر الياء وفتحها قراءة ثالثة (٣) . وقد نهأ نوح
عن الكون مع الكافرين خارج السفينة ، ويمكن أن يكون الكون معهم
معناه الكون على دينهم والنهي في الآية للنصح والإرشاد .

في قصة صالح مع قومه (ثمود) :

ذكر في سورة الأعراف قوله تعالى :

(هذه ناقة الله لكم آية فذريها تأكل في أرض الله . ولا تمسوها بسوء

(١) سورة هود : آية ٣٦ .

(٢) سورة هود : آية ٤٢ .

(٣) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

فيأخذكم عذاب اليم) (١) .

قرأ أبو جعفر تأكل برفع الفعل المضارع وعلى أنه حال وهو نظير قوله تعالى : (فهب لي من لدنك وليا يرثنى) رفعا وجزما في يرثنى والظاهر أن الباء للتعدي في قوله (بسوء) أى لا توقعوا عليها سوءا ولا تلصقوه بها وهذا من كلام صالح عليه السلام (٢) ويجوز أن تكون للمصاحبة أى لا تمسوها حال مصاحبتمكم للسوء . ويأتى النصب على جواب النهى في قوله (فيأخذكم) أى لا تجمعوا بين السوء والسوء وبين أخذ العذاب إياكم وهم وإن لم يكن أخذ العذاب لهم من صنعهم إلا أنهم تعاطوا أسبابه .

في قصة إبراهيم عليه السلام :

(قالوا لا تخف وبشره بغلام عليم) (٣) .

من ضيف إبراهيم المكرم من الملائكة وكان قد أحس في نفسه خوفا منهم لما لم يأكلوا مما قربه إليهم : (فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف) فظن إبراهيم أنهم قد جاءوا للشر ولم يأتوا للخير ، فلما رأوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف أعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله عز وجل . ويجوز أن يكون معنى أوجس أضمر ، ومن أخلاق الناس أن من أكل طعام إنسان صار آمنا منه .

(قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم) (٤) .

قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام ، واتفق المفسرون على أن الغلام هو ابنه إسحاق . وقرئ لا تأجل ولا توجل من أوجله أى أخافه ، وجمله :

(١) سورة الأعراف : آية ٧٣ .

(٢) الجمل : الفتوحات الإلهية ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٣) سورة الذاريات : آية ٢٨ (٤) سورة الحجر : آية ٥٣ .

(إنا نبشرك بغلام عليم) ، مستأنفة لتعليل النهي عن الوجل أى الخوف ، وقيل
فى العليم كثير العلم أو الحليم .

(قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) (١) .

قال الزمخشري : يحتمل أن تكون الياه فيه صلة أى بشرناك باليقين الذى
لا لبس فيه ، أو بشرناك بطريقة هي حق وهو قول الله ووعدته وإنه قادر
على أن يوجد ولدا من غير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر ؟ (٢) .

وقد كان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة ولذلك قال :
(ومن يقنط من رحمة الله إلا الضالون) أى الذين لا يعرفون سعة رحمة الله .
وذكر فى سورة مريم عن إبراهيم عليه السلام :

(يا أبت لا تعبدا للشیطان . إن الشیطان كان للرحمن مصیبا) (٣) .

المراد بالنهى النصيح والإرشاد أى لا تطعه فى عبادتك هذه الأصنام ، فإن
الشیطان هو الداعى إلى ذلك والراضى به ، كما قال سبحانه :
(ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدا للشیطان) (٤) .

فى قصة شعيب عليه السلام :

قال تعالى فى سورة الأعراف :

(فأوفوا الكيل والمیزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض
بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط
توعدون) (٥)

(١) سورة الحجر : آية ٥٥ (٢) الزمخشري : الكشاف ، ٢٦ ، ص ١٥٤

(٣) سورة مريم : آية ٤٤ (٤) سورة يس : آية ٦٠ .

(٥) سورة الأعراف : ٨٥ ، ٨٦ .

ذكر هذا على لسان شعيب عليه السلام ، وقد دماهم إلى ما فيه خيرى الدنيا والآخرة ، ونلاحظ أنه قد ركز في دعوته على جانب المعاملات كعدم تطفيف الكيل والميزان وكان عادتهم نقص الكيل والميزان . وقد تكرر النهي في هاتين الآيتين ثلاث مرات متوالية ، وهذا ما اختص به شعيب في دعوته كما حكاها القرآن الكريم .

قال الزمخشري : وأريد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال أو سمي ما يكال به بالكيل كما قيل العيش لما يعاش به ، ويجوز أن يكون الميزان كالميزان والميلاد بمعنى المصدر (١) .

وقد نهام شعيب عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله :
(ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) ومعناه تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم (٢) .
وذكر الرازى أن كلمة « صراط » ليست عربية خالصة وأخذتها العرب من الآرامية (٣) .

وذكر في سورة هود :
(لا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير) (٤) .
وفي سورة الشعراء ، تكرر النهي على لسان شعيب بقوله :

(١) الزمخشري : الكشف ، ج ٢ ، ص ٣٣٥
(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣٠ ، ص ٢٦٨٤ ، مطابع الشعب .

(٣) أبو حاتم الرازى : التبنة في الكلمات الإسلامية العربية ، ج ٢ ، ص

١٤٥ ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ م
(٤) سورة هود : آية ٨٤

(أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) (١).

المراد بالآيات : إذا دفعتم إلى الناس فكلوا الكيل لهم ، ولا تخسروا الكيل فتمطوه ناقصا ، وتأخذوه إذا كان لكم تاما وافيا ، ولكن خذوا كما تعطون وأعطوا كما تأخذون ، وقد لاحظت أن أسلوب النهي أكثر تكررا في قصة شعيب عنه في سائر قصص الأنبياء ، وهذا دليل على كثرة ما كانوا عليه من فساد في المعاملات وزيف في العادات الخاصة بالبيع والشراء وغيرها .

وقد قرئ بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان ، وقيل القبان ، وقيل أنه معرب من الرومية (٢) . وهو مأخوذ من القسط وفعله قسط أي عدل بالرومية (٣) . أما البخس فهو النقص يقال بخسته حقه إذا نقصته إياه (٤) ، ويقال عثا في الأرض وعثى وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه .

في قصة أصحاب الكهف :

ذكر النهي في قوله تعالى :

(فلا تمار فيهم إلا مرآة ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً) (٥) .

(١) سورة الشعراء : ١٨١ — ١٨٣

(٢) الجواليقي : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، ص ٢٩٩

(٣) ابن منظور : لسان العرب ج ٧ ، ص ٣٧٧ . مادة « قسط »

(٤) المرجع السابق ، مادة (بخس) ، والجامع لأحكام القرآن : القرطبي

المرجع السابق نفسه . ج ٣٠ ، ص ٢٦٨٤ ط . الشعب

(٥) سورة الكهف : آية ٢٢

نهى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم عن أن يجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جـداً لا ظاهراً غير متعمق فيه ، وهو أن يقص عليهم ما يوحى إليهم من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الرد عليهم كما قال : (وجادلهم بالتى هي أحسن) .

قال ابن كثير : إنه لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية ، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والآقوال (١) .

ثم نهاه بقوله :

(ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً) (٢) .

قال الواحدى : قال المفسرون : لما سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن خبر الفتية ، فقال أخبركم غداً ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي عنه حتى شق عليه ، فأنزل الله هذه الآية بأمره بالاستثناء بمشيئة الله (٣) . يقول : إذا قلت لشيء إني فاعل ذلك غداً فقل إن شاء الله ، ولعل الغد هنا ما يستقبل من الزمان كما أرى وليس الغد بعينه .

في قصة موسى عليه السلام :

ذكر في سورة طه قوله تعالى لموسى :

(١) تفسير ابن كثير : ج ٥ ، ص ١٤٤ (٢) سورة الكهف : آية ٢٣

(٣) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٢٦٨

(فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) (١) .

هذا النهي كما نرى وإن كان للكافر بحسب الظاهر ، فهو في الحقيقة نهى لسيدنا موسى عليه السلام عن الانصداد أو إظهار الآين للكافرين ، والمراد لا يصرفك عن الإيمان بالساعة والتصديق بها من لا يؤمن بها من الكفرة . وقد أجمع المفسرون على أن الضميرين في عنها وبها للساعة وقيل للصلاة ولكنه بعيد .

في مختار الصحاح : ردى من باب صدى أى هلك وأراده غيره وردى فيه البئر يردى بالكسر من باب رى وتردى إذا سقط فيها أو تهور من جبل (٢) . وقال سبحانه في نفس السورة :

(قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) (٣) .

المراد بالنهي في هذه الآية الإيناس ورفع الهيبة . وتقدير الكلام إلى سيرتها ، ويجوز أن يكون مصدرآ بمعنى اسم الفاعل أى سائرة وبمعنى اسم المفعول أى مسيرة وهذا ما اتفق عليه جمهور النحاة وعلى رأسهم الأخفش والزجاج (٤) .

(قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى) (٥) .

جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر وهو كثير في قصص القرآن وقد تبيناه

(١) سورة طه : آية ١٦ (٢) مختار الصحاح : مادة (ردى)

(٣) سورة طه آية ٢١

(٤) الشوكاني : فتح القدير ، ج ٣ ، ص ٣٥٠

(٥) سورة طه : آية ٤٦

من قبل ، وهذا نهى لموسى وأخيه هارون عليها السلام عن الخوف الذى حصل
معهما من فرعون ، ثم علل ذلك بقوله : (إئتى معكما أسمع وأرى) فإله تعالى
لا يخفى عليه خافية وكأنه أراد أن يثبت روح الطمأنينة فى نفوسهما .

قال ابن كثير : لا تخافا منه ، فإئتى معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى
مكانكما ومكانه ، لا يخفى على من أمركم شىء واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم
ولا يتنفس إلا بإذنى وبعد أمرى ، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأيدى . (١)
وذكر فى نفس السورة :

(قال لهم موسى ويلكم لا تغفروا على الله كذبا فيسحقكم بعذاب) (٢) .

دعا عليهم موسى بالويل ، ونهاهم عن افتراء الكذب على سبيل التوجيه
والإرشاد . قال الزجاج : هو منصوب بمحذوف ، والتقدير ألزمهم الله ويلا
ويجوز أن يكون نداء كقوله : (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) .

وقرأ حفص عن عاصم فيسحقكم بضم الياء وكسر الحاء والباقون بفتحهم
فقرأة الكوفيين من أسحت رباعيا هي لغة نجد وتميم ، وقرأة الباقيين من سحته
ثلاثيا من باب قطع وهي لغة الحجاز (٣) . والسحت فى اللغة الاستئصال ، يقال
سحت وأسحت (٤) بمعنى ، وأصله استقصاء الشعر . وقد انتصب الفعل
(فيسحقكم) على أنه جواب للنهى وسبق أن مر بنا مثله فى صيغ النهى .

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٥ ، ص ٢٨٩

(٢) سورة طه : آية ٦١

(٣) الجمل : الفتوحات الالهية ، ج ٣ ، ص ٩٨

(٤) اللسان والقاموس : مادة (سحت)

(قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) (١) .

أى المستعلى عليهم بالظفر والغلبة ، والجملة التالية للنهى تعليل للنهى من الخوف كما سبق .

قال الزمخشري : فيه تقرير لغلبته وقهره وتوكيده بالاستثنائ وبكلمة التشديد وبتكرير الضمير وبلام التعريف وبلفظ العلو وهو الفعلية الظاهرة وبالتفضيل (١) .

(قال يابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) (٢)

هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه ، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من أمر بنى إسرائيل وضلالتهم المبين ، وقد ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم هنا أرق وأبلغ أى فى الحنو والعطف . قال ابن عباس : وكان هائباً له مطيعاً (٣) .

وقد لاحظت أن أسلوب النهى قد تكرر فى قصة موسى عليه السلام ست مرات من سورة طه كما سبق .

وذكر عن موسى فى سورة القصص قوله تعالى :

(لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولداً) (٤)

ذكر هذا على لسان امرأة فرعون عند رؤيتها لموسى لما وصل إليها وأخرجته

(١) الزمخشري : الكشاف ج ٢ ، ص ٢٩

(٢) سورة طه : آية ٩٤

(٣) الطبرى : جامع البيان ، ج ١٦ ، ص ١٥٥

(٤) سورة القصص : آية ٩

من الثابت ، وهذا الخطاب يجوز أن يكون لفرعون ومن عنده من قومه ،
أو لفرعون وحده على طريق التعظيم له .

وقد قرأ عبد الله بن مسعود : لا تقتلوه قرة عين لي ولك ، ويجوز نصب
قرة بـتوله لا تقتلوه على الاشتغال . وقد علت ما قالته بالترجي منها لحصول
النفع لهم أو التنبئ له كما يدل عليه قوله تعالى : (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)
فالجمله الخبرية هنا لتعميل هذا النهي ، وقد استوهبته من فرعون فوهبه لها .

وذكر في قصة موسى والخضر عليها السلام :

(قال لا تؤخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً) (١) .

جعل الاعتذار بالنسيان في معرض النهي عن المؤاخذه مع قيام المانع وهو
النسيان لها .

وقيل إنه من معارضض الكلام . وفي مختار الصحاح : رقه غشيه وبابه
طرب وأرقه عسراً كلفه إياه (٢) . ويحتمل أن تكون ما مصدرية في قوله :
(لا تؤخذني بما نسيت) أي لا تؤخذني بنسياني أو موصولة أي لا تؤخذني
بالذي نسيت وهو قول الخضر عليه السلام : فلا تسألني عن شيء حتى أحدث
لك منه ذكراً . والنسيان قد يكون على الحقيقة ، وقد يحمل في الآية على
معنى الترك . على تقدير أنه لم ينس ما قاله له ، ولكنه ترك العمل به . والنهي
في الآيتين للاستعفاف والاسترحام .

في قصة يوسف عليه السلام :

قال تعالى :

(١) سورة الكهف : آية ٧٣ (٢) مختار الصحاح : مادة (رقه)

(يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً) (١) .

قد نهى يعقوب ابنه يوسف أن يقص رؤياه على إخوته على سبيل الإرشاد والنصح لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهموا تأويلها ويحصل منهم الحسد له ، ولهذا علل النهى بقوله : (فيكيدوا لك كيداً) وهذا جواب للنهى وهو منصوب بإضمار أن : أى فيفعلوا لك أى لأجلك كيدا متيناً راسخاً لا تقدر على الخلاص منه .

(قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف) (٢) .

وجه الإظهار للنهى فى هذه الآية استجلاب شفقتهم عليه والقائل بهـو ذا الذى كان أحسنهم فيه رأياً وأشار إلى أن القتل عظيم .

(وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) (٣) .

قال الشوكانى : لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوم أن تعصمهم العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد ، فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد لأن فى ذلك فطنة لإصابه العين لهم وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة .

(قال إني أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) (٤) .

ذكره يوسف لأخيه بنيامين سرّاً من دون أن يطلع إخوته ، والمراد لا تحزن من الأعمال الماضية التى عملوها . وقيل إنه لم يخبره بأنه يوسف بل قال له : إني أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من

(٢) سورة يوسف : آية ١٠

(١) سورة يوسف : ٥

(٤) سورة يوسف : آية ٦٩

(٣) سورة يوسف : آية ٦٧

الجفاء حسداً وبغياً .

قال ابن كثير : تواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً
معظماً (١) .

في قصة لقمان عليه السلام :

قال تعالى :

(يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) (٢) .

ذكر النهي على لسان لقمان عليه السلام حين كان يعظ ابنه ، ونهيه إياه عن
الشرك فيه دليل على أنه كان كافراً . وقرأ الجمهور بكسر الياء في (يا بني)
وقرأ ابن كثير بإسكانها وقرأ حفص بفتحها . وقد أتبع الله النهي عن الشرك
بقوله في تعليل النهي (إن الشرك لظلم عظيم) على سبيل التعليل لما قبله وهو
كثير في قصص القرآن كما سبق أن رأينا .

وقد افتتح لقمان وصيته لابنه بالنهي عن الشرك لأنه أهم من غيره . قال :
السهيلي : اسم ابنه ثاران (٣) .

ونهاه أيضاً بقوله : (ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً
إن الله لا يحب كل مختال فخور) (٤) .

قرأ ابن كثير وابن عامر وحاصم تصاعر ، وانهى متقارب ، والصعر

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٣٢٥ ، مطابع الشعب .

(٢) سورة لقمان : آية ١٣

(٣) السهيلي : التعريف والأعلام ، ١٠٠ ، ١٠١

(٤) سورة لقمان : آية ١٨

الميل ، يقال صعر خده وصاعر خده : إذا أمال وجهه وأعرض تكبراً (١) .
المعنى : لا تعرض عن الناس تكبراً عليهم ، ومنه قول الشاعر (٢) :

وكنا إذا الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاقيه

قال أبو عبيدة : وأصل الصعر داء يصيب البعير يلوى عنقه ، ولما كان ذلك قد يكون لغرض من الأغراض التي لا تدوم أشار إلى المقصود بقوله للناس بلام العلة ، أى لا تفعل ذلك لأجل إلا مالة عنهم وذلك لا يكون إلا تمأونا بهم من الكبر ، بل أقبل عليهم بوجهك كله منبسطاً مستبشراً (٣) .
وقد نهى عن التكبر والتجبر بقوله :

(ولا تمش في الأرض مراحاً) لأن المختال يمرح في مشيه وهو مصدر في موضع الحال وجملة : (إن الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهي لأن الاختيال هو المرح ، والفخور هو الذى يفتخر على الناس بما أوتى من مال أو شرف أو قوة أو غيره ، ونظير هذا في القرآن قوله تعالى :

(ولا تمش في الأرض مراحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) (٤) .

وذكر في سورة مريم :

(فننادها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً) (٥) .

(١) ابن منظور : لسان العرب ، مادة : صعر

(*) أبو عبيدة : مجاز القرآن : ولم يذكر الشاعر ، ج ٢ ، ص ١٢٧

(٢) نفس المرجع السابق (٣) سورة الاسراء : آية ٣٧

(٤) سورة مريم آية ٢٤

قيل إن جبريل عليه السلام هو الذي ناداها لما سمع قولها وكان أسفل منها
تحت النخلة ، وقيل المنادى هو عيسى عليه السلام وأراه ضعيفا . وقد قرئ
بفتح الميم من « من » وكسرهما . وقوله : (ألا تحزنى) تفسير للنداء أي لا
تحزنى أو المعنى بأن لا تحزنى على أنها مصدرية .

ويسكاد المفسرون أن يجمعوا على أن قوله : (سريا) هو النهر الصغير
بالسريانية وهذا ما ذكره مجاهد والضحاك (١) والسدى واختاره ابن جرير .
وقال قتادة : السرى الجدول بلغة أهل الحجاز وقال سعيد بن جبير هو النهر
الصغير بالنبطية (٢) .

وذكر في قصة قارون مع قومه قوله تعالى :
(إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) (٣) .

النهى في الآية الكريمة للنصح والإرشاد ، أى لا تفرح بما أنت فيه يا قارون
ولا تنظر بما أنت فيه من الأموال . قال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال ، فإن
الفرح بالمال لا يؤدي حقه (٤) ، وقيل المعنى لا نفسد كقول الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع (*)
أى أفسدتك . وقال الفراء : معنى الفرحين الذين هم في حال الفرح ،

(١) الرازى : الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، ج ١ ، ص ١١٧

(٢) الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، ج ١٦ ، ص ٥٥

(٣) سورة القصص : آية ٧٦

(*) البيت في فتح القدير : الشوكاني ، ج ٤ ، ص ١٨٠

(٤) الزجاج : معانى القرآن وإعرابه ، ج ٣

والفارحين الذين يفرحون في المستقبل (١) . وقد علل للنهي بقوله :
(إن الله لا يحب الفرحين)

وهكذا تتنوع الأغراض المسوقة للنهي في قصص القرآن الكريم ،
وأبرز ما رأيت في هذا الصدد الإكثار من ورود الجمل الخبرية « المؤكدة »
وغير المؤكدة « عقب الصيغة الإنشائية في الأمر والنهي والاستفهام ، وهذه
الجمل تتضمن التعليل والبيان لما يتضمنه السياق القصصى القرآني من صور
الإنشاء ، فيبدو الأثر اللغوي جليا بين أجزاء الكلام .

الفصل الثامن

أثر بعض الظواهر اللغوية للقصة القرآنية
في الدراسة البلاغية

« أثر بعض الظواهر اللغوية للقصة القرآنية في الدراسة البلاغية »

الواقع أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين النحو والبلاغة ، ومن هنا يمكن القول بأن للنظم مجاله النحو البلاغي ، أو البلاغة النحوية . ولعل هذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في عرضه لنظرية النظم في القرآن الكريم والتي سبق الإشارة إلى جانب منها في مدخل هذا البحث . ولقد ساق عبد القاهر أمثلة متعددة لجمال التعبير النحوي بالتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والمزوجة بين كلامين في الشرط والجزاء وغير ذلك . ورأينا البلاغة تختلط بالنحو في هذه النظرية التي تقوم على فهمه للتركيب النحوي ، ونراه يؤكد بأن الألفاظ مغلفة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والقياس الذي لا يعرف صحيحاً من ساييم حتى يرجع إليه (١) .

يقول عبد القاهر : « اعلم أنه ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها ، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قواك : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو ينطلق . وفي الشرط والجزاء إلى

(١) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٢٣ ، مطبعة المنار ،

الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج ، وإن خرجت خرجت ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج أن خرجت ، وأنا إن خرجت خارج ... » (١)

وسوف يكون تركيزي في هذا الفصل على بيان أسرار التركيب النحوي والبلاغي والتعليل لما ذكر في بعض آيات قصص القرآن الكريم ، وأشير بالذات إلى الحذف ووجوهه وما يشته به الزيادة والنقصان ، ثم أنتقل بعد ذلك إلى بيان بعض وجوه الخطاب في قصص القرآن ، وما يتبعها من أسرار باهرة ، معللا لما أقول وموضحا لكوا من تلك الوجوه كلها .

الحذف وصوره في قصص القرآن :

تكثر أنواع الحذف في قصص القرآن الكريم ، والمحذوف بفهم غالباً من خلال السياق أو وجود قرينة تدل عليه كما سيتبين لنا ، وفي الحذف فوائد جليلة منها الاختصار مع عدم الإخلال بالمعنى وهذا ما سبق أن أشرت إليه في بيان خصائص الأسلوب القصصي القرآني ، وفي الحذف علة ترتبط بأن الزمان قد يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف ، وهذا يعني ضرورة الحذف في بعض المواضع وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم ويحدث معه الخلل . ومثال ذلك باب التحذير والإغراء ، وقد اجتمع في قوله تعالى : (ناقة الله وسقياها) فهاقة الله تحذير بتقدير « ذروا » وسقياها إغراء بتقدير « الزموا »

ويمحس الحذف في بعض المواضع لقوة الدلالة عليه أو يقصد به تعديد الأشياء ، فيكون في تعدادها طول وسأمة فيحذف ويكتفى بدلالة الحال عليه ، ويترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٦٣ وما بعدها .

وقد يراد بالحذف التعجب والتحويل على النفوس ، ومنه قوله تعالى في وصف أهل الجنة : (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) فحذف الجواب إذا كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا ينتهي ، فجعل الحذف دليلاً على تحقيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه وتركت النفوس تقدر ما شاءته ولا تبلغ من ذلك كنهه ما هنالك (١)

وقال تعالى في قصة موسى في ثلاثة مواضع :
(واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء) (٢)
وقال سبحانه :
(وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) (٣)
وفي آية ثالثة :

(اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب) (٤) الجناح مستعار بالفتح للجانب ، والجيب فتحة القميص ، والسلك الإدخال . والتقدير : اضمم يدك لجناحك أو أدخلها في جيبك « تدخل غير بيضاء » وأخرجها تخرج بيضاء . ومعنى من غير سوء ليس بياضها لمرض ، ومعنى : اضمم إليك جناحك من الرهب ، اضمم إليك يدك من الخوف ، فـالجناح هنا مستعار لليد ، والمراد أن يدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى إذا خاف أن يكون بياضها لسوء فتعود لحالتها .

وهذا النوع من الحذف يعرف بحذف « التقابل » المسمى بالاحتباك ، وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيحذف من كل منهما ما أثبت نظيره في الآخر لدلالة الكلام عليه . ومن ذلك قوله تعالى :

-
- (١) السيوطي : الإتيان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٥٧
(٢) سورة طه : آية ٢٢
(٣) سورة النمل : آية ١٢
(٤) سورة القصص : آية ٣٢

(وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور، ولا الظل ولا الحرور^(١))
ففسوله : (ولا الظلمات والنور) تقديره : ولا الظلمات « تستوى مع النور »
ولا النور « يستوى مع الظلمات » ومثلها : (ولا الظل ولا الحرور) والحرور
المكان الشديد الحر ، والأعمى والبصير مثل للضال والمهتدي ، والظلمات والنور
للكفر والإيمان ، والظل والحرور للنعيم والعذاب .

(وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء^(٢))
المراد بالأعمى والبصير الضال والمهتدي ، والتقدير : والذين آمنوا وعملوا
الصالحات « لا يستون » مع المسىء فينحطون لدركته ، ولا المسىء
« يستوى معهم » فيرتفع لدركتهم .

وقال سبحانه :

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك
وبينه عداوة كأنه ولي حميم)^(٣) .

التقدير لا تستوى الحسنة « والسيئة » ولا السيئة « والحسنة » أى أن
الأعمال الحسنة لا تنحط فتستوى مع السيئة في انحطاطها ولا الأعمال السيئة
تسمو فتستوى مع الحسنة في سموها ، فخذ في معاملتك للناس بالحسنة وادفع
بها السيئة التي قد ترد عليك من عدوك يكن لك هذا العدو كأنه صديق مشفق
شديد الولاء لك .

وذكر في قصة مريم عليها السلام :

(١) سورة فاطر : ١٩ — ٢١ .

(٣) سورة فصلت : آية ٣٤

(٢) سورة غافر : آية ٥٨

(فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا) (١) .

التقدير : وأنبتها « إنباتا » « فنبئت » نباتا حسنا ، وحذف المصدر الأول للدلالة فعله عليه ، وحذف الفعل الثاني لدلالة مصدره عليه . ومثلها : (والله أنبتكم من الأرض نباتا) (٢) . أنبتكم « إنباتا » فنبستم « نباتا » . ومثله في قوله تعالى « والله مافي السموات وما الأرض ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » (٣) .

متعلق التعليل محذوف وتقدير المعنى : خلق الله العالم وجعل التكليف ليجزي المسيتين بأعمالهم السيئة ويجزي المحسنين « بأعمالهم الحسنة » أي بالحسنى ، غالباء الأولى سببية ذكر بعدها سبب الجزاء وحذف نوعه ، والثانية للمعاوضة ذكر بعدها نوع الجزاء وحذف سببه ، والسوءى هي أسوأ العقوبات وهي النار والحسنى أحسن الثوابات وهي الجنة .

وقال حكاية عن الجن :

(وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) (٤) الرشد إصابة السداد ، فعله رشد كفرح ، ذكر الشر وحذف سببه وهو الغي أي الضلال ، وذكر الرشد وحذف عاقبته وهو الخير ، والتقدير : أشر أريد بمن في الأرض « وغي » أم أراد بهم ربهم رشدا « وخيرا » . ولم ينسب الشر إلى الله أدبا معه . ومن هنا جاء الفعل على صيغة البناء للمجهول .

(٢) سورة نوح : آية ١٧

(١) سورة آل عمران : آية ٣٧

(٤) سورة الجن : آية ١٠

(٣) سورة النجم : آية ٣١

(قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً) (١). أي لا أملك لكم ضرراً ، ولا « نفعاً » ولا « غياً » ولا رشداً فحذف من كل ما يقابله ، والمراد أن الضر والنفع والضلال والهدى بيد الله تعالى .

وورد في قصة يوسف عليه السلام بشأن تأويل الرؤيا :

(أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) (٢) ففعلوا ، فأتى يوسف فقال له : (يوسف أيها الصديق) (٣) واو بسط الكلام فأورد محذوفه لقال: أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسلون ففعلوا ، فأتى يوسف فقال له : يا يوسف أيها الصديق أفنته وهذا يكون معه الإطالة والإطناب بما يؤدي إلى الخلل والنفص وليس هذا من صفات الأسلوب القرآني التي تقوم على الإيجاز في عرض القصص بما يكون معه جلاء المعنى ووضوحه وفهمه من خلال سياق الأحداث وقال في قصة خلق آدم :

(إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال : إني أعلم ما لا تعلمون) (٤) .

تأويل إستخبار الملائكة هنا على جهة الاستعلام وجهة الحكمة ، لا على الإنكار (٥). وإن الله تعالى أخبر الملائكة بأنه سيكون من ذرية هذا المستخلف من يعصى ويفسد في الأرض ، فقالت على وجه التعرف لما في هذا التدبير من المصلحة والاستفادة لوجه الحكمة فيه : أتجعل فيها من يفعل كذا وكذا ؟

(١) سورة الجن : آية ٢١ (٢) سورة يوسف : آية ٤٥

(٣) سورة يوسف : آية ٤٦ (٤) سورة البقرة : آية ٣٠

(٥) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه ، ج ١ ، ص ٧٦ : الهيئة العامة

لشئون المطابع الأميرية .

وهذا الجواب يقتضى أن يكون فى أول الكلام حذف ويكون التقدير :
وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة ، وإني عالم أنه سيكون
من ذريته من يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء ، فاكتفى عن إيراد المحذوف
بقوله سبحانه :

(قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك) (١) لأن ذلك دلالة على الأول وإنما حذفه اختصاراً (٢) .

ونستطيع القول بأن فى جملة جميع الكلام اختصاراً شديداً ، وهذا مما
يختص به أسلوب القصة فى القرآن ، لأنه تعالى لما حكى عنهم قولهم :

(أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس
لك) كان فى ضمن هذا الكلام : فنحن على ما نظنه ويظهر لنا من الأمر أولى
بذلك لأننا نطبع وغيرنا عاص .

وقوله تعالى : (إني أعلم ما لا تعلمون) يتضمن أيضاً أننى أعلم من مصالح
المكلفين ما لا تعلمونه ، وما تكون مخالفا لما تظنونه على ظواهر الأمور (٣) .

ومنه قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام :

(وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ومن
الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب
السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) إلى قوله تعالى : (اعملوا

(١) سورة البقرة : آية ٣٠ .

(٢) الشريف المرتضى : أمالى المرتضى ، ص ٧٠ — دار الكتاب العربى

بيروت ، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .

(٣) الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ج ١ ، ص ٥٠ .

آل داود شكراً (١) أى وقلنا لهم (اعملوا آل داود شكراً) اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم ، أو اعملوا عملاً شكراً على أنه صفة مصدر محذوف ، أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له أو حال أى شاكرين .
سميت الطاعة شكراً لأنها من جملة أنواعه .

وقال جرير :

وردتم على قيس بنحور مجاشع فنؤتم على ساق بطيء جبورها (٢)
أراد : فنؤتم على ساق مكسورة بطيء جبورها ، كأنه لما كان في قوله :
« بطيء جبورها » دليل على الكسر اقتصر عليه .

وقال تائب شراً ، ويروى للشنفرى :

فلا تدفوني إن دفنى محرم عليكم ولكن خامرى أم عامر
لأنه أراد : فلا تدفوني بل دعوني تأكلنى التى يقال لها : خامرى أم عامر
وهي الضبع .

(١) سورة سبأ : ١٢ ، ١٣

(٢) ديوانه ٢٦٨ ومجاشع هو مجاشع بن عمرو بن تميم . وخور جمع خوار
والخوار الضعف والجمع خور

وقال أوس بن حجر :

حتى إذا الكلاب قال لها كالיום مطلوبوا ولا طلبا (١)
أراد : « لم أر كالיום » ، حذف .

حذف الاختصار :

من أمثلة حذف الاختصار حذف جواب إذا كما ورد في قصة الثلاثة الذين
خلفوا في قوله تعالى :

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت
عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) (٢) .

المعنى بحسب ما قبله أنه تعالى تاب على النبي والذين كانوا معه (في ساعة
العسرة) (٣) . أي في غزوة تبوك وتاب أيضا على الثلاثة الذين أرجأ النبي
قبول عذرهم إلى أن ينزل الله فيهم أمره ، والكلام يتم عند (خلفوا) وما يليه
بيان لحال أولئك الثلاثة وما عانوا من شدة حتى نزلت توبتهم ، والتقدير طال

(١) المرتضى الزبيدي : أمالى المرتضى : غرر الفوائد ودرر القلائد ،

(٢) سورة التوبة : آية ١١٨ .

(٣) سورة التوبة : آية ٤٧ .

يهم الغم حتى إذا ضاقت عليهم الأرض برحبها ألما وحمرة من هجر المسلمين لهم وضائق صدورهم خوفاً من الله واعتقدوا أن لا ملجأ من سخطه إلا بالإنابة إليه « تاب عليهم » أى قبل توبتهم ، ومعنى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » أنزل قبول توبتهم ليستقيموا إليه شكراً . والملجأ الملاذ أى المكان الذى يلجأ إليه الخائف ويلوذ به ، ذكر بقوله تعالى . (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون) (١)

وردد فى سورة يس حكاية عن الكفار :

(وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون) (٢)
التقدير : « أعرضوا » وهو مفهوم من السياق القرآنى ولذلك قال بعدها :
(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) والإشارة بما بين أيديهم وما خلفهم لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

وقال فى سورة الزمر فى شأن المتقين وتصوير دخولهم الجنة :

(وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين) (٣)

حذف الجواب لدلالة الكلام عليها وتقديره : « ادخلوها ليخلدوا فيها ويلقوا من النعيم ما لا يحيط به وصف » ومعنى طيبم طهرتم فى الدنيا بطاعة الله وتركه قوسكم .

(٢) سورة يس : آية ٤٥

(١) سورة التوبة : آية ٥٧

(٣) سورة الزمر : آية ٧٣

(إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة) (١) .
 جملة : (ليس لوقعتها كاذبه) اعتراض فيه تأكيد لوقوعها ، وجواب إذا
 يقدر من (خافضة رافعة) والمعنى إذا قامت القيامة — وليس لقيامها تكذيب .
 إذ هي واقعة لا محالة — « خفضت أقواما ورفعت آخرين » . وقوله بعد
 ذلك : « إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بسا » (٢) .

تقديره : هي واقعة وقت رج الأرض وبس الجبال أى تفتيتها .
 وقال سبحانه :
 (إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت . وألقت
 ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت) (٣) .

جواب إذا يفهم من قرينه في سورتي التكرير والانتظار وهو قوله تعالى :
 (علمت نفس ما أحضرت) (٤) ، (وعلمت نفس ما قدمت وأخرت) (٥) .

وتقدير المعنى : إذا انشقت السماء واستمعت لأمر ربها وحق لها أن
 تستمع ، ومدت الأرض فبسطت وسويت بزاويل ما كان عليها من الجبال
 وغيرها ، وألقت ما فيها من الموتى وتخلت عنهم مستمعة لأمر ربها وحق لها أن
 تستمع علمت كل نفس ما قدمت من أعمال وما أخرت من واجبات .

حذف جواب ان الشرطية :

ورد على لسان شعيب عليه السلام :

(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً) (١)

-
- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الواقعة : ١ — ٣ . | (٢) سورة الواقعة : ٤ — ٥ . |
| (٣) سورة الانشقاق : ١ — ٥ . | (٤) سورة التكرير : آية ١٤ . |
| (٥) سورة الانتظار : آية ٥ . | (٦) سورة هود : آية ٨٨ . |

الرزق الحسن هو وحى الرسالة ، والمعنى خبرونى إن كنت على حجة
واضحة من الله فيما أدعوكم إليه فكان وحيا منه حقا ورزقنى معرفة
بأحكامه وأوامره :

« فهل يسعنى عصيانه أو التقصير فى بيانه لكم » .

وخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم بشأن بيان أن القرآن حق من عنده
بقوله :

(قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ..) (١) .

التقدير : خبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به : ألسنم ضالين
وفى جدال باطل ، بدليل بقية الآية : (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) .
وقال فى قصة مريم : (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) (٢) .

التقدير : إن كنت تقياً فاتق الله ولا تمسنى بسوء .

وذكر فى قصه أصحاب القرية :

(قالوا طائر كم معكم أئن ذكرتم) (٣) .

طائر الإنسان عمله وما قدم من خير وشر ، والتقدير : أئن ذكرتم
« تطيرنم » أى تشاءنم ، ومعنى : (طائر كم معكم) أن شؤمكم ونصيبكم من
الخير أو الشر هو فى عملكم أتم .

ومثله قوله تعالى :

(وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) (٤) .

التقدير : « فيقال له » سلام لك من إخوانه أصحاب اليمين ، نحدث جواب

(٢) سورة مريم : آية ١٨ .

(١) سورة فصلت : آية ٥٢ .

(٤) سورة الواقعة : ٩٠ — ٩١ .

(٣) سورة يس : آية ١٩ .

أن ربي معموله مع الفاء الدالة عليه، واليمين كناية عن اليمين والخير، فأصحاب
اليمين هم أهل السعادة .

حذف جواب لو ولولا :

(ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من
فضله ورسوله) (١) لو أنهم رضوا ما آتاهم من الغنمة واظمأنت قلوبهم بالشكر
له والرجاء فيما عنده « لكان خيراً لهم » .

(ولو أن قرآنا سرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به
الموتى) (٢) .

الجواب محذوف تقديره : « لكان هذا القرآن » . و (ورأوا العذاب
لو أنهم كانوا يهتدون) (٣) . لو أنهم كانوا يهتدون بهدى رسلهم « لما صاروا
إليه ولما رأوه » .

وقد ذكرت في القرآن الكريم وجود متعددة لحذف جواب لو في بيان
موضع حال المجرمين كما في قوله تعالى :

(ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) (٤) .
وقال سبحانه :

(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا) (٥) .
وقال :

-
- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة النوبة : آية ٥٩ . | (٢) سورة الرعد : آية ٣١ . |
| (٣) سورة القصص : آية ٦٤ . | (٤) سورة الأنعام : آية ٢٧ . |
| (٥) سورة الأنعام : آية ٣٠ . | |

(ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربنا أبصرنا وسمعنا
«فارجعنا لعمل صالحا إنا موقنون» (١) .

و (ولو ترى إذ فزعوا فلافت وأخذوا من مكان قريب) (٢) .
«فلافت» فلا مهرب وأخذهم من مكان قريب كناية عن وقوع النكال
بهم والتمكن منهم .

فتقدير المحذوف في الآيات السابقة : «لأيت أمراً فظيعاً وعذاباً أليماً»
وحذف جواب لو ومفعول العلم فيما يلي :

(ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد
العذاب) (٣) .

الرؤية الأولى علمية والثانية بصرية ، والمعنى : لو يعلم المشركون في الدنيا
سوء حالهم حين يشاهدون عذاب الآخرة «لأيقنوا» أن القوة في الدنيا
والآخرة هي لله وحده دون من جعلوهم له شركاء وأن الله شديد للعذاب .

وقال في المثال القصص :

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً
وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (٤) .

الوهن الضعف وشبه آلهتهم في عجزها عن تفهم وضعفها ببيت العنكبوت
في ضعفه ووهنه . والتقدير : لو كانوا يعلمون أنها لا تغني عنهم شيئاً في الدنيا
ولا في الآخرة «ماتوجهوا إليها بالعبادة» .

-
- (١) سورة السجدة : آية ١٧ . (٢) سورة سبأ : آية ٥١ .
(٣) سورة البقرة : آية ١٦٥ . (٤) سورة العنكبوت : ٤١ .

ومثله قوله تعالى :

(وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) (١) .

التقدير : لو كانوا يعلمون حقيقة الآخرة « لما اختاروا عليها هو الدنيا »
ومعنى (لهي الحيوان) هي الحياة الحقيقية لأبديتها ودوام نعيمها ، فهي الحياة
الكاملة الخالية من المتاعب والخاوف والمكاره ، والحيوان في معنى المصدر
كالحياة .

وقال :

(فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا
يعلمون) (٢) أى أكبر من عذاب الدنيا لو كانوا يعلمون ذلك « لآمنوا » .

(ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) (٣) :
العير القافلة أو ما يحمل الميرة من إبل وبغال وحمير ، والفند ضعف الرأى ،
والتقدير : لولا أن تجهلونى فيما أقول « لأخبركم عن شعورى بوجوده
ورجائى فى لقاءه » ويؤيد ذلك قوله فيما بعد حين جاءه البشير : (ألم أقل
لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) (٤) . والريح الرائحة وأنت هنا بمعنى
القوة ، والدولة منقلبة عن الروح فى قوله تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا
وتذهب ريحكم) (٥) .

(سورة العنكبوت : ٦٦)

(١) سورة العنكبوت : ٦٦ .

(٢) سورة الزمرة : آية ٢٦ .

(٣) سورة يوسف : آية ٩٦ .

(٤) سورة يوسف : آية ٩٦ .

(٥) سورة الأنفال : آية ٤٦ .

ومن أمثلة حذف جواب « لما » :

قوله تعالى في قصة يوسف :

(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب) (١).

الجب : البئر وغيابته ماستر منه وغاب عن العيون ، وهو مكرر بقوله :
(وألقوه في غيابة الجب) (٢) : وجواب لما يتصور في مسلك يوسف معهم
حين هموا بإلقائه كتعلقه بهم وتوسله إليهم وفي حاله بعد ما ألقوه فيها فيشير
لما اعتراه من وحشة وما راوده من يأس حتى أدر كته البشارة بالنجاة فأوحى
إليه ربه كتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون .

وفي قصة ابراهيم عليه السلام :

(فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا
كذلك نجزي المحسنين) (٣) .

التل : الأرض المرتفعة ، والمعنى : فلما أسلما أمرهما الله وألقاه إبراهيم
على الأرض إلى جبينه وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا متفضلون
عليك بإحساننا وفداء ولدك إسماعيل « استبشر وشكر الله على جزيل نعمته
برفع البلاء عنه » والجبين ما بين الحاجب وشعر الرأس ويسمى الجبهة .

وحذف المتبداً في قوله تعالى :

(قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) (٤) .

سولت : زينت . والتقدير : ف « أمرى » صبر جميل والصبر الجميل
الذي لا تيرم فيه ولا شكوى للناس معه .

(١) سورة يوسف : آية ١٥ . (٢) سورة : آية ١٠ .

(٣) سورة الصافات : ١٠٣—١٠٥ . (٤) سورة يوسف : ١٨ ، ٨٣ .

و (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (١) .
التقدير : وقل « هو » الحق من ربكم ، والضمير للقرآن المشار إليه بقوله :
(واتلى ما أوحى إليك من كتاب ربك) (٢) .

وقال في سورة مريم :

(كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا) (٣) .

التقدير : « هذا » ذكر رحمة ربك عبده زكريا . ونصب عبده على أنه
مفعول به للرحمة . والمعنى : هذه قصة ما ناله من رحمة الله ، والمراد بالرحمة
إجابته دعائه بمنحه الولد ، وهو وزوجته في سن الشيخوخة يرث عنه وعن آل
يعقوب علم النبوة ويرعى أمر الأمة من بعده :

(يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) (٤) .

ومن أمثلة حذف المفعول قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام :

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسهقون ، ووجد من دونهم
امراًتين تذودان ، قال ما خطبكما قالتا لانسق حتى يصدر الرءاء) (٥) .

مفعول يسهقون وتذودان ونسقى ويصدر محذوف تقديره « الماشية » .
والأمة الجماعة ، ومعنى تذودان تمنعان ، يقال زاده عن كذا يذوده ذوداً منه
ودفعه (٦) .

(٢) سورة الكهف : آية ٢٧

(١) سورة الكهف : آية ٢٩

(٤) سورة مريم : ٥٠

(٣) سورة مريم : ١ — ٢

(٥) سورة القصص : آية ٢٣

(٦) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (زود) .

والخطب موضوع الخطبة ، وقرئ ، لا نسق وبهدير والراء بضم النون والياء والراء ، وأما الراء بالكسر فقياس كصيام وقيام (١) . والمراد أنها كانتا تمنعان ماشيتهما من ورود المساء تجنباً للزحام وتنتظران حتى يرجع الراء ماشيتهن . وقد جاءت هذه الأفعال مطلقة ، إذا افترض أن يعلم أنه كان من الناس سقى ، ومن المرأتين ذود ، ومن هذا أيضاً قول البحري :

إذا أبعدت أبلت وإن قربت شفت فهجرتها يبلى ولقيانها يشقى
لم يقل أبلغني وشفتني ، لأنه أراد ما هو خير من هذا وأبلغ في المدح ،
أراد أن بعدها في ذاته داء ، وأن قربها شفاء ، ولا سبيل إلى أن يجعل لها
هذا الأثر العجيب إلا بحذف المفعول .

وقد يبسط الكلام حين يحسن الإطناب ، وذلك إذا كان إصغاء السامع
مطلوباً للمتكلم كما في قوله تعالى :

(وما تلك يمينك يا موسى قال هي عصاى (٢)) ولو قال «عصاى» لأجزأه
ذلك ، وإنما أراد أن يزداد شرفاً وتفضيلاً بإطالة الحديث في مناجاته لربه .

وفي سورة القمر قال تعالى :

(فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) (٣) . أى تعاطى « السكين » فذبح
« الناقة » ، فحذف المفعول فيها .

وقال في الملك :

(١) الزخشرى : الكشف ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٣) سورة القمر : آية ٢٩ .

(٢) سورة طه : آية ١٨ .

(أ ولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن) (١) . صافات «أجنحتها»
أي باسطات لها أثناء الطيران ، ويقبضنها أحيانا دون أن يسقطن عند قبضها ،
وهو دليل على قدرته تعالى في هدايتها لمعاشها .

وقال في الصافات :

(أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور) (٢) .
حذف المفعول وتقديره : أفلا يعلم «مآله» أو «مصيره» يوم يبعث من
في القبور ويكشف عما تكنه الصدور من نوايا طيبه وخبيثه وعقائد زائفة
وراسخة . وهذا كالمشار إليه في قوله تعالى :

(والله أعلم بما يوعون) (٣) ، أي بما يكونون في صدورهم .

وحذف التعليل في قوله تعالى :

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث) (٤) .

بهذا التدبير من إنجائه وتعطيف قلب العزيز عليه مكنا له في أرض مصر
« لننشئه نشأة تعده للرسالة فيهم » ولنعلمه من تأويل الأحاديث الشاملة « أسرار
الرسالة » أو « علوم النبوة » .

حذف الجملة :

(فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنني معكم
عن المنتظرين . ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا) (٥) .

(١) سورة الملك : آية ١٩ (٢) سورة الصافات : ٩ — ١٩

(٣) سورة الانشقاق : آية ٢٣ (٤) سورة يوسف : آية ٢١

(٥) سورة يونس : ١٠٢ — ١٠٣ .

التقدير : ما ينتظرون إلا أن نهلكهم كما أهلكنا المكذبين قبلهم « تلك
ستتنا في المكذبين لرسلهم نهلكهم » ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا .
وقال في قصة يوسف :

(قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا
ونزداد كيل بعير) (١) . أى لسنا نعدو الحق فما نقول هذه بضاعتنا ردت إلينا
« سنعود بها إلى مصر » ونجلب مقابلها الميرة أى الطعام لأهلنا .
وقال في قصة موسى :

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم) (٢)
تقدير المعنى : « وقلنا له اذهب إلى فرعون « فاطاب بني إسرائيل منه »
« فطلبهم » إذ جاءهم . والطلب مكرر بقوله : (فأرسل معي بني إسرائيل) (٣)
وقوله : (فأرسل معنا بني إسرائيل) (٤) و (أن أرسل معنا بني إسرائيل) (٥)
و (أن أدوا إلى عباد الله) (٦) .

وقال في قصة إبراهيم :

(قال أرغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرنى
مليا) (٧) . رغب فى الشيء رغبا — كتعب — أراده ، ورغب عنه زهد
فيه (٨) ، والرجم الرمي بالرجام وهي الحجارة ، واستعمل للقتل لأنه يتولد عنه
والملى والملاوة الوقت الطويل .

(١) سورة يوسف : آية ٦٥ (٢) سورة الاسراء : آية ١٠١

(٣) سورة الاعراف : آية ١٠٥ (٤) سورة طه : ٤٧

(٥) سورة الشعراء : آية ١١٧ (٦) سورة الدخان : ١٨

(٧) سورة مريم : آية ٤٦ .

(٨) القاموس واللسان : مادة (رغب) ، (رجم) .

والمعنى : لئن لم تنته عن شتم الآلهة لأقتلنك « فاحذرنى » واهجرنى طويلاً والاستفهام التعجبى فى الآية واقع على ما بدا من إبراهيم من الرغبة والانصراف عن آلهتهم ، لا على ذات الفاعل ، ولو قيل : « أنت راغب عن آلهتى يا إبراهيم » ، لكان التعجب واقعاً على ذات الفاعل ، ولأفاد الكلام أنه لو كانت الرغبة من غيره لما تعجب منها .

ذكر فى قصة صالح مع قومه :

(فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) (١)

ناقة هنا منصوب على التحذير ، وسقياها على الإغراء أى « احذر واعقر » ناقة الله و « ارعوا » سقياها ، وهذا الإيجاز فصل بقوله :

(لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم) (٢) .

أى أن الماء مقسم بينهم وبين الناقة ، فلها شرب يوم تحضره ولهم شرب يوم يحضرونه ، وهو قوله عز وجل :

(ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محضّر) (٣)

أى كل نصيب من الماء يحضره صاحبه .

وقال فى لوط :

(ولوطا آتينا حكماً وعلماً . . .) (٤)

نصب لوط من الماء الذى رجعت عليه من (آتيناها) ، والنصب الآخر على

(١) سورة الشمس : آية ١٣ (٢) سورة الشعراء : ١٥٥ — ١٥٦

(٣) سورة القمر : آية ٧٤ (٤) سورة الأنبياء : آية ٧٤

إضمار (واذكر لوطا) أو (ولقد أرسلنا) أو ما يذكر في أول السورة وإن لم يذكر فإن الضمير إنما هو من الرسالة أو من الذكر .

ومثله :

(ولسليمان الريح عاصفة) (١) .

فنصب «الريح» بفعل مضمر معلوم معناه : إما سخرنا ، وإما آتيناه (٢) .

وقد تكرر ذلك في سورة الأنبياء نحو قوله : (ونوحا إذ نادى ربه) فهو على ضمير الذكر . وقوله :

(وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث) (٣) . فهو نصب على ضمير الذكر .

ومن أمثلة حذف المضاف قوله تعالى :

(واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) (٤) .

فهذا محذوف فيه ضمير مجازه : وسل أهل القرية ومن في العير . وحذف المنادى في قوله تعالى :

(ألا يا سجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض) .

على قراءة الكسائي بتخفيف «ألا» على أنها تنبيه ويا «نداء» والتقدير : ألا يا هؤلاء اسجدوا لله . ويجوز أن يكون «يا» تنبيها ولا منادى هناك .

(١) سورة الأنبياء : آية ٨١

(٢) الفراء : معاني القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٠٨

(٣) سورة الأنبياء : آية ٧٨ (٤) سورة يوسف : آية ٨٢

وجمع بينهما تأكيداً ، لأن الأمر قد يحتاج إلى استعطاف المسامحة واستدعاء إقباله على الآخر (١) وأما على قراءة الأكثر بالتشديد ، فعلى أن الناصبة للفعل دخلت عليها لا النافية ، والفعل المضارع بعدها منصوب ، وحذفت النون علامة النصب ، فالفعل هنا معرب ، وفي تلك القراءة مبنى (٢) .

من صور الحذف في بعض الحروف :

قال ابن عمرون : وحذف الواو في الجمل أسهل منه في المفرد ، وقد أكثر حذفها في الجمل في الكلام المحمول بعضه على بعض ، نحو قوله تعالى في قصة موسى (قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون ؟ قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب) (٤) .

يتضح من خلال السياق القرآني في سرده للحوار القصصى أن الكلام كله محمول بعضه على بعض ، وواو مزادة ، حذفت لاستقلال الجمل بأنفسها بخلاف للمفرد ، ولأنه في المفرد ربما أوقع لبساً في نحو : « رأيت زيداً ورجلاً حافلاً » ولو جاز حذف الواو احتمال أن يكون « رجلاً » بدلاً بخلاف الجملة (٥)

وقريب من ذلك قوله تعالى في قصة قارون :

(فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا . . . (٦)

(١) البرهان في علوم القرآن : ج ٤ ، ص ١٨٠

(٢) السابق نفسه . (٣) سورة الشعراء : ٢٣ — ٢٨

(٤) سورة الشعراء : ٢٣ — ٢٨

(٥) الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٢١١

(٦) سورة القصص : آية ٧٩

والتقدير : « وقال الذين يريدون . . . » لحذف الواو لاستقلال الجمل بنفسها . ومنه الفاء في جواب الشرط وخرج عليه قوله تعالى : (إن ترك خيراً الوصية) (١) .

أى فالوصية ، لحذف الفاء .

والفاء في العطف كما في قصة بنى اسرائيل ، قال تعالى :

(إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أنتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) (٢)

تقدير الحذف : (فقال أعوذ بالله) ، إنما حذف الفاء لأن الكلام محمول على بعضه كما هو واضح من خلال السياق القرآنى عرض في صورة الحوار بين موسى عليه السلام وقومه ، ولو ذكرت الفاء لحدث هناك خلل واضطراب في نظام الجمل . وشبهه بذلك ما جاء في قصة هود :

(وإلى عاد أخاهم هود قال يا قوم اعبدوا الله واتقوه) . حذف حرف العطف من قوله « قال » ولم يقل « فقال » كما في قصة نوح من قوله تعالى :

(لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم . . .) (٣) لأنه على تقدير سؤال سائل قال : ما قال لهم هود ؟ فقليل : قال يا قوم اعبدوا الله واتقوه .

ومن ذلك حذف همزة الاستفهام ، كقوله تعالى عن إبراهيم :

(فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي) (٤) أى أهذا ربي ؟ وقوله عن موسى :

(٢) سورة البقرة : آية ٦٧

(١) سورة البقرة : آية ١٨٠

(٤) سورة الأنعام : آية ٧٦

(٣) سورة الأعراف : آية ٥٩

(وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) (١) أى أو تلك نعمة ؟
وقوله فى قصة يوسف عليه السلام :

(إنك لأنت يوسف) (٢) على قراءة ابن كثير بكسر الهمزة ، على خلاف
بغى ذلك جميعه .

ومنه حذف حرف النداء ، كقوله تعالى :

(ها أتم هؤلاء) (٣) أى يا هؤلاء ، وقوله :

(يوسف أيها الصديق) (٤) أى يا يوسف . وقوله فى قصة زكريا :

(رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً) (٥) أى يارب .

ويكثر ذلك فى المضاف نحو :

(فاطر السماوات والأرض) (٦) وقوله على لسان المسيح عليه السلام فى

قصة نزول المائدة :

(ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) (٧) .

وكثر ذلك فى نداء الرب سبحانه وتعالى ، وحكمة ذلك — كما أرى —

دلالاته على التعظيم والتعزيب والثناء الحسن الجميل ، لأن النداء فيه يتضمن معنى

الأمر والحث على الفعل ، فإذا قلنا : يا محمد ، فمعناه أدعوك يا محمد ، فحذفت « يا »

من نداء الرب ليزول معنى الأمر ويتمحض التعظيم والإجلال ويحمل على

معنى الدعاء .

(٢) سورة يوسف : آية ٩٠

(١) سورة الشعراء : آية ٢٢

(٤) سورة يوسف : آية ٢٩

(٣) سورة آل عمران : آية ٦٦

(٦) سورة يوسف : آية ١٠١

(٥) سورة مريم : آية ٤

(٧) سورة المائدة : آية ١١٤

وإذا عدنا إلى قوله تعالى في قصة يوسف :

(واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون) (١) .
نرى أن هناك وجوها متعددة ذكرت في تأويلها ، فقبل المعنى : واسأل القرية
تسبها وإن كانت جماداً فإنك نبي الله ، والله تعالى سينطقها فتجيبك ، وهذا ما
حكاه الطبري (٢) ، وأرى هذا الوجه ضعيفاً .

وقال ابن كثير في حذى المضاف : المراد : واسأل أصحاب العير ، وكانوا
قوماً معروفين من جيران يعقوب . والعير التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا
وحفظنا وحراستنا (٣) .

ما يشتهه بالزيادة والنقصان :

قال تعالى حكاية عن الكفار في سورة البقرة :

(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (٤) .

وقال في سورة يس :

(وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (٥) .

بزيادة « واو » لأن ما في البقرة جملة هي خبر عن اسم إن في قوله تعالى :

(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)، وما في يس :

جملة عطف بالواو على جملة . ومثله في البقرة أيضاً :

(يذبحون أبناءكم) (٦) . وفي سورة إبراهيم :

(ويذبحون أبناءكم) (٧) ، بالواو ، ووجه أنه في سورة إبراهيم تقدم :

(١) سورة يوسف : آية ٨٢ (٢) تفسير الطبري : ١٦ / ٢٠٩

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٤ ، ص ٣٢٨ (٤) سورة البقرة : آية ٦

(٥) سورة يس : آية ٢٠ (٦) سورة البقرة : آية ٤٩

(٧) سورة إبراهيم : آية ٦

(وذكرهم بأيام الله) ، وهي أوقات عقوبات إلى أن قال :

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) فناسب أن يأتي بالواو لتعدد امتحانهم تعديداً ، كما أن العاطف يؤذن بأن إسامتهم العذاب مغاير لتذريح الأبناء وسبي النساء ، وهو ما كانوا عليه من التسخير ، بخلاف المذكور في البقرة : فإن ما بعد (يسمونيكم) تفسير له ، فلم يعطف عليه ولذلك جاء على البديل . ولأجل مطابقة السياق جاء في الأعراف :

(يقتلون أبناءكم) (١) ليطابق : (سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم) (٢)

وقال في الأعراف عن نوح :

(لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) (٣) بغير «واو» وليس في القرآن غيره .

وفي المؤمنين وهود :

(ولقد أرسلنا نوحاً) (٤) بالواو .

في البقرة : (ويكون الدين لله) (٥) . وفي الأنفال : (ويكون الدين كله

لله) (٦) في آل عمران : (اشهدوا بأننا مسلمون) (٧) ، وفي المائدة (بأننا

مسلمون) (٨) في آل عمران : (جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) (٩)

يما واحدة إلا في قراءة ابن عامر ، وفي فاطر : (بالبينات والزبر والكتاب

(١) سورة الأعراف : آية ١٤١ (٢) سورة الأعراف : آية ١٢٧

(٣) سورة الأعراف : آية ٥٩

(٤) سورة هود : ٢٥ ، سورة المؤمنين : ٢٣

(٥) سورة البقرة آ ١٩٣ (٦) سورة الأنفال : آية ٣٩

(٧) سورة آل عمران : آية ٦٤ (٨) سورة المائدة : آية ١١١

(٩) سورة آل عمران : آية ١٨٤

النير) بثلاث باءات زيادة في التقرير وإثبات الحجة على المشركين .

في الأنعام : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) (١) فكرر « لكم » . وقال في هود : (ولا أقول إني ملك) (٢) لأنه تكرر (لكم) في قصته أربع مرات فاكتمى بذلك .

في الأنعام : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) (٣) وفي سورة القلم : (بمن ضل عن سبيله) (٤) بزيادة في الباء ولفظ الماضي ، وفي النجم : (هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) (٥) .

وورد على لسان الكفار :

(إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) (٦) . وفي سورة المؤمنين : بزيادة (نموت) ، وفيها أيضاً :

(إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) (٧) ليس فيها غيره ، وفيها (جعلكم خلائف الأرض) (٨) ، في فاطر : (خلائف في الأرض) (٩) وقال في قصة آدم في الأعراف :

(ما منعك ألا تسجد) (١٠) ، وفي ص : (أن تسجد) (١١) ، وفي

-
- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة الأنعام : آية ٥٠ | (٢) سورة هود : آية ٣١ |
| (٣) سورة الأنعام : آية ١١٧ | (٤) سورة القلم : آية ٧ |
| (٥) سورة النجم : آية ٣٠ | (٦) سورة النجم : آية ٢٩ |
| (٧) سورة الأنعام : آية ١٥٩ | (٨) سورة الأنعام : آية ١٦٥ |
| (٩) سورة فاطر : آية ٣٩ | (١٠) سورة الأعراف آية ١٢ |
| (١١) سورة ص : آية ٧٥ | |

الحجر : (ألا تكون من الساجدين) (١) فزاد (لا) .

قال أبو عبيدة : في قوله تعالى : (ما منعك ألا تسجد) (٢) مجازة :
ما منعك أن تسجد ، والعرب تضع « لا » في موضع الإيجاب وهي من حروف
الزوائد (٣) .

في الأعراف : (كذبوا من قبل) (٤) وفي يونس زيادة « به » (٥) .
في الأعراف : (يريد أن يخرجكم من أرضكم) (٦) ، وفي الشعراء :

(يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) (٧) وفي هود :

(وإنا لنى شك مما تدعونا إليه مريب) (٨) ، حكاية عن جواب
الكفار وفي إبراهيم قال تعالى :

(وإنا لنى شك مما تدعونا إليه مريب) . (٩)

في يوسف :

(وما أرسلنا من قبلك) (١٠) ، وفي الأنبياء : (وما أرسلنا قبلك) (١١) .

(١) سورة الحجر : آية ٣٢ (٢) سورة الأعراف : آية ١٢

(٣) أبو عبيدة : مجاز القرآن ، ج ١ ، ص ٢١١ .

(٤) سورة الأعراف : آية ١٠١ (٥) سورة يونس : آية ٧٤

(٦) سورة الأعراف : آية ١١٠ (٧) سورة الشعراء : ٣٥

(٨) سورة هود : ٦ (٩) سورة إبراهيم : آية ٩

(١٠) سورة يوسف : آية ١٠٩ (١١) سورة الأنبياء : آية ٧ .

وكذلك حذف « من » من قوله تعالى :

(لكيلا يعلم بعد علم شيئاً) (١) ، وفي الحج : (من بعد علم شيئاً) (٢) .
في النمل : (وألق عصاك) (٣) ، وفي القصص : (وأن ألق عصاك)
وقد جاءت أن هنا لزيادة البيان والإيضاح .

في العنكبوت : (ولما أن جاءت رسلنا لوطا) (٤) ، وفي هود :
(ولما جاءت رسلنا لوطا) (٥) . بغير « أن » وقد جاءت في العنكبوت
زائدة للتأكيد .

في سورة المؤمن : (إن الساعة لآتية) (٦) ، وفي طه : (إن الساعة آتية
أكاد أخفيها) (٧) .

في المؤمنين : (ولقد أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين
إلى فرعون) (٨) وفي غافر بإسقاط ذكر « الأخ » : (ولقد أرسلنا موسى
بآياتنا وسلطان مبين) (٩) .

وقد اتفق العلماء على حذف ألف الوصل في الأسماء الأعجمية مثل :
« إبراهيم » لأنها زائدة لمعنى غير ظاهر في اللسان العربي ، لأن الأعجمي
بالنسبة إلى العربي باطن خفي لا ظهور له ، فحذفت ألفه .
قال أبو عمرو بن العلاء :

- | | |
|-------------------------------|-------------------------|
| (١) سورة النمل : آية ٧٠ | (٢) سورة الحج : آية ٥ |
| (٣) سورة النمل : آية ١٠ | (٤) سورة القصص : آية ٣١ |
| (٥) سورة العنكبوت : آية ٣٣ | (٦) سورة هود : آية ٧٧ |
| (٧) سورة غافر : آية ٥٩ | (٨) سورة طه : آية ١٥ |
| (٩) سورة المؤمن : آية ٤٤ ، ٤٦ | |

(اتفقوا على حذف الألف من الأعلام الأعجمية المستعملة كإبراهيم وإسماعيل ، وإسحق وهرون ولقمن وشبهها ، وأما حذفها من سليمان وصلح وملك — وليست بأعجمية — فلكثره الاستعمال ، فأما ما لم يكثر استعماله من الأهجمية فإنهم أثبتوا الألف فيه ، كطالوت وجالوت ، وبأجوج ، ومأجوج وشبهها) (١) .

وذكر في البرهان :

« وقد اختلفت المصاحف في أربعة ، هاروت وماروت ، وهامان وقارون ففي بعضها بالألف ، وفي بعضها بغير ألف ، والأكثر على إثبات الألف . فأما « داود » فلا خلاف في رسمه بالألف لأنهم قد حذفوا منه واوا فلم يحذفوا بحذف ألف أخرى ، ومثله : « إسرائيل » ، ترسم بالألف في أكثر المصاحف لأنه قد حذف منه الياء » (٢) .

وقد حذفت الألف في : « بسم الله » تنبيها على علوه في أول رتبة الأسماء واقتراده ، وأن عنه انقضت الأسماء ، فهو بكليتها ، يدل عليه إضافته إلى اسم الله الذي هو جامع الأسماء كلها . وعلماء الظاهر يقولون : للاختصار وكثرة الاستعمال ، وهو من خصائص الجلالة الشريفة ، فإن همزة الوصل الناقصة من اللفظ في الدرج تثبت خطأ إلا في البسملة ، وفي قوله تعالى : (بسم الله مجريها) (٣) ، ولا تحذف إلا بشرطين : أن تضاف إلى اسم الله ، كما سبق ، ولهذا أثبت في (باسم ربك) (٤) ، وأن تكون قبله الياء .

(١) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

(٣) سورة هود : آية ٤١ (٤) سورة العلق : آية ٢ .

بين الحذف والاختصار :

هناك فارق بين الحذف والاختصار ، وإن ظن البعض يظنون أنها واحد وليس كذلك لأن الحذف يتعلق بالألفاظ كما سبق أن أشرت إليه في موضعه ، وهو أن يؤتى بلفظ يقتضي غيره ويتعلق به ولا يستقل بنفسه ، ويكون في اللفظ الموجود دلالة على المحذوف فيقتصر عليه طبقاً للاختصار . والاختصار يرجع إلى المعاني التي تتضمنها الجملة أو العبارة وهو أن يذكر لفظ واحد يتضمن معاني كثيرة أو عبر عنها بغيره لا حثيج إلى أكثر من ذلك اللفظ ، ومن هنا ندرك أنه لا حذف إلا وهو اختصار وليس كل اختصار حذفاً .

ومثال الاختصار الذي ليس بحذف قول الشاعر :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل (١)

أراد أنهم أعزاء مقيمون بدار مملكتهم ، لا ينتجعون (٢) كالأعراب ، فاختصر هذا المبسوط في قوله : (حول قبر أبيهم) . وهي مارية بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة .

ومثله قول عدي بن زيد :

طالم بالذي يريد نقي الصدر وعف على جشاة نخور (٣)

وفي معنى الاختصار قول لؤس بن حجر :

(١) البيت في أمالي المرتضى : ص ٧٤ ولم يذكر الشاعر .

(٢) المراد أنهم لا يطلبون معروفاً من أحد كما يفعل غيرهم .

(٣) الجناة : تراب كان يجمع ويحمل عليه حجارة وينجر عليها الأصنام ، ويريد أنه طائع متدين ، ويروى على جباه ، وهي الحياض والجباية شيء مثل الحوض يجعل فيها الماء للابل ، وجمعها جوابي .

وفتيان صدق لا تخم لحامهم إذا شبه النجم الصوار النوافرا (١)

فقوله : (لا تخم لحامهم) (٢) لفظ مختصر ، ولو بسطه لقال : إنهم لا يدخرون اللحم ولا يستبقونه فيختم ، بل يطعمونه الأضياف ومن معهم .

ومعنى قوله : إذا شبه النجم الصوار النوافرا . يعنى فى شدة البرد ، والثريا تطلع فى هذا الزمان عشاء ، كأنها صوار متفرق والصوار بكسر الصاد القطيع من البقر .

وهذا أيضاً أكثر من أن يحصى وإنما فصل الكلام النصيح بعضه على بعض ، لقوة حظه من أداة المعاني الكثيرة بالألفاظ المختصرة

الابدال فى الحروف والكلمات :

قال تعالى فى قصة آدم :

(اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا) (٢) بالواو ، وفى الأعراف :

(اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها) (٤) بإلقاء

وحكمته أن (اسكن) فى البقرة من السكون الذى هو الإقامة فلم يصلح إلا بالواو ، ولو جاءت إلقاء لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة . والذى فى الأعراف من المسكن وهو اتخاذ الموضع سكناً ، فكانت إلقاء أولى ، لأن اتخاذ المسكن لا يستدعى زمناً متجدداً . وزاد فى البقرة (رغداً) لقوله : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) بخلاف سورة الأعراف فإن فيها : (قال) .

(١) ديوانه : ص ٨٠

(٢) فى القاموس : خم اتخم يخم ، وأخم يخم إذا أنتن

(٣) سورة البقرة : آية ٣٥ (٤) سورة الأعراف : آية ١٩

« وذهب قوم إلى أن ما في الأعراف خطاب لها قبل الدخول ، وما في البقرة
بعد الدخول . ومنه قوله تعالى في البقرة :

(وإذا قلنا لدخلوا هذه القرية فكلوا) (١) بالفاء ، وفي الأعراف بالواو :
(وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم) (٢)
في البقرة :

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) (٣) ، ثم قال بعد ذلك :
(من بعد ما جاءك من العلم) (٤)
في البقرة : (فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) (٥) . وفي آل عمران :
(ولا هم ينظرون) (٦) .

في البقرة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم
وإسماعيل) (٧) .

وفي آل عمران : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) (٨)
وفي الأنعام قال عن الكفار :

(قل سيروا في الأرض ثم انظروا) (٩) أي فانظروا بما جاءت به الأنبياء
من الإخبار بالبعث ، ومعنى النظر في الآية هو مشاهدة آثارهم بالبصر ، فإن
المشاهدة زيادة اعتبار ، والفاء العاطفية أوقع أثراً وأعجل في انصالتها بالأمس .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٦١

(٤) سورة البقرة : آية ١٤٥

(٦) سورة آل عمران : آية ٨٨

(٨) سورة آل عمران : آية ٨٤

(١) سورة البقرة : آية ٥٨

(٣) سورة البقرة : آية ١٢٠

(٥) سورة البقرة : آية ٨٦

(٧) سورة البقرة : آية ١٣٦

(٩) سورة الأنعام : آية ١١

فى الأعراف : (وما كان جراب قومه) (١) بالواو ، وفى غيرها بالفاء .
 وفى الأعراف ورد عن قصة موسى : (آمنتم به) (٢) ، وفى الباقى : (آمنتم
 له) (٣) والتعبير بـ « له » أوقع فى النفس وأدل على التعلق والتصديق بالرسول
 فى الكهف :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) (٤) وفى السجدة قال :
 (ثم أعرض عنها) (٥) .

فى طه (أفلم يهد لهم) (٦) بالفاء ، وفى السجدة : (أو لم يهد لهم) (٧) .
 فى القصص : (ما أوليتهم من شيء) (٨) ، وفى الشورى : (فما أوليتهم) (٩)
 بالفاء .

ومنه إبدال كلمة بأخرى :

فى البقرة حكاية عن المشركين : (ما ألينا عليه آباءنا) (١٠) .

وفى لقمان : (ما وجدنا عليه آباءنا) (١١) وبين ألينا ووجدنا ترادف

معنوى .

فى البقرة : (فأنفجرت منه اثنتا عشرة عينا) (١٢) .

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة النمل : آية ٦٩ | (٢) سورة الأعراف : آية ٨٢ |
| (٣) سورة الأعراف : آية ١٢٣ | (٤) سورة طه : آية ٧١ |
| (٥) سورة الكهف : آية ٥٧ | (٦) سورة السجدة : آية ٢٢ |
| (٧) سورة طه : آية ١٢٨ | (٨) سورة السجدة : آية ٢٦ |
| (٩) سورة القصص : آية ٦٠ | (١٠) سورة البقرة : آية ١٧٠ |
| (١١) سورة لقمان : آية ٢١ | |
| (١٢) سورة البقرة : آية ٦٠ | |

وفي الأعراف : (فانجست منه اثنتا عشرة عيناً) (١) .

وقوله في البقرة : (فانفجرت) الفاء مترتبة على محذوف تقديره : فضرب فانفجرت ، والانفجار الانشقاق ، وانفجر الماء انفجاراً انفتح ، والنفجوة موضع تفتح الماء (٢) . والانجباس أيضاً الانفجار ، وقوله : (فانجست) غطف على مقدر يدل عليه السياق : أى فضرب فانجست .

في البقرة : (فأزلهما الشيطان) (٣) .

وفي الأعراف : (فوسوس لهما الشيطان) (٤) .

في آل عمران : (قالت : رب أنى يكون لى ولد) (٥)

وفي مريم (قالت أنى يكون لى غلام) (٦) . لأنه تقدم ذكره فى قوله تعالى : (لأهب لك غلاماً زكياً) (٧) .

فى النساء : (إن تبدوا خيراً أو تخفوه) (٨)

وفي الأحزاب : (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه) (٩)

وفي الأنعام : (يخرج الحمى من الميت ويخرج الميت من الحمى) (١٠) والثانى : (يخرج) بالفعل المضارع .

(١) سورة الأعراف : آية ١٦٠

(٢) للقاموس واللسان : مادة (فجر) و (يجس)

(٣) سورة البقرة : آية ٣٦ (٤) سورة الأعراف : آية ٢٠

(٥) سورة آل عمران : آية ٤٧ (٦) سورة مريم : آية ٢٠

(٧) سورة مريم : آية ١٩ (٨) سورة النساء : آية ١٤٩

(٩) سورة الأحزاب : آية ٥٤ (١٠) سورة الأنعام : آية ٥٣

- وفي الكهف : (ولئن رددت إلى ربي) (١)
 وفي حم : (لئن رجعت) (٢)
 وفي طه : (فلما أتاهما نودى ياموسى) (٣)
 وفي النمل : (فلما جاءها نودى ياموسى) (٤)
 وفي طه : (وسلك لكم فيها سبلا) (٥)
 وفي الزخرف : (وجعل لكم فيها سبلا) (٦)
 وفي الأنبياء : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم) (٧)
 وفي الشعراء : (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن) (٨)
 وفي النمل : (ويوم ينفخ في الصور ففزع) (٩)
 وفي الزمر : (وتنفخ في الصور فصعق) (١٠)

والآية الأولى : ففزع من في السماوات والأرض أى خافوا وانزعجوا
 لشدة ما سمعوا . وقيل المراد بالفزع هنا الإسراع والإجابة إلى النداء ، من
 قولهم فزعت إليك فى كذا إذا أسرع إلى إجابتك (١١) . وإنما عبر بالماضى
 مع كونه معطوفا على مضارع للدلالة على تحقيق الوقوع حسبما ذكره علماء
 البيان . والآية الثانية : (فصعق من فى السماوات والأرض) معنى صعق زالت

- | | |
|---------------------------|--------------------------|
| (١) سورة الكهف : آية ٣٦ | (٢) سورة فصلت : آية ٥٠ |
| (٣) سورة طه : آية ١١ | (٤) سورة النمل : آية ٨ |
| (٥) سورة طه : آية ٥٣ | (٦) سورة الزخرف : آية ١٠ |
| (٧) سورة الأنبياء : آية ٢ | (٨) سورة الشعراء : آية ٥ |
| (٩) سورة النمل : آية ٨٧ | (١٠) سورة الزمر : آية ٦٨ |

(١١) الشوكانى : فتح القدير ، ج ٤ ، ص ١٤٩

عقولهم فخرروا مغشياً عليهم ، وقيل ماتوا من شدة الضوت والقرع .
في الأحزاب : (سنة الله في الذين خلوا من قبل) (١) موضعان في الأحزاب .
وفي سورة غافر : (سنة الله التي قد خلت) (٢) .
في المائدة : (قل هل أنبئكم) (٣) ، وبالنون في الكهف : (قل هل
ننبئكم) (٤)
في الأنعام : (لعلهم يضرعون) (٥) ، وفي الأعراف : (لعلهم
يضرعون) (٦) .

يتبين لنا مما سبق أن القرآن الكريم بلجاً في كثير من الأحيان إلى طريقة
الإبدال في الكلمات والحروف لأسرار عظيمة بما يكون معه الترادف في المعنى
أو التأثير في النفس وردعها عن الإعراض والإباء ، أو لأجل زيادة التقدير
والإيضاح ، وكثيراً ما يتصل الإبدال بمناسبة السياق القرآني في عرض
الآيات وذكر الأحداث التي تشتمل عليها ، أضف إلى ذلك ما يترتب عليه من
سائر وجوه البيان ودلالاتها على الإعجاز الخالد لأسلوب القرآن .

-
- | | |
|----------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الأحزاب : ٣٨ ، ٦٢ | (٢) سورة غافر : آية ٨٥ |
| (٣) سورة المائدة : آية ٦٠ | (٤) سورة الكهف : آية ١٠٣ |
| (٥) سورة الأنعام : آية ٤٢ | (٦) سورة الأعراف : آية ٩٤ |

أسرار لغوية في التركيب

في بيان الفرق في الخطاب بالاسم والفعل :

من خلال الوقوف على فروق الخبر وبيان أوجه الخطاب في قصص القرآن الكريم أدركت ما تتميز به التراكيب من أسرار لغوية ذات أثر كبير في المعنى ، فالفعل بطبيعته يدل على التجدد والحدوث ، على عكس الاسم الذي كثيراً ما يدل على الثبوت والاستقرار ، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر من ذلك قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف :

(وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد) فكلمة (باسط) اسم فاعل وفيها إشعار بثبوت للصفة واستقرارها . ولو قيل « يبسط » لم يؤد الغرض ، لأنه لم يؤذن بمزاولة الكلب للبسط ، وأنه يتجدد له بصورة مطردة .

وشبه به قوله تعالى : (هل من خالق غير الله يرزقكم) ، لو قيل : (رازقكم) لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئاً بعد شيء ، ولهذا جاءت الحال في صورة المضارع لدلالته على التجدد والحدوث ، مع أن العامل الذي يفيد ماضى نحو : جاء زيد يضرب .

وقال في قصة يوسف : (وجاءوا أباهم عشاء يبكون (١) فقد أراد أن يبين صورة مام عليه وقت الحجيء من أخذهم في البكاء ، وتجديدهم له شيئاً بعد شيء ، وهذا هو سر الإعراض عن اسم الفاعل والمفعول إلى صريح الفعل وقال في قصة إبراهيم عليه السلام : (الذي خلقني فهو يهدين) (٢) . أتى

(١) سورة يوسف : آية ١٦ (٢) سورة الأعراف : آية ٢٠١

بالماضى فى « خلق » لأن خلقه مفروغ منه ، وأتى بالفاء دون الواو لأنه كالجواب ، فأنه قادر على أن يصيره ذا هدى ، وهو للحصر ، لأنهم كانوا لا يفرقون بين المطعم والساقى ، ويعملون أنها من مكان واحد ، وإن كانوا يعملون أنه من إله . وأتى « بهو » لرفع ذلك ، ودخلت الفاء فى (فهو يشفين) لأنه جواب ، ولم يقل : (إذا مرضت هو يشفين) إذ يفوت ما هو موضوع لإفادة التعقيب ، ويذهب الضمير المعطى معنى الحصر ، ولم يكونوا منكرين الموت من الله ، وإنما أنكروا البعث ، فدخلت « ثم » لتراخى ما بين الإماتة والإحياء (١) .

وخطب القرآن المشركين بقوله :

(أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) (٢) لأن الفعل الماضى يمثل هذا الحكم دائماً ووقتا دون وقت ، فلما قال : (أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) أى سكونكم عنهم أبدأ ودعاؤكم إليهم واحد ، لأن « صامتون » فيه مراعاة للفواصل فهو أفصح وللتمكن من تطريفه بحرف المد واللين ، وهو للطبع أنسب من صمتهم وصلا ووفقاً .

فى الحوار بين إبراهيم عليه السلام والكفار ، قال على السنة الكفار رداً على إبراهيم :

(أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) ، ولم يقل « أَمْ لَعِبْتَ » ، لأن الفعل لا يعطى المعنى الظاهر الذى دل عليه قوله : (أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) وإنما يكون

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، ١٩٥٩

(٢) سورة الأعراف : آية ١٩٣

ذلك أحد رجلين ، إما محق وإما مستمر على هوا الصبا وغى الشباب ، فيكون اللعب من شأنه حتى يصدر عنه مثل ذلك ، ولو قال : « أم لعبت » لم يعط هذا .

ومضمر الفعل كظهره في إفادة الحدوث ، ومن هذه القاعدة قالوا : إن سلام الخليل عليه السلام أبلغ من سلام الملائكة حيث قال : (قالوا سلاما قال سلام) (١) فإن نصب (سلاما) إنما يكون على إرادة الفعل ، أى سلمنا سلاما وهذه العبارة مؤذنة بحدوث التسليم منهم ، إذ الفعل تأخر عن وجود الفاعل ، بخلاف سلام إبراهيم ، فإنه مرتفع بالابتداء ، فاقتضى الثبوت على الإطلاق ، وهو أولى بما يعرض له الثبوت ، فكأنه قصد أن يحبيهم بأحسن مما حيوه به ، اقتداء بقوله تعالى :

(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) (٢) .

فالاسم يدل على الثبوت ، والفعل على التجدد والحدوث ، وهو المشهور عند البيانين .

قال ابن المنير : طريقة العرب تدييج الكلام وتلويحه ومجيء الفعلية تارة ، والاسمية أخرى ، من غير تكلف لما ذكره ، وقد رأينا الجملة الفعلية تصدر من الأقوياء الخالص ، اعتماداً على أن المقصود الحاصل بدون التأكد ، كقوله تعالى :

(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول) (٣) ، ولا شيء بعد (آمن الرسول) (٤)

وقد جاء التأكيد في كلام المنافقين فقال : (إنما نحن مصلحون) (٥) وذلك

في صيغة أسلوب القصر

(٢) سورة النساء : آية ٨٦

(١) سورة هود : آية ٦٩

(٤) سورة البقرة : آية ٢٨٥

(٣) سورة آل عمران : آية ٥٣

(٥) سورة البقرة : آية ١١

التأديب في الخطاب بإضافة التحير الى الله :

قال تعالى في قصة يوسف :

(فصرف عنه كيدهن) (١) فأضافه إلى نفسه ، حيث صرفه ، ولما ذكر السجن أضافه إليهم فقال : (ليسجننني حتى حين) وإن كان سبحانه هو الذي سبب السجن له لحكمة جليلة تؤهله لمعالي الأمور ، وأضاف ما منه الرحمة إليه حين أبعد عنه مكروم وجنبه شرهم ، وكلمة (ليسجننني) فيها معنى الشدة وقد أضافها إليهم .

ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : (وإذا مرضت فهو يشفين) ولم يقل : (أمرضني) تأديباً في الخطاب مع الله تعالى وإن كان كل شيء من عنده سبحانه — ولا يخفى علينا أنه أضاف الشفاء إلى الله تعالى وهو الذي يتسبب فيه دائماً ، وناسب ذلك أن يأتي بصيغة المضارع الذي يعبر عن التجدد والحدوث كما سبق أن أشرت إليه .

ولنتأمل ما ذكرته سورة الكهف بصدد الحديث عن الأمور العجيبة التي جرت على يد الخضر عليه السلام في صحبة نبي الله موسى عليه السلام الذي أصابه العجب الشديد ، حيث قال سبحانه على إمابة السفينة على لسان الخضر عليه السلام (فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) فنسب الخضر العيب الى نفسه ولم ينسبه إلى الله لأنه تسبب في حدوثه ، وإن كان قد هال لذلك الفعل في نفس السياق بقوله : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) أي قهراً وظلماً .

وقال في الغلام :

(١) سورة يوسف . آية ٣٤ ، ٣٥

(وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغيانا وكفرا) فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه . . . (١) . والإرادة في الآية الكريمة إذا كانت في ظاهرها منسوبة إلى الخضر عليه السلام ، غير أنها في الحقيقة من الله تعالى ويعبر عنها بالقضاء الذي قضاء الله وجعل له الأسباب من عنده سبحانه ، ودليل ذلك أنه — أى فعل الإرادة — أتى بصيغة الجمع فقال: (فأردنا) وكان المعنى: فأراد ربك أن يبدلها خيراً منه زكاة وأقرب رجاء) وذلك بعد أن توجه الخضر عليه السلام بالدعاء إلى ربه أن يجعله كذلك.

وشبهه بذلك ماورد في نفس السياق بشأن إقامة الجدار في قوله تعالى :
(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة . وكان تحته كنز لهما فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) (٢) . وقد قال : (فأراد ربك) فأضاف الخير إلى الله تعالى فعبر بذلك عن محض فضله وجزيل نعمته للغلامين اليتيمين ، ولم يقل (فأردت) حتى لا يظن أن الإرادة منسوبة إلى الخضر عليه السلام .

قال الشيخ صفى الدين بن أبى منصور في كتاب : (فك الأضرار عن عنق الأمرار) : (لما أراد ذكر العيب للسفينة نسبة لنفسه أدبا مع الربوية ، فقال : «فأردت» ولما كان قتل الغلام مشترك الحكم بين المحمود والمذموم ، استتبع نفسه مع الحق ، فقال في الإخبار بنون الاستتباع ، ليكون المحمود من الفعل — وهو راحة أبويه المؤمنين من كفره — مائداً على الحق سبحانه ، والمذموم ظاهراً — وهو قتل الغلام بغير حق — مائداً عليه) (٣) .

(١) سورة الكهف : ٨٠ ، ٨١ (٢) سورة الكهف : آية ٨٢

(٣) المزر كشي: البرهان في علوم القرآن : ج ٤ ، ص ٦٠ .

وفي إمامة الجدار — كما ذكرت — كان خيرا محضا ، فنسبه للحق فقال :
(فأراد ربك) ثم بين أن الجميع من حيث العلم النوحى يدى من الحق بقوله :
(وما فعلته عن أمري) (١) .

وقال ابن عطية : إنما أفرد أولا في الإرادة لأنها لفظ غيب ، وتأدب بأن
لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله :
(وإذا مرضت فهو يشفين) فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله ، وأسند المرض
إلى نفسه ، إذ هو معنى نقص ومعاية ، وليس من جنس النعم المتقدمة (٢) .

وهذا النوع مطرد في فصاحة القرآن كثيرا ، وقد رأينا القرآن يقدم فعل
البشر في قوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٣) ، فالزبغ بدأ من جانبهم ،
ومعناه الضلال واتباع الهوى ، والميل عن الحق نحو الباطل ، وكأن الله تعالى
يجازيهم تبعا لأعمالهم ، وفي هذا يتحقق مبدأ الإنصاف الذى لا يشوبه شىء
من الظلم .

وإنما قال الخضر في الثانية (فأردنا) لأنه قصد نفسه وأصحابه
الصالحون ، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين ، وتمنى التبديل لهما ، وإنما
أسند الإرادة في الثانية إلى الله تعالى لأنها أمر مستأنف في الزمن الطويل ،
غيب من الغيوب فحسن أفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى . ومثل ذلك قوله
تعالى في قصة الجن المؤمنين :

(وأنا لاندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) (٤) ،

(١) سورة الكهف : آية ٨٢

(٢) الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٦٠ .

(٣) سورة الصف : آية ٥ (٤) سورة الجن : آية ١٠

فخفف الفاعل في إرادة الشر نادبا مع الله تعالى وصيغ الفعل على البناء للمجهول
وأضافوا إرادة الرشد إليه .

وقريب من هذا قوله تعالى حاكيا عن يوسف عليه السلام ، في خطابه لله
اجتمع أبوه وإخوته :

(إذ أخرجني من السجن) (١) . ولم يقل من « الجب » مع أن الخروج
منه أعظم من الخروج من السجن . وإنما آثر ذكر السجن لوجهين ذكرهما
ابن عطية في تفسيره : أحدهما : أن في ذكر الجب تجديد فعل إخوته وتقربهم
بذلك ، وتجديد تلك الغوائل . والثاني : أنه خرج من الجب الى الرق ، ومن
السجن إلى الملك ، والنعمة هنا أوضح (٢) .

وأهضا : ولأن بين الحالين بونا من ثلاثة أوجه : قصر المدة في الجب
وطولها في السجن ، وأن الجب كان في حال صغره ، ولا يعقل فيها المصيبة ،
ولا تؤثر في النفس كتأثيرها في حالة الكبير . والثالث : أن أمر الجب كان
بغيا وظلما لأجل الحسد ، وأمر السجن كان لعقوبة أمر ديني وهو منزعه عنه ،
وكان أمكن في نفسه ، والله أعلم بمراده (٣) .

وقال السهيلي في كتاب : « الأعلام » في قوله تعالى حكاية عن موسى
عليه السلام :

(ونادينه من جانب الطور الايمن) (٤) ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم

(١) سورة يوسف: آية ١٠٠

(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٣) نفس المرجع السابق (٤) سورة مريم: آية ٥٢

(١) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر (١). والمكان المشار إليه واحد، قال: ووجه الفرق بين الخطابين أن الابن إما مشتق من اليمن، وهو البركة، أو مشارك له في المادة، فلما حكاه عن موسى في سياق الإثبات أتى بلفظه، ولما خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم في سياق النفي عدل إلى لفظ الغربي، لئلا يخاطبه، فيسلب عنه فيه لفظا مشتقا من اليمن أو مشاركا في المادة وفقا بهم في الخطاب، وإكراما لهم، هذا حاصل ما ذكره بمعناه موضح، وهو أصل عظيم في الأدب بالخطاب (٢).

وقال سبحانه عن يونس عليه السلام:

(وذا النون إذ ذهب مغاضبا) (٣). أضافه هنا إلى « النون » وهو الحوت، ولعلها إضافة تشريف وتعظيم. وقال في سورة القلم:

(ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى ربه وهو مكظوم) (٤) وسماه هنا أي في سورة الأنبياء « ذا النون » والمعنى واحد، ولكن بين اللفظين تفاوت كبير في حسن الإشارة إلى الحالين، وتزليل الكلام في الموضعين، فإنه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال: (ذا النون) ولم يقل: (صاحب الحوت) ولفظ النون أثرف لوجود هذا الاسم في حروف الهجاء، في أوائل السور نحو:

(ن. والقلم وما يسطرون)، هذا بالإضافة إلى ما يشتمل عليه هذا الحرف من أسرار باهرة في علم الله تعالى.

(سورة القصص: آية ٤٤ .

(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٦٣ .

(٣) سورة الأنبياء: آية ٨٧ (٤) سورة ن: آية ٤٨

قال السهيلي : ولقد قيل إن هذا قسم بالنون والقلم ، وإن لم يكن قسمًا ، فقد عظمه بعطف المقسم عليه ، وهو القلم ، وهذا الاشتراك يشرف هذا الاسم ، وليس في الاسم ، وليس في اللفظ الآخر وهو الحوت ما يشرفه (١) . ثم قال : فالتفت إلى تنزيل الكلام في الآيتين يلح لك ما أشرت إليه في هذا ، فإن التدبير لإعجاز القرآن واجب مفترض (٢) .

ومن صور الأدب في الخطاب الأخرى قوله تعالى في قصة سليمان :

(سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) (٣) في توجيه سليمان عليه السلام الخطاب إلى الهدد ، وقد خاطبه بمقدمة الصدق مواجهة ، ولم يقدم للكذب ، لأنه متى أمكن حمل الخبر على الصدق لا يعدل عنه ، فقدم الصدق ، ثم لم يواجهه بالكذب مباشرة بذكر « الفعل » أى لم يصرح بلفظ التكذيب فيقول مثلاً : (أم كذبت) ، بل أدججه في جملة الكاذبين ، أدبا في الخطاب ، وهو من خصائص الأسلوب القصصى القرآنى .

ومثله في قصة يوسف عليه السلام :

(إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) (٤) فلم يسند إليه الكذب مباشرة أدبا في الخطاب ، وأسند الكذب إليها لأنه حقيقة . وكذا قوله تعالى عن مؤمن آل فرعون :

(وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) .

(١) الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٢) السابق نفسه . (٣) سورة النمل : آية ٢٧ .

(٤) سورة يوسف : ٢٦ ، ٢٧ .

حول السؤال والجواب في قصص القرآن :

الأصل في الجواب أن يكون مطابقا للسؤال ، إذا كان السؤال متوجها ، وقد يعدل في الجواب عما يقتضيه السؤال ، تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك ، ويسميه البلاغيون « الأسلوب الحكيم » . وقد يجيء الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه في السؤال وأغفله المتكلم ، وقد يجيء أنقص لضرورة الحال .

وتظهر بلاغة القرآن بالنسبة للسؤال في قصة موسى عليه السلام ، في قوله تعالى :

(وما تلك يمينك يا موسى) (١) فيكون طابق وزاد في الجواب :
(قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى)
فإنه عليه السلام فهم أن السؤال يتبعه أمر عظيم يحدثه الله في العصا ، فينبغي أن ينبه لصفاتها ، حتى يظهر له التفاوت بين الحالين .

ومن ذلك أجوبة موسى عليه السلام لفرعون حيث قال فرعون :

(وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما) (٢) لأن ما سؤال عن الماهية أو عن الجنس ، ولما كان هذا السؤال خطأ ، لأن المستؤل عنه ليس ترى ماهيته فتبين ، ولا جنس له فيذكر ، عدم الكلام عن مقصود السائل إلى الجواب بما يعرف الصواب عند كيفية الخطأ ، ولا يستحق الجريان معه ، فأجابه بالوصف المنبه عن الظن المؤدى لمعرفته ونوه على ما يدل على عظمة الخالق جل وعلا ، وفيه تجهيل لفرعون وتشنيع لسؤاله القاسم السفه وخفة العقل وعدم سداد الرأي .

(١) سورة طه : آية ١٧ . (٢) سورة الشعراء : ٢٣ ، ٢٤ .

(قال لمن حوله ألا تستمعون) (١). فأجابه الحكيم موسى عليه السلام بجواب يعم الجميع ، ويتضمن الإبطال لعين ما يعتقدونه من ربوبية فرعون لهم بقوله : (ربكم ورب آبائكم الأولين) فأجاب بالأغلظ ، وهو ذكر الربوبية لكل ما هو من عالمهم نصاً . ولما لم يرم موسى عليه السلام تظنونا غلظ عليهم في الثالثة بقوله :

(إن كنتم تعقاون) (٢) فكأنه شك في حصول عقولهم ، ويحمل على التعجب من حالهم والإنكار عليهم .

وقد يعدل عن الجواب إذا كان السائل قصده التعنت ، كقوله تعالى حكاية عن الكفار في سؤالهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح على سبيل التعجيز والتعنت :

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) (٣) . فذكر صاحب الإيضاح في خلق الانسان أن اليهود إنما سألوا تعجيزاً وتقليظاً ، إذا كان الروح يقال بالاشتراك على روح الإنسان وجبريل وملاك آخر ، يقال له الروح وصنف من المسائكة والقرآن وهيمى ، فقصد اليهود أن يسألوه ، فجاءهم الجواب مجملًا ، فكان هذا الإجمال كيذا يرسل به كيدهم .

ومثال الزيادة في الجواب ، قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : (ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناما فنظال لها ما كفنين) وحسنه إظهار الابتهاج بعبادتها والاستمرار على مواظبتها ، ليزداد غيظ السائل .

(٢) سورة الشعراء : ٢٦ ، ٢٨

(١) سورة الشعراء : ٢٣ ، ٢٤

(٣) سورة الاسراء : آية ٨٥

وقد قيل في هذا : أصل الجواب أن يعاد في نفس سؤال السائل ، ليكون
وفق السائل ، قال الله تعالى في قصة يوسف :

(أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف) (١)

و « أنا » في جوابه عليه السلام هو « أنت » في سؤالهم .

وقد يحذف السؤال ثقة بفهم السامع بتقديره ، كقوله تعالى :

(قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم

يعيده) (٢) .

فإنه لا يستقيم أن يكون السؤال والجواب من واحد ، فتعين أن يكون

(قل الله) جواب سؤال ، كأنهم سألوا لما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وهو : (من يبدأ الخلق ثم يعيده) فأجابهم الله عز وجل :

(قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) فترك ذكر السؤال ، ونظيره قوله تعالى :

(قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق) (٣) .

وذكر في قصة إبراهيم عليه السلام :

(أأنت فعلت هذا بألھتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا) (٤) . فإن

للسؤال وقع عن الفاعل ، لا عن الفعل ، ومع ذلك صدر الجواب بالفعل مع

أنهم لم يستفهموه عن كسر الأصنام ، بل كان عن الشخص الكاسر لها .

والجواب أن ما بعد « بل » ليس بجواب لهمة الاستفهام أي جملة (فعله

كبيرهم هذا) لأن جواب الهمزة يكون بنعم أو بلى ، وعلى هذا تكون الجملة

بعد « بل » خبرية مستأنفة ، وسياق الكلام يدل على الجواب المحقق المقدر

ولو صرح به لقال : (ما فعلته بل فعله كبيرهم) .

(١) سورة يوسف : آية ٩٠

(٢) سورة يونس : ٣٤

(٣) سورة يونس : آية ٣٥

(٤) سورة الأنبياء : ٦٢

وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني أن السؤال إذا كان ملفوظاً به ، فالأكثر تحرك الفعل في الجواب والاقتصار على الاسم وحده ، وإن كان مضمرأ ، فوجب التصريح بالفعل لضعف الدلالة عليه ، فتعين أن يلفظ به ، وهو مشكل بقوله تعالى :

(يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) (١) فيمن قرأها بفتح الباء ، كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : يسبحه رجال . ونظيره ضرب زيد وعمرو ، على بناء ضرب للمفعول ، كأنه قيل : من ضرب زيدا وعمرا ، نعم الأولى ذكر الفعل لما ذكر ، وعليه يخرج كل ما ورد في القرآن من لفظ « قال » مفصلاً ، غير منطوق به ، نحو قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام :

(هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام) (٢) كأنه قيل : فما قال لهم ؟ (قال ألا تأكلون) ولذلك قالوا : (لا تخف) .

وطى هذه السياقة تخرج قصة موسى عليه السلام في قوله :

(قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض) إلى قوله : (إن كنت من الصادقين) (٣) .

ويسير على نفس النسق كل كلام جاءت فيه لفظة « قال » هذا المجيء ، غير أنه يكون في بعض المواضع ، أوضح ، كقوله تعالى :

(إنا أرسلنا إلى قوم) (٤) ، فانه لا يخفى أنه جواب لقوله : (فما خطبكم أيها المرسلون ؟) وقد ورد هذا السؤال على لسان إبراهيم عليه السلام

(١) سورة النور : ٣٦ ، ٣٧ (٢) سورة الذريات : ٢٤ ، ٢٥

(٣) سورة الشعراء : ٢٣ — ٣١ (٤) سورة الذريات : آية ٣٢

ومثله فى قصة أصحاب القرية :

(واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) إلى قوله تعالى :
(اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) (١) .

وهكذا يتجلى التركيب اللغوى فى صوره المتعددة لقصص القرآن الكريم
وتتكشف أمام القارئ تلك الأسرار اللغوية الباهرة التى تحقق صورة الإعجاز
البيانى للقرآن ، وتمنح قصصه خصائص لغوية وبيانية جليلة ، وتدعو إلى
مواصله البحث والدرس من غير فتور ولا تراخ لتتكشف للباحث البصير
مزايا أخرى ووجوه متعددة .

ولعلنى أكون قد وفقت إلى إحراز جانب من تلك الغايات المنشودة حول
استجلاء بعض الأسرار اللغوية لقصص القرآن الكريم من خلال هذا البحث
اللغوى فى صورته المتواضعة .

خاتمة الكتاب

تشتمل هذه الخاتمة على النتائج الهامة التي توصلت إليها بصدد موضوع البحث:
« الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية » وأهم هذه النتائج :

(١) الرواية العربية القديمة من أضعف فروع الأدب العربي القديم ، ومن ثم لم يلق هذا اللون من الروايات التمثيلية رواجاً كبيراً في البيئة القديمة نظراً لعدم استقرار الحياة السياسية وكثرة القلاقل والاضطرابات ، كما أن التمثيل بطبيعته كان يتطلب ظهور المرأة على المسرح - كما كان عند اليونان - وذلك لم يكن مألوفاً لدى العرب القدماء ، والعربي كان شديد الاعتزاز بنفسه فأنصرف عن هذا اللون من الإغراق في الوهم والخيال وآثر أن يعيش في واقع .

(٢) امتزج الأسلوب القصصي عند العرب بكثير مما نقلوه عن الأمم الأخرى كالفرس والهند واليونان ، وغلب على هذه القصص أن تتجه إلى العاطفة وتخطب الشعور والوجدان على عكس القصص القرآني الذي تنصب أحداثه في قوالب الواقع وتنفذ إلى أعماق الجوانب الإنسانية . والأسلوب العربي الفصيح الذي كتبت به قصص العرب القديمة يدل على أنها كتبت في العصر الأول قبل أن يحدث الامتزاج بالأمم الأخرى ، فبرز الأسلوب العربي الفصيح خالياً من شوائب العجمة ، وحين حدث الامتزاج بدا ركيكاً مبتذلاً بعض الشيء نتيجة النقل عن الأمم الأخرى .

(٣) الأساطير الشعبية لاقت رواجاً كبيراً بين عامة الجماهير لما كانت تتميز به من وضوح ، الفكرة وسهولة الألفاظ ، واعتبرت من وسائل التنسيلية التي كانت محدودة للغاية في تلك العصور فوجدوا لهم متنفساً من هذه

الأساطير ، كما أن ندرة التعليم كان من أهم ازدهارها في أوساط العامة ، فاتخذوا من القصة مجالا لعرض نصائحهم وبسط تجاربهم كما هو الحال في بعض أوساط الريف .

(٤) تخضع القصة الأدبية لعدد من المقومات الهامة مثل دقة الأسلوب وجودة السبك وإحكام دور الشخصيات ورسمها في الإطّار الذي تعمل فيه وأن يكون للقصة معنى ووحدة فنية وبراىى فيها جانب التلميح دون التصريح ويتضح فيها عنصر التشويق من أجل حث القارى على متابعة الأحداث ، إلى جانب البعد عن المغالاة في التعبيرات البلاغية والخيالية حتى لا تبلغ الصنعة اللقظية مبلغاً أكثر من المعنى وغيرها من المقومات .

(٥) هناك اختلاف جوهري في طريقة العرض والأسلوب والمضمون في قصص الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) عنها في قصص القرآن الكريم ، فكثيراً ما تظهر المبالغات والمزايدات في ذكر الخوارق والعجائب في قصص الكتاب المقدس ويتضح معه الإسهاب في العرض والتفصيل مما يؤثر على الأسلوب ذاته فيصير ركيكاً بعض الشيء . ، ويحدث معه الخلل بين العبارات ، وعدم تناسق الفواصل ، بخلاف قصص القرآن الكريم التي تنسم بالإيجاز الشديد بما يعطى المعنى للصائب البعيد عن المبالغة والخيال ، كما أنها تدور في نطاق الحقيقة المطلقة التي يخضع لها العقل الانسانى . وكثيراً ما تغفل القصة القرآنية التصريح بذكر الشخصيات ، زيادة في الإيجاز ، فاشخصية ليست مقصودة لذاتها كما هو الحال في قصص الكتاب المقدس التي تسلط الأضواء على الشخصية لغرض إبرازها والتنبؤ به عليها .

(٦) لغة القصة في الأناجيل تتميز بالبسط والإيضاح وترسيخ ما تهدف

إليه في ذهن السامع، كما تنسم بالميل إلى الخيال واستخدام بعض الأساليب البديعة للتأثير، ولـكنها في القرآن الكريم تمتاز بالتركيز والإيجاز والإشارة الحافظة من غير إغراق في الخيال، فهي في الأناجيل تهدف إلى التأثير عن طريق الإطار والشكل، وفي القرآن تهدف إلى التأثير عن طريق المضمون. والسياق الذي تجرى فيه الأحداث — في القصة الانجيلية — تكاد عباراته أن تنشت وينفصل بعضها عن بعض فيفقد الأسلوب القصصي معنى الوحدة العضوية التي هي أساس التركيب، كما هو ملاحظ في قصص القرآن من دقة الأسلوب وجزالة الألفاظ وتلاؤم الفواصل وانسجام الحروف والكلمات وتسلسل الأفكار.

(٧) تهدف القصة القرآنية إلى تحقيق عدد من الأغراض السامية كإثبات الوحدةانية لله تعالى، والتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء شرفه وشرف أمته، والتأديب والعهدب لهذه الأمة بالتنويه على عواقب الصلاح والفساد وإحياء ذكرى الماضين وآثارهم إلى غير ذلك من الأغراض الجليلة التي ذكرت في مواضعها. وليست القصة القرآنية عملاً فنياً مجرداً مقصوداً لذاته ولكنها لون رفيع متميز من ألوان البيان القرآني يخضع لمقومات خاصة ولذلك فهي تشتمل على معظم خصائص البيان القرآني ومقوماته.

(٨) من الخصائص البانية القصة القرآنية الاستئناس بذكر الكلمة الأجنبية في القصة، ليصور للقارئ البيئة والمجتمع واللغة وينقله إلى مجرى الأحداث زمانياً ومكانياً، وقد وقفت على هذه الألفاظ وأهمها: هيت لك، منسأته، أوبى معه، كنز، اليم، التنور، سيدها، سرياً، القسطاس، الرقيم.

(٩) وقع التكرار في كثير من قصص القرآن الكريم، ويرجع

ذلك إلى تميز الأسلوب القصصى القرآنى بجودة الفصاحة والبيان والعباغة الباهرة للالفاظ المتقاة فى دقة وإحكام ، والنكرار من شأنه تثبيت الحجة وترسيخ الغرض المنشود ، وعرض القصة الواحدة فى أنماط متعددة من النظم القرآنى بين الإطناب والإيجاز والبسط والقبض من أعظم وجوه الإعجاز وأدلهـا عليه ، وقد اختصت قصص بنى إسرائيل بأنها أشد القصص تكررا لما فى ذلك من تعديد النعم عليهم ، وما من الله على أسلافهم من الكرامة والفضل وإخبار الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بتقديم كفرهم وخلافهم وتعنتهم على الأنبياء وتحذير أهل الكتاب الموجودين زمن النبى صلى الله عليه وسلم من نزول العذاب بهم كما نزل بأسلافهم . أما قصة يوسف عليه السلام فقد سقت مساقا واحداً من غير تكرار وانفردت بنفسها فى سورة واحدة ، لما فى هذه القصة من إظهار لكيد النساء وتشبيهن يوسف عليه السلام ، فناسب ذلك حصول الإغضاء والستر دون البيان والافصاح مع التكرار ، ولما فيها من بيان لعواقب الصبر وحصول الفرج بعد الشدة بخلاف غيرها من القصص التى مآلها الوبال والتبدد كقصة إبليس وقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

(١٠) الجمل الدعائية التى اشتمل عليها القرآن الكريم تكاد تنحصر فى فى قصصه وحدها ، وهذا ما يبينته من خلال دراسة القصة القرآنية التى تساق فيها الجمل الدعائية بصورة ملحوظة على ألسنة الأنبياء والمرسلين ، وكثيرا ما يحذف حرف النداء إذا كانت مسبقة بتركيب ندائية لما فى ذلك تعظيم جلال الله والثناء عليه والإشعار بأنه أقرب اليهم من كل شىء .

(١١) التراكيب الندائية كثيرا ما يعقبها الجمل الخبرية المثبتة المؤكدة قبل التصريح بالصيغة الدعائية ، وهو ما جرى بكثرة على ألسنة الأنبياء والمرسلين ، نحو قوله تعالى على لسان موسى : (قال رب إني ظلمت نفسى فاغفر لى) وطى

لسان نوح : (قال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أرحم
الراحمين) وقول زكريا : (قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا) ،
والجمل الخيرية المؤكدة المثبتة تعنى الخضوع التسام والانقياد للحق جل وعلا
وتشير إلى التذلل والانكسار بين يدي الله وهي من الشروط الممهدة للدعاء
والمتضمنة لآدابه ، وقد ذكرت بالتفصيل في موضعه . وهناك تراكيب ندائية
يعقبها صيغة الأمر مباشرة وقد ذكرت على لسان الحق جل وعلا في توجيه
أنبيائه ورسله ، وقد يذكر النداء على إرادة القول نحو : (يا إبراهيم أعرض
عن هذا) أي قالت له الملائكة ذلك الكلام .

(١٢) وقعت في قصص القرآن الكريم تراكيب عديدة مجردة من النداء
في صيغة الأمر ، أي يذكر فيها الفعل مباشرة وتتنوع أغراض الأمر في هذا
تبعاً لمضمون القصة ذاته والسياق الذي تجرى فيه الأحداث ، ووسيلة الأنبياء
هنا واحدة تقوم على التحدى وإظهار الحجة الباهرة وكثيراً ما تتمزج بالنصيحة
الحضرة ، وترد الصيغة الطلبية من جانب أقوامهم على عكس ذلك فيغلب عليهم
التهم واللوم والتقريع إلى غير ذلك .

(١٣) من الملاحظات الجديرة بالذكر وقوع أن المفسرة في صدر الجملة
الطلبية الدالة على الأمر وكثيراً ما يكون ذلك عقب النداء أو مافي معناه نحو
قوله تعالى : (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين) « الشعراء ١٠ »
حيث عبر عن النداء بطريق المعنى في صيغة الفعل الماضي وأتبعه بأن المفسرة
التي هي بيان لهذا النداء ، ومثله أيضاً : (ماقلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا
الله ربي وربكم) « المائدة ١١٧ » . وهكذا تأتي أن المفسرة في صدر الجملة
الطلبية لتعليل القول وتبيينه وهو كثير في قصص القرآن .

(١٤) تنوع الأغراض المذكورة في التراكيب الاستفهامية تبعاً لمجرى الأحداث والغالب على هذه التراكيب دخول همزة الاستفهام وبقل استخدام أدوات الاستفهام الأخرى ، والتراكيب المنسوبة للأنبياء تتضمن التعجب والإنكار والتوبيخ وهي من وسائل إقامة الحجة والدليل على صحة ما يذكرونه وكثيراً ما يذكر الاستفهام بعد النداء في قصص الأنبياء ، أما صيغ الاستفهام المنسوبة للمشرّكين فهي تتضمن التهمك والسخرية اللاذعة .

(١٥) كثيراً ما يتبع الصيغة الطلبية (في الأمر والنهي والاستفهام) الجمل الخيرية المؤكدة وغير المؤكدة ، وهذه الجمل تقوم على التعليل لما ذكر في الصيغ الطلبية قبل زيادة في البيان والإيضاح وإمعانا في الغرض الذي يتضمنه السياق القصصى القرآنى . وقد تبينت في هذا الصدد أن التعليل للأمر قد يقع في صورة الجواب وهو كثير في قصص القرآن نحو : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً) « هود ٥٢ » (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً) « هود ٣ » فكلاهما تعليل لقيمة الاستغفار وما يترتب عليه من آثار جليلة فتركزت عليه دعوة الأنبياء ، وقد ذكر في موضعه بشيء التفصيل .

(١٦) النظم في قصص القرآن الكريم مجاله البلاغة النحوية في كثير من الصور التي أشرت إليها كالحذف والتكرار وما يشبهه بالزيادة والنقصان والخروج والاقتصاص وغيرها من الصور والظواهر اللغوية التي توثق الصلة بالدراسة البلاغية . ويكثر الحذف بالنسبة للحروف والكلمات في كثير من قصص القرآن الكريم ، وفي الحذف علة ترتبط بأن الزمان قد يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف وهذا يعنى ضرورة الحذف في بعض المواضع لأن الاشتغال بذكره يحدث الخلل في العبارات ويقضى إلى تفويت الغرض المطلوب ، وقد

تبين أن الحذف يحسن في بعض المواضع لقوة الدلالة عليه وحتى يترك للنفس أن تذهب إلى حقيقة المحذوف الذي يفهم غالبا من خلال السياق القصصى القرآنى .

(١٧) في بيان وجوه الخطاب توصلت إلى خاصية هامة للقصص القرآنى وهي التأديب فى الخطاب بإضافة الخير إلى الله تعالى ، واستشهدت فى ذلك ببعض وجوه الخطاب فى قصة أصحاب أهل الكهف وقصة موسى والخضر وقصة إبراهيم وقصة يوسف ، وتبينت فى هذا الصدد أيضا أن الفعل كثيرا ما يدل على التجدد والحدوث ، والاسم يدل على الاستقرار والثبوت ، وقد ذكر فى موضعه بالتفصيل .

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم وأن يحقق بهذا الكتاب دوام النفع للمسلمين ، فينهلوا من فيض القرآن الكريم ويسبروا أغواره ويفطنوا إلى روائع أسراره ، وأسأله - عز وجل - كثير الثواب وجزيل العطاء .

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » .

« انتهت الخاتمة بحمد الله تعالى ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم » .

المؤلف

المراجع

- ١ — إبراهيم أنيس (الدكتور) :
من أسرار اللغة — ط لجنة البيان العربي .
- ٢ — ابن الأثير (مجد الدين المبارك بن مجد : ت ٦٠٦ هـ) :
النهاية في غريب الحديث والأثر — المطبعة العثمانية بمصر ، ١٣١١ هـ .
- ٣ — أحمد أحمد بدوي (الدكتور) :
من بلاغة القرآن — مكتبة نهضة مصر .
- ٤ — أحمد الحلاوي :
زهر الربيع في المعاني والبيان البديع — مطبعة مصطفى الحلبي
— ١٩٧١ م — القاهرة .
- ٥ — أحمد السكندري ومصطفى العناني :
الوسيط في الأدب العربي وتاريخه — دار المعارف بمصر ١٩٧٧ هـ —
١٩١٩ م
- ٦ — أحمد بن فارس (أبو الحسين أحمد ت ٣٩٠ هـ) :
المصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها — بيروت — لبنان —
١٣٨٢ هـ . ١٩٦٣ .
- ٧ — الأشموني (نور الدين أبو الحسن علي بن مجد) :
شرح الأشموني على ألفية ابن مالك — المطبعة الميمنية ١٣٠٦ م .
- ٨ — ابن أبي الأصبع :
بديع القرآن — مطبعة الرسالة — القاهرة
- ٩ — الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين ت ٢٥٦ هـ) :

الأغاني ، بولاق ، مصر ، ١٢٨٥ هـ — ١٨٦٨

١٠ — الانبارى (عبد الرحمن بن محمد) :

نزهة الألباء فى طبقات الأدباء

١١ — الباقلانى :

إعجاز القرآن — مطبعة محمد طى صبيح — القاهرة ١٩٥٢ م

١٢ — بكري شيخ أمين (الدكتور) :

التعبير الفنى فى القرآن — ط . بيروت — دار الشرق

١٣ — يدبا : (الفيلسوف الهندي) :

كتاب كلية ودمنة — ترجمة عبد الله بن المقفع — المطبعة الأميرية

١٩٣٨ م

١٤ — البيضاوى :

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

١٥ — تمام حسان (الدكتور) :

اللغة العربية : معناها ومبناها — القاهرة ١٩٧٣ م

١٦ — الثعلبى (ابن اسحق أحمد بن محمد ت ٤٢٧ هـ) :

مرائس المجالس فى قصص الأنبياء — مطبعة محمد مصطفى — مصر

١٣٠١ هـ

١٧ — الجاحظ (عمرو بن بخت ٢٥٥ هـ)

البيان والتبيين : القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م

١٨ — جرجى زيدان :

تاريخ آداب اللغة العربية — مطبعة النجالة — ١٩١٢ م

١٩ — الجوالقى (على أبو منصور موهوب بن محمد ت : ٥٤٠ هـ) :

المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم : المطبعة المسيحية في

مدينة لبسيا سنة ١٨٩٧ م

٢٠ — أبو حاتم الرازي (أحمد بن حمدان) :

كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية — المطبعة الثانية —

١٩٥٧ م

٢١ — الحصري (أبو سحوق ت ٤٥٣ هـ) :

زهر الآداب ونهر الألباب — المطبعة الرحمانية — مصر ١٩٢٥ م

٢٢ — حفنى محمد شرف (دكتور) :

إعجاز القرآن البيانى — المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — القاهرة

١٩٧٠ م

٢٣ — أبو حيان التوحيدى (محمد بن يوسف بن على الأندلسى ت ٧٤٥ هـ) :

البحر المحيط — مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ

٢٤ — ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم ت ٦٨١ هـ) :

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — مصر ١٢٧٥ هـ

٢٥ — الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد)

المفردات في غريب القرآن — المطبعة الميمنية ، ١٣٢٤ هـ

٢٦ — الزجاج (أبو إسحق إبراهيم ت ٣١١ هـ) :

معانى القرآن وإعرابه — الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ،

١٩٧٣ م

٢٧ — الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله ت) :

البرهان في علوم القرآن — مطبعة عيسى البابى الحلبي ١٣٧٧ هـ —

١٩٥٨ م

- الزنجشري (محمود بن عمر ت ٥٢٨ هـ) :
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل . مطبعة محمد
مصطفى — القاهرة ، ١٣٠٨ هـ .
- ٢٩ — الزورني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد ت ٤٦٨ هـ) :
شرح المعاني السبع — ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م القاهرة
- ٣٠ — السجستاني (سهل بن محمد بن عثمان ت ٢٥٥ هـ) :
غريب القرآن .
- ٣١ — ابن سعد (محمد) :
الطبقات الكبرى : نشر دار بيروت ودار صادر ١٣٧٦ هـ .
- ٣٢ — سليمان البستاني :
إلياذة هوميروس — مطبعة دار الهلال — مصر ١٩٠٤ م .
- ٣٣ — سيد قطب :
التصوير الفني في القرآن . ط . دار المعارف بمصر .
- ٣٤ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١ هـ) :
الإتقان في علوم القرآن — مطبعة مصطفى البابي الحلبي — مصر
١٣٨٠ هـ — ١٩٥١ م
- ٣٥ — شوقي ضيف (الدكتور) :
الأدب العربي المعاصر في مصر — دار المعارف بمصر .
- ٣٦ — شوقي ضيف (الدكتور) :
البلاغة تطور وتاريخ — دار المعارف بمصر .
- ٣٧ — شهاب الدين أحمد المخفاجي :
شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل — مطبعة السعادة بمصر
١٣٢٥ هـ .

- ٣٨ — الشوكاني (محمد بن علي بن محمد ت ١٢٥٠ هـ) .
فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من التفسير . مطبعة مصطفى
البابي الحلبي بمصر ، ١٤٥٠ هـ .
- ٣٩ — الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت ١٣١٠ هـ) :
جامع البيان عن تأويل آي القرآن — دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ م
- ٤٠ — طنطاوي جوهري :
الجواهر في تفسير القرآن الكريم — مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر
- ٤١ — أبو الطيب اللغوي :
مراتب النحويين — دار المعارف بمصر .
- ٤٢ — عباس خضر :
القصة القصيرة في مصر — ط الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٦ هـ
- ١٩٦٦ م .
- ٤٣ — ابن عبد البر (محمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ) :
العقد الفريد — المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٢٩٣ هـ .
- ٤٤ — عبد القادر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) .
دلائل الإعجاز — مكتبة القاهرة ،
- ٤٥ — عبد الكريم الخطيب :
القصص القرآني في منطوقه ومنهومه — ط . دار الفكر العربي .
- ٤٦ — عبد الكريم الخطيب :
من قضايا القرآن — ط دار الفكر العربي .
- ٤٧ — عبد الطيف حمزة (الدكتور) :
أدب المقالة الصحفية في مصر . ط دار الفكر العربي .

- ٤٨ — عبد المتعال الصعيدي (الدكتور) :
النظم الفنى فى القرآن — مكتبة الآداب .
- ٤٩ — عبد الوهاب النجار :
قصص الأنبياء — مطبعة النصر بالقاهرة .
- ٥٠ — أبو عبيدة (معمر بن المنفى التيمى البصرى ت ٢١٠ هـ) :
مجاز القرآن — الطبعة الأولى ، ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٤ م .
- ٥١ — العكبرى (أبو البقاء : عبد الله بن الحسين بن عبد الله ت ٦١٦ هـ) :
إملأه ما من به الرحمن من وجوه إعراب القرآن — مطبعة عيسى البابى الحلبي .
- ٥٢ — غنيمى هلال (الدكتور) :
المدخل إلى النقد الأدبى الحديث ، مطبعة الرسالة ١٩٥٨ م .
- ٥٣ — فاروق خورشيد :
فن الرواية العربية — القاهرة .
- ٥٤ — فتحى أحمد عامر (الدكتور) :
فكرة النظم بين وجوه إعجاز فى القرآن الكريم — القاهرة ، المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٧٥ م .
- ٥٥ — فخر الدين الرازى :
مفاتيح الغيب المشتمل بالتفسير الكبير — المطبعة الخيرية ، ١٣٠٨ هـ بالقاهرة .
- ٥٦ — الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد ت ٢٠٧ هـ) :
معانى القرآن — الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م .
- ٥٧ — أبو الفرج قدامة بن جعفر : (الكاتب البغدادى ت ٣٣٧ هـ) .
نقد النثر — مطبعة مصر ، ١٩٣٩ م .
- ٥٨ — الفيروز ابادى (مجد الدين مجد يعقوب) :
القاموس المحيط — الطبعة الثانية ١٣٤٤ هـ .
- ٥٩ — الفيومى (أحمد بن محمد بن على المقرئ ت ٧٧٠ هـ) :
المصباح المنير — المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٢٩٤ هـ .

- ٦٠ — ابن قتيبة (محمد بن عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ) :
المعارف — المطبعة الرحمانية — القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .
- ٦١ — القرطبي (أبو عبد الله أحمد الأنصاري ت ٦٣١ هـ) :
الجامع لأحكام القرآن — مطابع الشعب .
- ٦٢ — القفطي (جمال الدين علي بن يوسف ت ٦٤٦ هـ) :
إنباه الرواه غلى أنباء النحاة — ط دار الكتب .
- ٦٣ — ابن كثير (الحافظ ت ٧٧٤ هـ) :
البداية والنهاية — مطبعة السعادة ، ١٣٥١ هـ .
- ٦٤ — ابن كثير :
تفسير القرآن العظيم — مطابع الشعب .
- ٦٥ — الكسائي (محمد بن عبد الله ت ١٨٩ هـ) :
قصص الأنبياء — لندن ١٩٣٢ م .
- ٦٦ — المبرد (محمد بن يزيد ت ٢٨٥ هـ) :
الكامل في اللغة والأدب — المكتبة التجارية ١٩٥١ م .
- ٦٧ — محب الدين أفندي :
شرح شواهد الكشاف — مطبعة محمد مصطفى — القاهرة ، ١٣٠٨ هـ .
- ٦٨ — محمد أحمد خلف الله (الدكتور) :
الفن القصصى فى القرآن — القاهرة ١٩٥١ م .
- ٦٩ — محمد حسين هيكل :
نورة الأدب — مطبعة مصر .
- ٧٠ — محمد فؤاد عبد الباقي :
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطابع الشعب ، ١٣٧٨ هـ .
- ٧١ — محمد كامل حسين :
القرآن والقصة الحديثة — القاهرة .

- ٧٢ — محمود تيمور :
دراسات في القصة والمسرح — مطابع الشعب .
- ٧٣ — المرتضى (علي بن حسين العلوي ت ١٤٣٦ هـ) :
أمالى المرتضى : غرر الفوائد ودرر القلائد — دار الكتاب العربي —
بيروت ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ .
- ٧٤ — المسعودي (أبو علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦ هـ) :
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، باريس ١٨٦١ م .
- ٧٥ — مصطفى صادق الرافعي :
إعجاز القرآن والبلاغة النبوية — مطبعة الاستقامة ، ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م .
- ٧٦ — ابن منظور (محمد بن مكرم) :
لسان العرب : طبعة بيروت ، ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .
- ٧٧ — مهدي الخزومي (الدكتور) :
في النحو العربي : نقد وتوجيه — القاهرة .
- ٧٨ — موسى سلمان :
الأدب القصصي عند العرب : بيروت / دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٩ م .
- ٧٩ — ابن النديم (محمد ت ٣٨٠ هـ) :
الفهرست — ليزك ١٨٧١ م .
- ٨٠ — النسفي (عبد الله بن أحمد بن محمود) :
تفسير النسفي — مطبعة محمد علي صبيح — القاهرة .
- ٨١ — ابن هشام الأنصاري : (محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ت ٧٦١ هـ) :
* شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب — المكتبة التجارية الكبرى .
- ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .
- * شرح قطر الندى وبل الصدى — مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٧٩ هـ — ١٩٥٩ م .
- * مغني اللبيب عن كتب الأمايب — مطبعة محمد مصطفى — القاهرة .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
إهداء الكتاب	أ
تقديم الأستاذ الدكتور/ حسن عون	ب ، ج
مقدمة المؤلف	١ - ٦

الفصل الأول

أسلوب القصة الأدبية عند العرب	٧ - ٣١
فن الروايات والأساطير	١٧
القصص المنقولة	٢٤
قصة ألف ليلة وليلة	٢٩

الفصل الثاني

أسلوب القصة في الكتب المقدسة	٣٣ - ٦٤
قصة بدء الخليقة وخلق آدم	٣٥
مخالفة آدم لوصية الله وسقوطه في الخطيئة	٣٧
قصة مولد المسيح كما ذكرت في الأناجيل	٤٧
أظهر المعجزات في القصة الإنجيلية	٥٠
قصة نزول المائدة	٦١

الفصل الثالث

أخصائص التعبير اللغوية لأسلوب القصة القرآنية	٦٥ - ١٠٩
النظم في قصص القرآن	٦٨
الألفاظ في القصص القرآنية	٧٠

الموضوع	الصفحة
النسق القرآنى فى القصة	٧٤
المخرج	٨٢
لغة القصة والإعجاز القرآنى	٩١
الهدف البيانى من ذكر الكلمة الأجنبية فى القصة القرآنية	٩٣
التصوير فى القصة القرآنية	١٠٠
رسم الشخصيات فى القصة	١٠٣
حزايا أخرى للقصص الدينية	١٠٦

الفصل الرابع

التكرار وأثره فى لغة القصة القرآنية	١١١ - ١٥٤
أمرار التكرار فى القصص القرآنى	١٢٢
من أسرار التكرار فى قصة موسى عليه السلام	١٣٠
الاشتقاق اللغوى للقصة	١٤١
أغراض القصة القرآنية	١٤٥

الفصل الخامس

من صور التركيب الإسنادى فى القصص القرآنى	١٥٥ - ٢٠٧
« الجملة الخبرية فى القصة القرآنية »	
خصائص الأسلوب الجيد	١٥٧
معنى الخبر	١٥٩ ٩
من صور التركيب الإسنادى فى القصة القرآنية	١٦٢
التركيب الإسنادى فى قصة أصحاب الكهف	١٧٤
التركيب الإسنادى فى قصة يوسف	١٨٢

- الأسلوب الخبرى فى قصة (إبراهيم) عليه السلام . ١٩٦
تكرير الفعل (آتينا) فى قصص الأنبياء . . . ٢٠٠

الفصل السادس

الجملة الطلبية فى القصة القرآنية ٢٠٩ - ٢٤٦

- الأسلوب الإنشائي ٢١١
الجملة الدعائية فى قصص القرآن ٢١٣
تراكيب ندائية فى صيغة الأمر ٢٢٤
تراكيب مجردة من النداء فى صيغة الأمر ٢٣٤
من صيغ الأمر الأخرى فى قصة يوسف ٢٤٥

الفصل السابع

أسلوب الاستفهام والنهى فى قصص القرآن الكريم ٢٥١ - ٣٠٢

- الجملة الاستفهامية فى القصة القرآنية ٢٥٣
استعمالات (أنى) الاستفهامية فى قصص القرآن ٢٥٦
موانع همزة الاستفهام وغيرها فى قصص القرآن ٢٦٠
الاستفهام فى قصة نوح عليه السلام ٢٦٧
التركيب الاستفهامى فى قصة (هود) عليه السلام ٢٧٠
» » » » (صالح) عليه السلام ٢٧٢
» » » » (لوط) عليه السلام ٢٧٦
» » » » (موسى مع فرعون) ٢٨٠
» » » » (سليمان) عليه السلام ٢٨٢

الموضوع	الصفحة
أسلوب النہی فی قصص القرآن	٢٨٤
النہی فی قصة آدم علیہ السلام	٢٨٦
» (نوح) علیہ السلام	٢٨٨
» (صالح) علیہ السلام مع قومه (ثمود)	٢٨٨
» (إبراهيم) علیہ السلام	٢٨٩
» (شعیب) علیہ السلام	٢٩٠
» (أصحاب الکف)	٢٩٢
» (موسی) علیہ السلام	٢٩٣
» (یوسف) علیہ السلام	٢٩٧
» (لقمان) علیہ السلام	٢٩٩
» (مریم) علیہا السلام	٣٠٠
» (قارون) مع قومه	٣٠١

الفصل الثامن

اثر بعض الظواهر اللغوية للقصة القرآنية ٣٥٦ - ٣٠٢

فی الدراسة البلاغیة

الحذف وصوره فی قصص القرآن	٣٠٦
الحذف فی قصة موسى علیہ السلام	٣٠٧
» مریم علیہا السلام	٣٠٨
» یوسف علیہ السلام	٣١٠
» خلق آدم علیہ السلام	٣١٠
» سلیمان علیہ السلام	٣١١

٣١٣	حذف الاختصار
٣١٥	حذف جواب « إن » الشرطية
٣١٧	» » « لو » و « لولا »
٣٢٠	» » « لما » في قصص (يوسف وإبراهيم عليهما السلام)
٣٢١	حذف المفعول
٣٢٣	حذف الجملة
٣٢٧	من صور الحذف في بعض الحروف
٣٣٠	ما يشبه بالزيادة والنقصان
٣٣٦	بين الحذف والاختصار والفعل
٣٣٧	الإبدال في الحروف والكلمات
٣٤٣	أسرار لغوية في التركيب
٣٤٣	في بيان الفرق بين الخطاب بالاسم والفعل
٣٤٦	التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله
٣٥٢	حول السؤال والجواب في قصص القرآن
٣٥٧	خاتمة الكتاب
٣٦٤	المراجع

الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية

تأليف

محمود السيد حسن

ماجستير في الآداب من قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

تقديم
الأستاذ الدكتور

حسن عون

أستاذ العلوم اللغوية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٨١

منشأة
مكتبة
مكتبة
مكتبة

في مساء يوم الخميس الموافق : { ٢٠ من شعبان سنة ١٤٠٠ هجرية
٣ من يوليو سنة ١٩٨٠ ميلادية }

نوقشت هذه الرسالة بمبنى كلية الآداب بالشامطبي في قسم اللغة العربية
واللغات الشرقية ، وقد تكونت لجنة المناقشة من :

الاستاذ الدكتور / حسن عـون مشرفا ورئيسا

الاستاذ الدكتور / السيد أحمد خليل عضوا

الاستاذ الدكتور / عبد الله دويش عضوا

« عميد كلية دار العلوم سابقا »

وقد أجازت لجنة المناقشة البحث بتقديم « متمساز »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ
حَدِيثًا يُنْتَرَى وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِّلُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

سورة يوسف : الآية ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

باسم الله ، أهدى هذا الكتاب إلى العالم الجليل أستاذي
الفاضل الدكتور / حسن عون ، سدد الله خطاه
وأصبغ عليه من فيض عطائه وجزيل نعمته وجعله منهلًا
هذا يستقى منه وراد المعرفة. فإن لله رجالا يرفع بالعلم
قدروهم ويجعلهم في الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ويقتدى
بفعلهم وينتهى إلى رأيهم .

محمود الحفيد حسن

سید محمد رحیم

تہ ————— دہیم

بقلم الأستاذ الدكتور / حسن عون

أستاذ الدراسات اللغوية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

لعل شغف الباحث بالدراسات القرآنية واستغراقه في بلاغة الإعجاز من أظهر الدوافع التي حفزته إلى الخوض في هذا المسلك للكشف عن وجوه الإعجاز اللغوي في قصص القرآن وسحر بيانه الرائع من خلال أسلوبه المتميز وبلاغته الرفيعة ومضمونه الخالص ، ومن أجل ذلك سلط الباحث الضوء على الجانب اللغوي الذي تتسع دائرته لتبرز ذروة البيان القرآني وطريقته المثلى في الإفصاح عن واقع الأحداث القصصية .

والباحث حين يسعى إلى هذه المحاولة يركز — في عرض الأفكار — على الجانب اللغوي التحليلي فيتناول القصص القرآني من حيث نوعية الأسلوب في الإطارين « الخبري والإنشائي » ويبيان الغرض من هذا الأسلوب ، ويبدى من خلال ذلك اهتماماً ملحوظاً بالصياغة اللفظية وصورتها الاشتقاقية ويعلل لإيثار القرآن إبراد ألفاظ مخصوصة عند عرضه للقصة ، كالألفاظ التي تنقل القارئ إلى مواقع الأحداث الغابرة فيبدو أثر البيئة واضحاً بين ثنايا القصة ، وتستخلص منه وجوه عديدة للعبارة والفائدة .

ولم يغفل الباحث تناول قضية التكرار في القصص القرآني ، فقد أفاض في بيان علة وقوع التكرار وأورد في ذلك أمثلة كافية وانتقل لبيان الأثر اللغوي للتكرار في قصص القرآن مسلطاً الضوء على قصة موسى عليه السلام باعتبارها أكثر القصص تكرراً ، كما علل لعدم وقوع التكرار في قصة يوسف عليه السلام .

ومما يتميز به هذا البحث أنه يعنى بإبراز جوانب جديدة تدور في نطاق الدراسات اللغوية ويكشف عن وجوه شتى لم يسبق إليها ، فهو لا ينظر إلى القصة القرآنية من حيث كونها قصة يقتصر على عرض أحداثها وذكر وقائعها على الأسماع لغرض التسليع وحدها !! ولكنه يطوف بالقارئ حول الميدان اللغوي المخصب فينمي قدراته ويصقل حافظته ويودع فيه البداهة فيرتفع به إلى درجة تمنحه القدرة على فهم الأسلوب القرآني وتذوق بلاغته العالية ويتأمل في محكم الآيات الكريمة وترباط أجزائها فيضفي عليه من روائع الإعجاز .

ولم يفت الباحث أن يرجع إلى أصول المصادر في علوم القرآن ، ينهل من فيض حكمتها ويدقق النظر في سبر أغوارها ويقف على بديع كنوزها ، وحسبه التقسيم المنهجي الدقيق في حصره للتراكيب اللغوية للقصة القرآنية في صورة فريدة منسقة تزج بالقارئ نحو روضة العلماء وتحفزه إلى قطف أروع الثمرات في ظل الفائدة المرجوة المحققة ، واستحق الباحث أن يمنح درجة الماجستير في الآداب بتقدير « ممتاز » .

والله ولي التوفيق

الأستاذ الدكتور / حسن عون